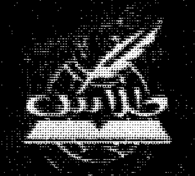


أحمد سليمان معروف

قراءة جديدة

في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم



دمشق ـــ أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١ ـــ ٢١٣٨٢١

تلكس : ٤١٢٠٥٠

ص.ب : ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

قراءة جديدة
في مواقف الخوارج
وفكرهم وأدبهم

٣

الطبعة الأولى
١٩٨٨

أحمد سليمان معروف

قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم



مقدمة

الحديثُ عن الخوارج ــ بالنسبــة إلي ــ حديث ذو شجون ، فلقد أقدمتُ على دراستهم ، والبحث في أحوالهم ، في ستّينيات هذا القرن ، حيث الشباب في أوج تألّقه ، والتطلع إلى المستقبل الأدبي والعطاء الفكري في عنفوانه ، وكنت آنذاك في بعثة تعليمية إلى القطر الجزائري ، وتراءى لي أن فرصة بلوغ المجد الأدبي قد سنحت ، وأن الظروف قد واتتني لأحقق في مغرب الوطن العربي حلماً لم يُتح لي تحقيقه في مشرقه . فسجلت موضوعاً عن (الطِّرِمَّاح) في جامعة الجزائر العاصمة ، للحصول على ما يسمّونه هناك (دكتوراه

الدرجة الثالثة)، وهي تساوي في سلّم الدراسا
الماجستير، سجّلتُ الموضوع لدى الدكتور طا
(من القطر المصري)، وكان أستاذاً معاراً إ
الجزائر، وكان الموضوع الثاني الذي تواعدنا ع
لنيل الدكتوراه عن (الخوارج وأدبهم) جرى كل
الدكتور شكري فيصل ومباركته، وقد استدع
مكي إلى مصر قبل نهاية إعارته، فنقلتُ تسجيل
إلى الدكتور شكري فيصل الذي كان معاراً
الجزائر أيضاً، وقطعت معه شوطاً غير قصير
العمل الأكاديمي، والتعرف على أوّليّاته من تبوي
ومعرفة طرق استعمال المراجع والأخذ عنها وغير

وكان الدكتور فيصل يزور وهران ممثلاً ل
الجزائري، ليرسي قواعد جامعتها الناشئة، وي
التقاليد الجامعية العريقة، وكنت أطلعه في زيارات
ما قمت به من عمل، فيثني عليه، ويشجعن
الله ــ بعبارات تدعو للفخر والاعتزاز، وتحفز
الطريق.

لكنَّ الرياح جرت بما لا تشتهي السفن، فاستدعي الدكتور شكري فيصل إلى دمشق كذلك قبل إنهاء إعارته، ثم استدعيتُ قبل إنهاء إعارتي، وتهاوى صرح الأحلام هذا دفعة واحدة، وحيل بيني وبين مابدا لي ذات يوم ممكناً بل ميسَّراً، وقفلت عائداً لا أحمل درجةً علمية معينة، ولا لقباً أدبيّاً، وبقي ما فعلته في هذا الموضوع طيّ الإهمال والنسيان بضع عشرة سنة.

حتى إذا استيقظت الفكرة من جديد، وأرادت أن ترى طريقها إلى النور، رأيت بعثها وتقديمها إلى القراء الكرام، بعيداً عن التسجيل الجامعي والمناقشات واللجان الفاحصة، ورأيت أن ذلك لا ينقص من قيمتها وجديّتها ومنهجيتها، وإذا كان سيتغير شيء (ممَّا كان سيحصل) فبعضُ شكليّات التبويب والتوثيق. وقد قسمتُ هذه الدراسة إلى قسمين منفصلين: قسمٍ عن الخوارج يتناول مختلف جوانب حياتهم السياسية والفكرية والاجتماعية والأدبية، مشفوعة بشيء من التحليل والتعليق، وقسم تناولتُ فيه الشاعر الطِّرمَّاح الذي تعارف الناس على تسميته

(وتنصيبه) شاعراً للخوارج. وستصدر الدراستان تباعاً بمشيئة الله وعونه: الخوارج أولاً ثم الطرماح، والموضوعان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، حتى إنني هممت بإصدارهما معاً في كتاب واحد. وترتيبُ قراءة الكتابين سيكون كترتيب صدورهما، لأن في قراءة الخوارج أولاً إلقاء ضوء كاشف على الكثير من جوانب الطرماح، إذ يتحدد موقعه من الخوارج وموقعهم منه. ولهذا فإني أحيل القارىء الكريم إلى قراءة الخوارج أولاً، لا من أجل الدعاوة للكتابين معاً ـــ كما يبدو للوهلة الأولى ـــ بل لما في ذلك من نفع أكبر. لقد وجدت أن من أصعب الأشياء، التعرّض لموضوع بتّ الأقدمون في أمره، وأصدروا الحكم فيه، ورسموا ملامحه، فرسخت صورته في أذهان الأجيال، وتعارفت عليه، واعتبرته من المسلّمات التي لا تناقَش، ولا يصح تناولُها إلّا من الزاوية التي أقرّتها هذه الأجيال وسلّمت بها.

قالت كتب التاريخ: إنّ الخوارج كَفَرَةٌ فَجَرة، مارقون من الدين، رفضوا كل شيء، وخرجوا على كلّ قانون ونظام، دون أن تناقش تلك الكتب ذلك القانون أو النظام،

وجرى ذلك على ألسنة الناس فتناقلوه وقبلوه على أنه من الحقائق التاريخية الثابتة.

وقال بعض المشتغلين بالتأليف الأدبي: إن الطِّرِمَّاح شاعرُ الخوارج فتناقل الناسُ هذا القول وتوارثوه، ولم يناقشوه كما لم يناقشوا: أن الكميت شاعر الشيعة، وأُن عبيد الله بن قيس الرّقيّات شاعر الزبيريين، وأصبح ذلك جزءاً من ثقافة الأجيال الأدبية.

كما وجدت أن من يندب نفسه لدراسة أحد هذين الموضوعين أو كليهما، بغير التوجه السالف الذكر، أو يتحرك بغير ذلك المنحى، أو يحاول رسم صورة تغاير الصورة المعروفة، فإنه لا شك سيجد عناءً كبيراً، إذ ستعوزه القدرة على الإقناع، وإن قدَّم بين يديْ دراسته الحجة والدليل المنطقي أو العلمي.

والإقناع والاقتناع بأمور كهذه ــ كما هو معروف ــ لا يأتيان دفعةً واحدة، بل تتجرعهما الأجيال دفعاتٍ كثيرة، وعلى فتراتٍ متباعدة أو متقاربة، حتى يتاح لتلك الأجيال إحلال الجديد محل القديم، وتقبّل اللافتة الأخيرة

بدلاً من الأولى. فالتاريخ القديم رسم ملامح الخوارج، ومنحهم بطاقتهم الشخصية، وألصق في أعلى تلك البطاقة صورةً غير صورتهم، ونكّرهم بوجوه مستعارة، فتعرضوا بذلك لحملة تشويهٍ وتزوير بلغت حدَّ الاعتداء على شخصيتهم وتاريخهم، فلا يستطيع كتاب واحد أن يمحو ذلك التراكم الموروث، بل لابد من تضافر جهود كثيرة عبر أجيال متعاقبة.

ولم يفتني أن الخوض في أمر مسلَّم به، ومحاولة تغيير الصورة المعروفة عنه، سيلاقي استغراباً وربما استنكاراً، وقد يطيب للكثيرين ممن لا يريدون التعمق وإعمال الفكر، أن يتهموا من يكتب بهذا التوجه، أو يحاول قلب مفهوم راسخ، أنه ينطلق من مبدأ (خالفْ تُعرف) وأنه جاء بهذا الرأي الخلافي كي يلفت النظر إليه.

ومما دفعني ــ بعد ماذكرت من صعوبات ــ للخوض في هذا الموضوع بعينه، مارأيت من قلة الدراسات فيه، وعدم جدوى ما كتب عنه، في إضاءة المظلم من جوانبه، كما أني لم أجد فيما كتب رأياً جريئاً، أو

بحثاً جدياً أتى بمناقشة حرة، أو تعليق صريح، إنما هي آراء منقولة كما وردت في كتب الأقدمين، لم تنفض عن الموضوع غباراً ولم تأت فيه بجديد..

ولا أعتقد أن مؤلّفاً ــ بالغاً ما بلغ شأنه ــ يستطيع أن يقلب مفاهيم أجيال تعاقبت على الاعتقاد بفكرة، ولو كانت خاطئة.

ولا أطمح أن أحقق هذه المعجزة، فأغسل ما علق بأذهان الناس عبر الأجيال السالفة، كما لا أدعي أنني استطعت أن أفعل كلَّ مالم يفعله غيري، أو أني أضأت جوانب الموضوع إضاءة كاملة، أو أني أنجزت كلَّ ما يجب إنجازه في هذا المجال..

ولكن الذي فعلته، هو أنني أدليت بدلوي في هذا المضمار، ووضعت شمعةً على الطريق، عسى أن يأتيَ من بعدي من يجد الباب أوسع، والطريق أسهل، فتتوضح له أمور لم تتوضح لي، ويقع تحت يده مالم يقع تحت يدي وعلمي، فيكون إسهامه أكبر وأنفع.

وعلى أني لا أستطيع التنبؤ بمدى فاعلية هذه

الدراسة، ولا بجدوى الدور الذي ستلعبه (بواقعها وجملة ظروفها) في ردم الهوة السحيقة التي فصلت حقيقة الخوارج عن أعين الناس وأذهانهم، فإني أرجو أن تقيم جسراً من نوع ما بينهم وبين القارىء الكريم..

مصياف في / ١٥ /أيار / ١٩٨٨

أحمد سليمان معروف

(١)

من هم الخوارج؟

المعروف لدى عامة الناس، أن الخوارج فئة خرجت على الحاكم وشقَّت عصا الطاعة، فاستحقَّت هذه التسمية المهينة، واستحقت أكثر من ذلك، لعنةً دائمةً تلاحقهم عبر الأجيال.

فقد كان الخروج على الحاكم — وما يزال — في نظر الحاكم على الأقل، وعند العرب بخاصة، سبَّةً وعاراً أقل ما يجب أن ينال مرتكبه الملاحقة والسجن، والموت في بعض الأحيان. فتاريخنا القديم تاريخ حكام، لا دور للشعوب فيه إلا في القليل النادر، ولا مكان للحركات التي كانت تعبّر بطريقةٍ أو بأخرى عن مطلب

شعبي، أو تجاهر برأي جماهيري حر، يتعرض للسلطان من قريب أو بعيد.

والخوارج عند الخاصة، والذين قرؤوا التاريخ: حزبٌ سياسيٌّ نشأ في صدر الإسلام، وفي زحمة الصراع على الخلافة، وعلى وجه التحديد هم الفئة التي خرجت على الخليفة الراشدي الرابع علي ابن أبي طالب (كرم الله وجهه) في معركة صفين، لأنه قبل التحكيم. وقد عرَّفتهم كتب التاريخ فقالت: الخارجي هو كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه، «سواء أكان ذلك الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان في كل زمان»[1] ويظلون في نظر الخاصة كالشيعة والأمويين والزبيريين، همهم الوصول إلى الحكم.

لكنَّ واقع الخوارج — في حقيقة الأمر — ليس كما ذُكر، فهم ليسوا بالخارجين على القانون لمجرد الخروج والتمرد على الحكام، كما فهمهم العامة. وليسوا حزباً سياسيّاً يزاحم للوصول إلى الحكم

(١) الملل والنحل للشهرستاني/ ١١٤ / والكامل في التاريخ لابن الأثير ج / ٣ /ص ٣١٦ والكامل للمبرد (باب الخوارج) ص / ٧ /.

والظفر بالخلافة، كما قرأهم الخاصة. إنهم ظاهرة فريدة وفذة في تاريخ العرب البكرّ.

سأعرض بالدراسة لنشأتهم ولشيء من تاريخهم— إذ لا سبيل لشرح كلّ ذلك التاريخ الطويل في دراسة موجزة أو محاضرة تلقى في زمن محدد. كما سأتعرَّض لآرائهم السياسية والدينية، ولأخلاقهم وصفاتهم وحالتهم الاجتماعية وأدبهم بمثل الإيجاز الذي ذكرت عن تاريخهم.

(٢)

نشأتهم الأولى

قد يفاجأ القارىء الكريم عندما يسمع لأول مرة أن جذور الخوارج ترجع إلى ما قبل الإسلام، وأن الصعاليك صعاليكَ الجاهلية هم أجداد الخوارج. فكلنا يعرف ذلك النفر من الصعاليك الذين خرجوا على أعراف قبائلهم وتقاليدها، وتمردوا على قيم البادية وأخلاق النظام القبلي الذي هو النظام الشرعي، وشهروا سيوفهم في وجوه الأغنياء، وسلبوا ونهبوا، ولكن بأخلاقية الفروسية العربية. إذ كانوا يوزعون القسط الأكبر من مغانمهم على الفقراء والمحتاجين، فخروجهم نوع من الثورة على النظام الاجتماعي الفاسد

في الجاهلية، واحتجاج مسلح على سوء توزيع الثروات في المجتمع القبلي، وإشارة قوية إلى الوعي الذي تميّز به أولئك الصعاليك.

وكلنا يعرف كم كان الخروج عن وعلى القبيلة يكلف من ثمن باهظ، فالذي يتحمل ذلك الخروج وتبعاته وجرائره ليس بالشخص العادي قطعاً.

وإذا كان المعاصرون قد حكموا على ثورة الصعاليك بأنها خروج على نظام اجتماعي فاسد، هو نظام القبيلة ــ وهو النظام الشرعي آنذاك ــ فإن الأمر مختلف بالنسبة للحكم على ثورة الخوارج، لأن من الصعب بل من الممنوع أن تقيَّم ثورتهم على أنها خروج على نظام اجتماعي فاسد، وقد حكم عليها الأقدمون أحكاماً لا تقبل النقض، على أنها خروج على الشرعية، وتمرد على النظام والقانون، فالنظام إسلامي والخليفة ظل الله وخليفة رسوله.

وربما كلَّفتُ القارىء عناءً كبيراً إذا طلبت إليه أن يتتبع معي أنساب هؤلاء الصعاليك وقبائلهم، ثم أولادهم وأحفادهم الذين أصبحوا خوارج يوم الخروج الأكبر في صفين، وحسبي الآن أن أنبّه إلى طبيعة العلاقة بين خروج الأجداد في الجاهلية وخروج أحفادهم في الإسلام، وإلى أن هذه النوعية من البشر

جاهزة للخروج على النظام القائم والحاكم كائناً من كان، بما تحمل من مزايا: التمرد وحب النقد وعدم السكوت على ما تراه خطأ.. ويمكن القول باختصار: إن هؤلاء هم صعاليك الإسلام، ورثوا الخلق الصعلوكي وأضافوا إليه ماجاء به الإسلام من قيم السماء، فعملت على صقله وتهذيبه وتنقيته من شوائب الجاهلية.

ربما كان أول صوت سُمع من الخوارج ــ في الإسلام ــ وفي وجه نبيّ الإسلام نفسه، صوت من سمته كتب التاريخ والأدب (المُخْدَج)[2] أو (ذا الخويصرة)[3] أو (ذا الثدية)[4] وقالت عنه تلك الكتب: إنه رجل من تميم، وروت الحادثة التالية على اختلاف بسيط في الرواية، ولكنها (أي تلك الكتب) أجمعت على مضمون القصة: وهي أن النبي (ﷺ) كان يقسم غنائم غزوة خيبر، فبادره ذلك المخدج بلهجة جافية قاسية: إنك تقسم بغير ما أمر الله! ويتجاوزها النبي الكريم بما عرف عنه من حلم وسعة صدر، ويتجاهل استنكار الصحابة لهذا الصوت المستهجن،

(٢) المُخْدَج: الناقص الخلق.

(٣، ٤) أطلقت هذه التسمية على المخدج لأن يده كانت كثدي المرأة لاصقة على خاصرته ــ وهذا هو النقص الذي كان فيه..

ولكن الصوت يعود ليقول: لم تعدل يامحمد. ويقول أيضاً: هذه قسمة ما أريدَ بها وجهُ الله، ويتولى محمد (ﷺ) الرد عليه برفق ولين: ويحك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ ويغضب كبار الصحابة لهذه الوقاحة التي يُخاطَب بها الرسول على مسمع من الناس، والرسول قائد ديني ودنيوي لا يُناقَش في شيء ولا يُخَطَّأ في شيء، ولا يقال له: لا، فهو بأمر الله يصدع وعن لسانه يتكلم، لا ينطق عن الهوى ولا يحيد عن الحق!! فما بال هذا الخارجي يُخطّئه بمثل هذه الجرأة؟! ويستأذن بعضُ الصحابة النبي (ﷺ) في قتله حتى لا تكون فتنة، ويأذن لهم بذلك. ولكن المخدج لم يقتل إلا مع قتلى الخوارج في النهروان، على يد عليّ بن أبي طالب. وتروي كتب التاريخ وبعض كتب الأدب كالكامل للمبرد، أن فرحة علي بمقتل المخدج كانت كبيرة، وأنه ألح على تفقد جثته، فلما عثر عليها خرَّ ساجداً شكراً لله!(٥).

ولا نكاد نسمع شيئاً ذا بال عن الخوارج في خلافة أبي بكر وخلافة عمر، وأنبّه إلى أن الردّة في خلافة أبي بكر هي أبعد ما تكون عن الخوارج، فهي حركة ارتداد عن الإسلام وانسلاخ عن

---

(٥) الكامل للمبرد ٣٠ ــ ٥٨/٣١ ــ والكامل في التاريخ ج ٣٤٧/٣ وشرح نهج البلاغة ج ١ /٢٤٩.

الدين، والخوارج مسلمون صحيحو الإسلام، وتمردهم كان دائماً انتصاراً للدين، بل وانتقاماً للخروج عليه.

حتى إذا كانت خلافة عثمان، وكانت الفتنة الكبرى ــ كما أسماها الدكتور طه حسين ــ واشرأبت الأعناق من كل الأمصار، وكثرت التساؤلات حول سياسة الخليفة الثالث... ولا يعنينا ــ هنا ــ أمر تلك الفتنة ولا هذه السياسة، إلا ما كان من ذلك الدور الذي لعبه من أصبحوا خوارج فيما بعد، فلقد كان هؤلاء على رأس المتجمهرين للفتك بعثمان والناقمين على سياسته. لقد رفعوا أصواتهم بالاحتجاج في بادىء الأمر، ثم رفعوا سيوفهم. وكان أن قَتَلَ الخوارجُ عثمان، كما اعترفوا هم أنفسهم بذلك فيما بعد، يوم خرجوا على عليّ في صفّين، إذ قالوا له يوم أمرهم بمتابعة القتال على الرغم من رفع المصاحف، واعتبار ذلك خدعة: ياعلي أجبْ إلى كتاب الله عزَّ وجلّ إذْ دُعيتَ إليه وإلّا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلناه بابن عفان[٦]. وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة وتحديداً ذكرنا بعض الأسماء التي شاركت في مقتل عثمان، ثم

(٦) الكامل في التاريخ ج ٣ /٣١٦ــ٣١٧، والملل والنحل للشهرستاني ج ١/١١٤.

شاركت في الخروج على عليّ وحربه، من هذه الأسماء: زهير بن حرقوص السعدي، كان أمير الخارجين من أهل البصرة لحصار عثمان وقتله (وقد قتل جميع الذين خرجوا من البصرة لقتل عثمان في حرب الجمل عدا حرقوصاً هذا إذ منعته عشيرته بنو سعد)[٧]. ومن بين الذين شاركوا في قتل عثمان ثم شاركوا في الخروج على علي: زيد بن صوحان العبدي وزياد بن النضر الحارثي وغير هؤلاء كثير.[٨]

منهم من كان مع علي في حرب الجمل، ومنهم من كان مع عائشة؛ وممن كان في جيشها من الخارجين لمقتل عثمان، وكان أول من أنشب القتال في حرب الجمل: حكيم بن جبلة العبدي[٩]. وقد أوردت هذه الأسماء لأدلّل بها على صحة ماذهبت إليه من استمرارية روح الخروج وأن الخروج في صفين لم يكن في واقع الأمر إلا ساعة الصفر ــ كما يقول المحدثون ــ.

وتصير الخلافة إلى عليٍّ بن أبي طالب وقبل أن نقفز إلى

---

(٧) الكامل في التاريخ ج ٣ /٢١٩.

(٨) مروج الذهب /ج ٢ /٣٤٣ وابن الأثير ج ٣ /١٥٨ وعلي وبنوه لطه حسين /٣٧/.

(٩) الكامل في التاريخ ج ٣ /٢١٤.

صفين حيث كان الخروج ــ تاريخياً ــ نرصد شيئاً من حركة هؤلاء المهيئين للخروج الذين يحملون بذور الثورة بدمائهم، والذين كانوا يشكلون (مشروع الخوارج) لقد رضيَ هؤلاء أشدّ الرضى عن خلافة علي وأعجبهم فيه: زهده وفصاحته وشجاعته وصراحته وصدقه وعدله، وهذه صفات ظلّوا ينشدونها، وودّوا لو تحلّى بها الحاكم والمحكوم، ومع ذلك فقد كانوا يتململون ويبدون نوعاً من الخروج قبل صفين، وذلك لشعورهم بتهاون علي في ضرب الثائرين على شرعية خلافته في حرب الجمل التي كانت تقودها عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير، وهما من أكابر الصحابة وأصحاب الشورى. وقد كان رأي الخوارج يتلخص فيما يلي:

ما بال هذا الرجل (يعنون علياً) لا يُعمل السيف في رقاب هؤلاء الناكثين بيعته، المرتدّين على شرعيّة خلافته، حتى لكأنّه شك في صدق موقفه؟ ألم يبايعه طلحة والزبير في أول المبايعين؟ لقد حلّت له دماؤهما ودماء من معهما في كتاب الله وسنة رسوله، فإنَّ أي تأخر عن أخذهم بالسيف هو تهاون لا مسوِّغ له.

لكن الأمر بالنسبة لعلي لم يكن بالبساطة التي رآها خوارج المستقبل، فهو يقف وجهاً لوجه أمام أجلّاء الصحابة وزوج ابن

عمه رسول الله (ﷺ) وجيش كبير كبير منَ المسلمين ، وكان من عادته ألا يبدأ بقتال ، بل كان ينتظر البدء من العدو حتى يقيم عليه الحجة .

وتحاجز العسكران الكبيران قرب البصرة ، ولجأ عليّ إلى المحاورة والمفاوضة ، فطلب الزبير وحاوره وعاتبه عتاباً مرّاً ، انسحب بعده الزبير من المعركة ، وحاور طلحة كذلك ، وللإنصاف أذكّر بما قاله التاريخ من أن الرجلين لم يقتلا في حرب مع علي ، بل كان مقتلهما خارج معركة الجمل ، قتل الزبير غيلةً بعيداً عن ساحة المعركة ، وقتل طلحة بسهم انطلق من معسكر عائشة ـــ وكان مُتَّهماً بدم عثمان ـــ .[10]

كان الخوارج إذاً يضيقون بهذه المفاوضات ، ويتململون ضجراً وبرماً من صبر علي وتمهله في قمع هذه الفتنة ، وكانوا يتفوهون ببعض الكلمات ، ويطلقون السهام نحو معسكر عائشة ،

---

(١٠) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ / ١١٦ = قاتل الزبير عمرو بن جرموز ، حمل رأسه وسيفه لينال الجائزة من علي فغضب وبشره بالنار ، وأصبح ابن جرموز هذا خارجياً قتل في النهروان . أما خبر مقتل طلحة فجاء في الطبري ج ٤ ص ٥٢٧ ومروج الذهب للمسعودي ج ٢ / ٣٦٤ / وعلي وبنوه لطه حسين ص/ ٩٥ /.

(٣)

صفّين والخروج الأكبر

لم يكد علي يفرغ من حرب الجمل ويتجرع ماخلّفته من فواجع وويلات ودماء وجراح نازفة ـــ إذ كانت أول حرب طاحنة بين جيشين من المسلمين ـــ لم يكد يفرغ من تلك الحرب، حتى وجد نفسه يلبي نداء حرب جديدة، فزحف بجيشه نحو الشام لملاقاة جيش معاوية الذي شق عصا الطاعة أيضاً، وأعلن نفسه خليفةً في دمشق وأعد العدة للحرب..

والتقى الجيشان في صفين على الفرات قرب الرقة سنة سبع وثلاثين للهجرة. ولا يعنينا من أمر هذه الحرب ولا من وقائعها إلا ما يتعلق بموضوعنا:

يتألـف جيش عليٍّ من كبـار الصحابـة، المهاجريــن والأنصار، العبّاد الزّهّاد القرّاء، وكلهـم يؤمن بخلافة علي وشرعيتها إيمانه بالدين نفسه، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم، ولا يتسرب إلى قلوبهم شك في صحة موقفهم وصدقه، وهم لا يرجون على ذلك الموقف مطمعاً دنيوياً ولا يدفعهم إلى الأخذ به مطلب مادي.

ومن جهة أخرى فإنهم يعتقدون بنفس الثقة واليقين بمروق معاوية من الدين وبغيه، وأنه هو وقومه الفئة الباغية التي يجب قتالها حتى تفيء إلى أمر الله، وكانوا يردّدون ـــ وهم حفظة القرآن وفقهاء الدين ـــ آية الفئة الباغية ﴿ وإنْ طائفتانِ من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله [١٢] ﴾.

ويشتد القتال ويطول أمده شهراً، وتظهر الغلبة لجيش علي ويكاد يتحقق له النصر، لولا خدعة رفع المصاحف التي أشار بها داهية العرب عمرو بن العاص[١٣].

ما كاد أولئك العبَّاد الزّهّاد حفظة القرآن من جيش علي

---

(١٢) سورة الحجرات الآية /١٠/.

(١٣) ابن الأثير ج ٣ /٣١٦ وغيره..

يرون كتاب الله على الرماح يصيح رافعوه : ياقوم .. هذا كتاب الله بيننا وبينكم .. لا حكم إلّا للّه ، ما كادوا يرون ويسمعون حتى استرخت أكفهم عن مقابض السيوف ، وأصاب تلك السواعد القويةَ المؤمنةَ ـ وقد رأت النصر وشيكاً ـ شللٌ لا تقوى معه على الحراك ـ وعلي يصيح بهم : إنها خدعة ، ويحذرهم من النتائج ويؤكد لهم أنه يقاتل معاوية وأصحابه لمخالفتهم كتاب اللّه ، وأما قولهم : لا حكم إلا للّه ، فإنها كلمة حق يراد بها باطل(١٤) . أو كما جاء في النصوص التاريخية : قالوا لعلي حين رأوا المصاحف على الرماح : القوم يدعوننا إلى كتاب اللّه ، وأنت تدعونا إلى السيف ، قال علي : أنا أعلم بما في كتاب اللّه ، انفروا إلى بقية الأحزاب ، انفروا إلى من يقول : كذب اللّه ورسوله ، وأنتم تقولون : صدق اللّه ورسوله ، قالوا : لَتُرجعنَّ الأشتر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك مثلما فعلنا بعثمان(١٥) . وأستطرد قليلاً لأشير إلى أن هؤلاء الخوارج هم الذين ثاروا على عثمان ، وهم قتلته الحقيقيون .

ومن الذين قالوا لعلي مثل هذا القول ـ وكانوا قد شاركوا في

---

(١٤) شرح النهج ج ١ /٢٦٢ والكامل لابن الأثير ٣/٣٣٤ .

(١٥) ابن الأثير ج ٣ ٣١٦ ـ ١٧ ـ والملل والنحل ج ١/ ١١٤ .

فتنة عثمان ـــ مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حسين الطائي في عصابة من القراء مما قالوه له: ياعلي أجب إلى كتاب الله عزّ وجلّ ـــ إذْ دُعيت إليه ـــ وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان(١٦).

ويتوقف القتال في صفين بعد أن استدعى عليّ الأشتر وأمثاله ممن كانوا يرون النصر قاب قوسين أو أدنى، ويصار إلى (التحكيم) الذي هو أساس قضية الخوارج، وتُكتب صحيفة التحكيم، وهي الصيغة التي اعتمدها الطرفان المتحاربان أساساً لحل الخلاف، ويُسمَّى الحكمان: أبو موسى الأشعري عن علي وعمرو ابن العاص عن معاوية. ويبدأ الأشعث(١٧) بالطواف في معسكر علي يتلو كتاب التحكيم فرحاً مستبشراً، وكان أول صوت سمع بالتحكيم ورفض الصحيفة هو صوت عروة بن أدية، إذ سل سيفه وقال للأشعث: ما هذه الدنية ياأشعث؟ وما هذا التحكيم؟ أشرط أوثق من شرط الله عز وجل!(١٨)

---

(١٦) ابن الأثير ج ٣ ٣١٦ ـــ ١٧ ـــ والملل والنحل ج ١/ ١١٤.

(١٧) هو الأشعث بن قيس الكندي من جند علي المقربين وقد لعب دوراً كبيراً في أمر الخلاف وتشكك كتب التاريخ في صدق موقفه من علي.

(١٨) الكامل للمبرد /٢٢ وابن الأثير ج ٣ /٣٢١.

كُتب كتاب التحكيم يوم الأربعاء ١٣ صفر/ ٣٧ هـ وحدد موعد اللقاء من أجل التحكيم في رمضان من العام نفسه[١٩] وبين هذين التاريخين تسارعت الأحداث تسارعاً مذهلاً ، فقد انتبه الخوارج إلى أن ما فعلوه من إرغام علي على وقف القتال وقبول التحكيم كان خطأً ، بل كان كفراً يجب الاستغفار منه ؛ وطلبوا من علي أن يرفض ذلك التحكيم ويلغي تلك الصحيفة فلا يجوز التحكيم في الأمور الواضحة من دين الله ، لكن طلبهم ذاك جاء متأخراً وبعد فوات الأوان ، فعلي أوقف القتال ووقّع على صحيفة التحكيم ، وشهد على ذلك نخبة من المسلمين ، وقد أصبح التراجع خيانة وغدراً لا يقبل بهما .

وأصرَّ كل على موقفه فكان الخروج التاريخي المعروف ، وَوُلد الخوارجُ فئةً مميزة مستقلة عن غيرها بُعيد رفع المصاحف وكتابة صحيفة التحكيم ، سنة سبع وثلاثين للهجرة .[٢٠]

واعتزل معسكرَ علي اثنا عشر ألفاً من أشد مقاتليه ليعسكروا في مكان بالعراق اسمه حروراء ، لذا كانت الحرورية من

---

(١٩) نفس المرجع السابق /٣٢١ .

(٢٠) ابن الأثير ج ٣ ٣٢٢/٣٢٧ والكامل للمبرد /٢٣ .

أسمائهم، وهم نواة الخوارج وأول من أطلقت عليهم هذه التسمية بشكل تاريخي[21] .. وقد حاول بعض المؤلفين[22] أن يقيموا علاقة بين الخوارج وبين السبئية، فاعتبروا أنهم جزء منهم وأن نشأتهم مرتبطة بهم، وقد بالغوا في ذلك حتى زعموا أن عبد اللّٰه بن وهب الراسبي ــ أول أمير للخوارج ــ هو عبد اللّٰه بن سبأ نفسه، لولا أنهم استدركوا واعترفوا أن الراسبي قتل في النهروان، وقد قصد هؤلاء المؤلفون من وراء ذلك إلى تشويه أصل الخوارج، والإساءة إليهم والتشنيع عليهم مجاراةً لقدماء المؤلفين وسيراً على طريقهم، لكن التوفيق لم يحالفهم فيما سعوا إليه، لافتقاره إلى الدليل العلمي، وبعده عن طبيعة الخوارج وأخلاقهم كما سنرى.

ومهما يكن من أمر، فقد أوقف القتال، ووقّع عليّ صكّ التحكيم، واختير الحكمان، وحُدّد مكانُ الاجتماع في دومة الجندل ببادية الشام، وزمانُه في رمضان من السنة السابعة والثلاثين للهجرة... والأمر الذي يدعو للتوقف وإطالة التأمل هو أن كل كتب التاريخ تُجمع على أن عليّاً حُمل على وقف القتال، وقبول

(٢١) ابن الأثير ج ٣ ٣٢٢/٣٢٧ والكامل للمبرد /٢٣.
(٢٢) الخوارج في العصر الأموي / ٥٨ /.

التحكيم وقبول الحَكَم أيضاً، فقد رشّح ابن عمه عبد الله بن عباس والأشتر النخعي ليكونا مفاوضَيْن عنه، ولكنَّ جماعةً منهم الخوارج أصرّوا على اختيار أبي موسى لا يقبلون له بديلاً، ما القوة التي استطاعت أن توقف القتال وتهدد علياً بالقتل، وتفرض عليه التحكيم كأسلوب لحل هذا الخلاف المستحكم؟ ثم من هم الذين لم يتركوا له حرية اختيار الحكَم، فأيّ دور بقي له في هذه اللعبة؟.

إني أرجّح أن الأمر لم يكن بالشكل الذي أورده جماعة المؤرخين! (من أن الخوارج شهروا سيوفهم في وجه علي وأرغموه على وقف القتال وقبول مبدأ التحكيم وفرضوا عليه أبا موسى الأشعري حَكَماً لا شريك له.).

فهم لم يكونوا بعد قد شكّلوا قوة جماعية ضاغطة لها رأي موحد، بل ما زالوا أفراداً لهم آراء شتى لا ينظم بينهم ناظم، إلا بعض الخواطر المشتركة، والتي لم تصل بعد إلى حد الإجماع، بل أميل إلى الاعتقاد ــ ومن خلال المعطيات التاريخية المحيطة بجو الخلاف والمعركة التي طال أمدها، وتسرب جند المعسكرين بعضهم إلى بعض ــ أميل إلى القول: إن الذين لعبوا ذلك الدور الكبير، هم نفر من جند علي كانوا مدسوسين عليه موعودين من معاوية وعمرو

ابن العاص، ضربوا على وتر حساس، وأصابوا نقطة ضعف: كتاب الله بين المعسكرين وأصوات تصيح: هذا كتاب الله فهو الحكم بيننا وبينكم، والتعب قد بلغ مبلغاً كبيراً من الجند، وحقن الدماء واجب ديني، والتحكيم وارد في كتاب الله، ثم إن نتيجة التحكيم ستكون لصالح الخليفة الشرعي الذي يحاربون تحت لوائه، فلماذا لا يكون وقف القتال؟. يرى صاحب اليمين واليسار في الإسلام[٢٣] أن علياً أوقف القتال في صفين نزولاً عند رغبة الأكثرية من جنده، وتمشياً مع أسلوبه الديموقراطي في تغليب رأي الأكثرية، وترسيخ هذا المبدأ لدى جماعته، ويرى أيضاً أن وقف القتال كان مؤامرة استطاع معاوية أن ينفذ بها لدى اليمين في جند علي، إذ اشترى كل القابلين للخيانة بحكم وضعهم الطبقي ومصالحهم الطبقية[٢٤].

هل يمكن أن يكون الخوارج قد فعلوا كل ما نسب إليهم بذلك التصميم والإصرار، حتى هددوا صاحبهم بالقتل ثم تراجعوا عنه بمثل ذلك التصميم والإصرار؟ واعتبروه كفراً يستغفرون الله منه؟.

---

(٢٣) اليمين واليسار في الإسلام: أحمد عباس صالح /١٢٦.

(٢٤) نفس المرجع /١٣٩.

الأمر الذي لاشك فيه أن قسماً من الخوارج قد قبل التحكيم في وقت من الأوقات وشارك في بعض مراحله، ولكنْ ليس بالفاعلية التي ذكرتها كتب التاريخ، ثم إنهم سرعان ما تراجعوا عما قبلوه واعتبروه كفراً صريحاً. وبذلك تكون عامة الخوارج بريئة من أسوأ تهمة وجهها لهم التاريخ وفيها مقتل الشرعية.. وهي دفع علي وإرغامه على وقف القتال، وقد ثبت فيما بعد أنهم غير مستفيدين مما نسب إليهم، فلماذا لا يحمّل التاريخ مسؤولية ما حصل للمستفيد الحقيقي منه؟ وقد أشارت كتب التاريخ إلى الأشعث بن قيس وأمثاله من جند علي أنهم لم يكونوا على ولاءٍ صادق له.

وأرجّح مع طه حسين والعقاد أن فرض التحكيم واختيار الحَكَم (كان مؤامرة استغلّت بساطة وإيمان الذين صاروا خوارج) قام بإحكامها مدسوسون على عليّ والخوارج معاً، كان على رأسهم الأشعث بن قيس الكندي[25] وإذا سلّمنا بأن الخوارج قبلوا وقف القتال حينا رأوا كتاب الله على الرماح، فما الذي يجعلهم يصرون على احتيار أبي موسى الأشعري ممثلاً لعلي؟ ورئيساً لوفده المفاوض وزادُهُ في تلك المهمة الصعبة وأمام

(٢٥) علي وبنوه لطه حسين /٨١ وعبقرية الإمام علي للعقاد /١٣٥.

خصمه الداهية عمرو بن العاص، أنه ميال للسلام، وأنه شيخ وقذته العبادة وأنه عثمانيّ الهوى، وقد كانت به غفلة نفذ منها خصمه الذكي ـ[26] وهناك من يتهم أبا موسى نفسه، إذ كيف يمكن أن يُفسَّر خلعه لموكّله قبل أن يتأكد من صدق نوايا خصمه، في الخلع المتفق عليه؛ وقد كان عبد الله بن عباس ظهيراً لأبي موسى وعضواً في الوفد المفاوض، وقد أشار عليه وأكّد وألحَّ ألا يكون أوّل من يصعد المنبر وأول المتكلمين، وألا يعلن خلع صاحبه قبل أن يسمع الخلع من عمرو أولاً، ولكنه خالف النصيحة، وصعد المنبر أولاً وخلع علياً من الخلافة،[27] ولإنصاف ابن عباس نقول: إنه لم يوافق على الخلع أساساً، وربما يكون أبو موسى قد أخفى نيته حتى صعد المنبر، ففاجأ بها الناس بعامة، ومستشاريه بخاصة.. هل كان الخوارج ينوون تسليم الخلافة إلى معاوية فيختارون أبا موسى حَكَماً لهم؟ ما أظنهم كانوا كذلك ولا إخالهم فعلوا ذلك ـ إن كانوا قد فعلوه ـ إلا ضحايا لمؤامرة قد استهدفتهم جميعاً.

وأرى مع الأستاذ عباس محمود العقاد[28] أن فرض أبي

---

(٢٦) شرح النهج ج ١/ ٢٣٥ ـ ٢٤٠ وتاريخ الفكر العربي لفروخ /١٨٥ وغيرهما.

(٢٧) شرح النهج ج ١/ ٢٤٠ وعلي بن أبي طالب، عبد الفتاح عبد المقصود ج ٥ /٩٣ ـ ٩٤.

(٢٨) عبقرية الإمام علي /١٣٥ ـ ١٣٦.

موسى الأشعري ممثلاً مفاوضاً عن عليّ ــ على الرغم من أنه كان من حلقات المؤامرة ــ فإنه لم يؤثر على جوهر القضية في شيء، فالحَكَم كائناً من يكون لا يستطيع أن يعطي علياً شيئاً، حتى ولو كان ذلك الحكم عبد الله بن عباس مرشح علي وابن عمه، أو الأشتر النخعي الذي كان أشد المتطرفين والمتحمسين لعلي، من المؤكد أن ابن عباس والأشتر ماكانا ليوافقا على خلع علي، ولكنْ من المؤكد أيضاً أنهما لم يكونا ليحصلا له على موافقة الفريق الثاني بتثبيته في الخلافة، ولا أن ينتصفا من عمرو بن العاص، فقد كان يحمل في جعبته أوراقاً كثيرة يريد أن يلعبها في الوقت المناسب وأمام الحكم المرسل من علي مهما كان نوعه..

الهدف الذي رمى إليه عمرو ومعاوية من رفع المصاحف قد تحقق، وهو وقف القتال، وإشاعة الفرقة والجدل والخصام في جند عليّ، فقد حصلا على هدنة رسمية تمكنهما من المراوغة وكسب الوقت، والتدبير لكسب المعركة النهائية ــ وهذا ما حصل بالفعل ــ .

أما اختيار الحكم، وانعقاد مؤتمر دومة الجندل، وما أحاط به من أمور فلا قيمة له على النتيجة النهائية، وما تحميل أبي موسى

لاشعري مسؤولية خذلان علي إلا إبراز للجانب السطحي الإعلامي للموقف .. وعلى الرغم من الاعتقاد بأن أبا موسى لم يكن مخلصاً لعلي وقضيته، فإن عمرو بن العاص لم يكن مخلصاً لمعاوية وقضيته أيضاً بل كان طامعاً بالخلافة، يدبر لخلع علي ومعاوية معاً، وكان نصحه لمعاوية مدخولاً وغير خالص لوجه الله [29] وأستطيع أن أقول: إن أبا موسى على الرغم من أنه أعلن خلع علي، وأن عمراً أعلن تثبيت معاوية، كان (أعني أبا موسى) أخلص لعلي من عمرو لمعاوية ولقضية الخلافة كلها.

لكنَّ الأحداث أخذت مجراها، فاجتمع الحكمان في دومة الجندل، وخَلَعَ أبو موسى عليّاً من الخلافة، وأثبت عمرو معاوية وتسابَّ الرجلان وتشاتما على مرأى ومسمع من الناس، وانتهت المهزلة بأن عاد كل فريق يدعم موقفه تحسباً لاحتمالات المستقبل.[30] ورأى الخوارج بأعينهم أنهم خُدعوا أيضاً، وأن صاحبهم الذي خرجوا عليه وكفّروه كان أبعد نظراً وأصوب رأياً وأعرف بخصمه، لكنهم تسرّعوا إذ رأوا كتاب الله يرفع فاستجابوا

(29) عمرو بن العاص لعباس محمود العقاد /233 — 234.

(30) ابن أبي الحديد ج1 /240 وابن الأثير والمسعودي في أحداث سنة 37 هـ وعبقرية علي للعقاد ص 108.

لداعيه، وعليهم الآن أن يوجدوا مخرجاً من تخبّطهم هذا ويتخذوا موقفاً يعتمدونه في طريقهم الذي اختاروه..

كان موقفهم على الشكل التالي: نحن في قبولنا التحكيم ووقف القتال قد أذنبنا وكفرنا ونستغفر الله، فالمطلوب من علي أن يقول مثل مقالتهم فيعترف بالكفر ويستغفر الله، وهم مستعدون بعد ذلك للعودة معه إلى حرب أهل الشام[٣١].

لكن عليّاً يرفض المساومة على موقفه الذي صار إليه ويتمسك بعقد التحكيم الذي أبرمه مع أهل الشام، ويناظر الخوارج مناظرة مقنعة جاءت نصوصها في الكامل للمبرد[٣٢] والكامل في التاريخ[٣٣] وشرح نهج البلاغة[٣٤] وغيرها من كتب السير[٣٥] ـــ من أبرز مضامينها أنه شرح لهم أن التحكيم وارد في كتاب الله ـــ وذلك عندما قالوا له: كيف تحكّم الرجال في دين الله؟. ثم أوضح لهم أنه مرتبط بصك موقع لا يجوز الرجوع عنه

(٣١) الكامل للمبرد /٢٤.

(٣٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣٣) ج ٣ /٣٢٧.

(٣٤) ج ١ /٢٥٠.

(٣٥) علي وبنوه طه حسين / ٩٦ /.

وأعاد إلى ذاكرتهم أنه أرغم على هذه المواقف، فكان جوابهم: لا يجوز للإمام الاجتهاد فيما ورد فيه نص وحربك مع معاوية فيها نص قرآني: ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾[٣٦] .. فلا يحق لك إلا القتال، أما التحكيم وانتظار نتائجه فشيء مرفوض حتى لو كانت تلك النتائج في جانب الشرعية..

ويأتي خبر التحكيم وما صار إليه مؤتمر دومة الجندل، من خلع أبي موسى لعلي ـــ خدعة أو غير خدعة ـــ وتمسك عمرو بن العاص بمعاوية في موقف درامي مثير.

ويطلب علي من الخوارج العودة معه لحرب معاوية ما دام الحكمان لم يحكما بما في كتاب الله، فقبوله التحكيم كان مشروطاً بأن يصدر حكم من صميم كتاب الله وروح الإسلام؛ وإذا كان الأمر كذلك فلن يعدوه والخلافة صائرة إليه لا محالة.[٣٧]

رفض الخوارج طلب علي بالعودة للقتال، وكانت حجتهم هذه المرة: أنه لو حارب قبل ظهور نتيجة التحكيم، وقبل معرفته بأن أبا موسى قد خلعه من الخلافة، لكان ذلك في سبيل الله والحق

---

(٣٦) الحجرات / ١٠ /.

(٣٧) الكامل للمبرد /٢٣، والفتنة الكبرى /٩٥.

والشرعية، ولكان انتصاراً لمضمون آية (الفئة الباغية) التي مرَّ ذكرها.[38]

أما الآن فهو يحارب لمصلحته الشخصية، ولاسترجاع حق فرَّط فيه، وقبل المساومة عليه، وحكَّم الرجال في موضع لا حكم فيه إلا لله.

أصبح الوضع السياسي ـ بعد التحكيم ـ وفي نظر الخوارج على الأقل ـ كالآتي:

المسلمون ثلاث فئات متميزة أو ثلاث دول: دولة في الشام يرأسها معاوية، ودولة يرأسها علي بعد فشل التحكيم وعدم اعترافه بخلع أبي موسى له، ودولة ثالثة هي دولة الخوارج التي تعتبر أن الأمر عاد شورى يرأسها: عبد الله بن وهب الراسبي، وقد بايعه جمع كبير من الذين انفصلوا عن عليّ عند قبول التحكيم وإعلان الحكم بعزله من الخلافة.

لقد ناظر عليٌّ الخوارج مرةً بلسانه، ومرة بلسان عبد الله بن عباس، واستنفدا ما لديهما من وسائل الحجة والمنطق والإقناع، فعاد

---

(٣٨) علي وبنوه طه حسين /١٠٤.

بضعة آلاف منهم معه، وأصرّ الباقون على موقفهم، وشرطهم للعودة وهو: نحن أذنبنا وكفرنا وإنا نستغفر الله، فليقلْ عليّ مثل مقالتنا نعد معه إلى حرب معاوية[٣٩].

ولم يعترف عليّ بالكفر وتتصلب المواقف، وتنشب حرب النهروان ويُقتل الذين شهدوها من الخوارج عن آخرهم تقريباً[٤٠] وقد تراوح عدد الذين قتلوا في النهروان بين أربعة آلاف وثلاثة آلاف، إذ لم تتفق المصادر على عدد بعينه.. وكان بين قتلى النهروان المخدج الذي مرَّ ذكره في أول هذا البحث....[٤١] وبين الناجين عروة بن أدية[٤٢]

لقد اتخذ الخروج بعد النهروان شكلاً منظماً: نظرية في الحكم ــ موقف محدد من علي ــ موقف محدد من الخلفاء الراشدين ــ من معاوية، قيادات يناط بها أمر الدين والدنيا ــ موقف من الحكام بعامة عبر التاريخ.. وسنعرض لبعض المواقف فيما يأتي من أجزاء هذه الدراسة.

---

(٣٩) المبرد /٤٨ ــ ٤٩ وابن الأثير ج ٣ /٣٢٨.

(٤٠) أفلت منهم ثمانية، الكامل للمبرد / ٢٩ /.

(٤١) ابن الأثير ٣٤٧.

(٤٢) المبرد /٢٣ وشرح النهج ١/٢٤٩.

وأستأذن القارىء بالوقوف قليلاً عند بعض النقاط التي مرّ الحديث عنها كنوع من القراءة الثانية لها:

١ ــ استطاع علي بمناظرته الشهيرة للخوارج، وما جاء في تلك المناظرة من حجج بالغة ومنطق مقنع، أن يستعيد إلى صفه قرابة ستة آلاف خارجي..

٢ ــ كانت مناظرة عبد الله بن عباس لهم ــ على بلاغتها ــ أقل تأثيراً بل على العكس كان موقفهم أقوى وحجتهم أبين، فقد اتخذ ابن عباس موقف الدفاع بينما استعمل الخوارج مالديهم من أدوات الهجوم.

عندما أراد أن يسوّغ التحكيم من الكتاب والسنّة أجابوه: «أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمرهم بالنظر فيه فهو لهم، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم في الزّاني مئة جلدة وفي السارق القطع، فليس للعباد أن ينظروا في هذا، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يُقتلوا أو يرجعوا، وقد كتبتم بينكم وبينهم كتاباً وجعلتم بينكم الموادعة، وقد قطع الله الموادعة بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة إلّا من أقرّ

بالجزية، قال لهم ابن عباس: (يحكم به ذوا عدل منكم[٤٣]) فقالوا: أفتجعل الحكم في الصّيد والحرث وبين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟ أعدلٌ عندك عمرو بن العاص وهو بالأمس يقاتلنا؟ فإن كان عدلاً فلسنا بعدول، وقد حكّمتم في أمر اللّه الرجال»[٤٤].

٣ ـ موقفهم من صحيفة التحكيم كان صريحاً واضحاً قوياً (آية الفئة الباغية)[٤٥]

٤ ـ كذلك كان ردهم على عليّ إذ طالبهم بالعودة إلى حرب معاوية: لو حاربت قبل التحكيم لكان ذلك في سبيل اللّه، وأما بعده فمن أجل مصلحة شخصية[٤٦].

٥ ـ إن اعترافهم بالخطأ الذي بلغ حد الكفر، ثم عودتهم واستغفارهم إنما هو تجاوز للذّات وتغلّب على الكبرياء، وليس هذا بالقليل ولا السهل على الأعرابيّ الذي لم تغب بعد كل ملامح الجاهلية من عينيه ـ فالخوارج جيل الإسلام الأول ـ.

---

(٤٣) المائدة /٩٥.

(٤٤) ابن الأثير ج ٣ /٣٢٧ وعلي وبنوه /٩٥.

(٤٥) علي وبنوه /٨٧.

(٤٦) علي وبنوه /١٠٤.

٦ ـــ إن تكفيرهم لعلي كان مشروطاً ومؤقتاً ، وإن خروجهم عليه وبراءتهم منه كانت أموراً معلّقة قابلة للتغيير ، فلو أنه قبل شروطهم واعترف بالكفر واستغفر اللّٰه ، أو لو حكم الحكمان له بالخلافة لانتهى كل خلاف ، ولكن حين لم يتوفر فعل الشرط كان الجواب تكفيراً مؤبداً عبر التاريخ ..

(٤)

بعد النَّهْروان

كانت فتكة النهروان كبيرة وكانت دماؤها غزيرة ، وكانت فجيعة علي بقتلى النهروان أكبر من أي فجيعة ، فهم خاصته وأصحابه المقربون ، وصفوة جنده الذين نصروه في حرب الجمل وصفين ، ولكن علىٰ القائد ألا يعدم وسيلة تكون المخرج مما قد يقع فيه من مآزق .

تفرق الخوارج بعد النهروان ، فالذين شهدوا الموقعة قُتلوا جميعا ، والذين لم يشهدوها كانوا منبثين بين المصرَيْن (الكوفة والبصرة) موتورين حريصين على طلب الثأر[٤٧] .

---

(٤٧) علي وبنوه /١١٣ .

ويمكن تصوير وضعهم في هذه المرحلة بثلاث صور:

١ ــ كانوا يتعايشون مع علي، يشهدون الصلاة معه ويسمعون خطبه وأحاديثه مطمئنين إلى عدله، وكانوا أحياناً يشغبون عليه في المسجد فيقطع حديثه أو خطبته ليرد عليهم، ولكنه لم يكن ليأخذهم بالقول أو الظنة، وكانوا يتقوّون عليه بما يعطيهم من فيئهم..

وقد استقر في نفسه أنهم قاتلوه، ولكنه لم يكن يرى أن له الحق أن يأخذهم إلّا عن بينة أو عمل يقومون به، وكان يردّد: لتخضبنَّ هذه من هذا (مشيراً إلى لحيته وقرنه) وقد كان ألقي إليه من رسول اللّه (ﷺ) أنه سيموت مقتولاً وأن قاتله أشقى هذه الأمة، فكان يقول: ما يؤخر أشقاها؟.[٤٨] وقد جاهره بعضهم بالشغب والعصيان كالخرّيت بن راشد السامي فلما أراد مناظرته ذهب ولم يعد[٤٩]..

٢ ــ كان يبلغ بهم الأمر ــ وعندما يأنسون من أنفسهم قوة ــ حدَّ الخروج المسلّح يعتصمون في مكان ما من العراق، وقد تتابع

---

(٤٨) الكامل للمبرد ٧٦/ الكامل في التاريخ ج ٣ /٣٨٨.

(٤٩) علي وبنوه ١١٤/ الكامل للمبرد /٧٦.

خروجهم وكثر، وكان عليّ في كل مرة يرسل إليهم من يغلبهم على أمرهم أو يشتت شملهم، وقد اتسمت الفترة التي سبقت مقتل علي بكثرة الخرجات وبأعداد متفاوتة، وكانت أكبر تلك الخرجات من حيث الأهمية والعدد والمدلول: خرجة أبي مريم السعدي ـ من تميم ـ فقد كان معظم أصحابه من الموالي، وبلغ من أهمية تلك الخرجة أن قائدها اقترب من الكوفة مما اضطر عليّاً أن يقاتله بنفسه ويقتله(٥٠).

٣ ـ إن مرحلة مابعد النهروان كانت مرحلة تربّص وإعادة حسابات، بل كانت مرحلة حضانة لما تمخضوا عنه فيما بعد من آراء في السياسة والشريعة ومنهج المستقبل..

لقد خسروا في النهروان عدداً كبيراً من القتلى، ولكنهم ربحوا غير ذلك كثيراً: ربحوا إعجاب الناس بهم وعطفهم عليهم مقاتلين مستميتين في سبيل عقيدتهم، يسارعون إلى الموت والاستشهاد.

ربحوا إعجاب علي نفسه باستبسالهم وتقبلهم الموت صامدين صابرين فقال: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من

---

(٥٠) ابن الأثير ج ٣ /٣٧٢ وعلي وبنوه /١٤٠.

طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[٥١] وكذلك فقد امتنع ابنه الحسن ــ فيما بعد ــ عن قتالهم لما دعاه معاوية إليه قائلاً «لا أقاتل قوماً أنت أولى بالقتال منهم».[٥٢] وليس هذا الموقف من الحسن ــ إضافةً إلى قناعته الشخصية ــ إلّا امتثالاً منه لأمر أبيه، وعملاً بوصيته.

أصبحت النهروان عند الخوارج نقطة انطلاق هامة، فقد غذّت الدماء وحركتهم، وصاروا يذكرون شهداءهم بالأسى والحب والإعجاب، ويتحرقون للثأر لهم، فكانت هذه الموقعة كربلاء الخوارج، ونتج عنها أن الذين لم يشهدوا منهم هذه الموقعة أحسوا بالتقصير وعقدة الذنب، وكان عليهم أن يكفّروا عن تقصيرهم وخذلانهم لإخوانهم، فتجمعوا وتألبوا وشدوا على أيدي بعضهم بعضاً شأن التوابين الذين ندموا على تفريطهم في حق الحسين بن علي.

وكان أن قامت حركة أهل النخيلة[٥٣] التي ناظر أصحابها ابن عباس، وقاتلهم علي وكان عليهم المستورد بن علفة.

---

(٥١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ /٥٩٣.
(٥٢) الكامل للمبرد /٧٥ وأدب الخوارج لسهير قلماوي /٣٣.
(٥٣) الكامل للمبرد /٧١ ــ ٧٢ ــ ٧٣.

ولعل أعظم ربح أصابه الخوارج من حرب النهروان، كان تنقية عقيدتهم وتطهير صفوفهم، فقد صهرتهم الحرب. وكثرت المجادلات والخطب والأقوال في صفوفهم، فكان الباقون هم الصفوة الأقوى إيماناً والأصلب عوداً، وابتعد عنهم المنافقون والمندسون وأصحاب الأغراض، وبذلك تكون حرب النهروان قد أعطت القضية الخارجية مدداً قوياً في كل المجالات..

(٥)

مقتل الإمام علي

إن التطرف والقلق والحركية كانت أميز ميزات الخوارج، وقد رأينا ما كان من موقفهم في حرب الجمل ومحاولتهم تسريعها بإطلاق السهام نحو معسكر عائشة، وإنكارهم مفاوضة علي لكبار الصحابة كطلحة والزبير وغيرهما، واعتبارهم هذا التفاوض نوعاً من التهاون والتفريط في الحق، فهم خارجون على الإمام، ناكثون للبيعة التي أعطوها أمس، فهي لازمة أعناقهم وليس لهم إلا السيف، كذلك رأينا موقفهم في صفين ــ حتى رفع المصاحف ــ فقد حاربوا بإيمان وشجاعة وشرف، وتوقفوا عن

القتال بمثل الإيمان والقناعة التي حاربوا بها، ومثل ذلك تماماً كان خروجهم على علي فهم مقتنعون تمام الاقتناع أن ما فعلوه هو الحق، وأن هذا الرجل ــ أعني علياً ــ قد فرط بحقه وحكّم الرجال في دين الله، فعليهم أن يحاربوا الانحراف واللا شرعية التي كان يمثلها معاوية، فأصبح الآن يمثلها علي ومعاوية .. واعتبروا أن الخليفة الحق الذي تقلد الخلافة بالشورى هو خليفتهم الشهيد: عبد الله بن وهب الراسبي(٥٤) واعتبروه الخليفة الراشدي الخامس..

وفيما كان علي يحضّر للعودة إلى الشام مثقلاً بتبعات حرب الجمل وحرب صفين وحرب النهروان، وحين اقترب من إنجاز هذه المهمة الصعبة، قُتل بسيف خارجي في مسجد الكوفة وهو يوقظ الناس للصلاة، صلاة صبح الجمعة لسبع عشرة خلون من رمضان من سنة أربعين للهجرة، وقيل بل ليلة إحدى وعشرين من رمضان(٥٥) من تلك السنة..

والحقيقة التاريخية الثابتة الوحيدة لدينا هي: أن رجلاً من الخوارج اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي قتل علياً في مسجد

(٥٤) ابن الأثير ج ٣ /٣٣٥ والكامل للمبرد /٧ والبيان والتبيين للجاحظ /٢٠٥.

(٥٥) الكامل للمبرد /٣٨ والكامل في التاريخ /٣٨٧ وغيرهما.

الكوفة سنة أربعين هجرية.. أما الدوافع والملابسات والظروف المحيطة بهذا الاغتيال، فكلها غامضة..

هل كان السيف الذي قتل عليّاً سيفاً خارجياً حقاً؟ أم هل كان خنجر ثأر شخصي لبعض قتلى النهروان؟ لا يد لعامة الخوارج فيه، أم كان رسول غرامٍ لامرأة خارجية جميلة اسمها قَطامِ؟ أم هل كان طعنة اغتيال سياسي نفذتها — عبر الخوارج — يد داهية الشام ومستشاره النابغة عمرو بن العاص؟.

كل هذه الاحتمالات يخطر على البال، وكلها أشار التاريخ إليه تلميحاً أو تصريحاً، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بتغليب أحد هذه الاحتمالات على غيره إلا بمقدار ما يملك من المرجحات، وكل ما يعنيني من أمر في تمحيص هذه الآراء معرفة دور الخوارج — كجماعة — في مقتل علي..

فكتب التاريخ وكتب الأدب وبالإجماع[٥٦] تقول: إن رجلاً من الخوارج اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي قتل عليّاً بسيف

---

(٥٦) الكامل للمبرد باب الخوارج / ٣٨ / ابن الأثير ج ٣ ٣٨٧ وعلي وبنوه /١٦٦ وغيرهما.

مسموم دفعته إلى ذلك امرأة خارجية اسمها قَطامِ بنت علقمة[٥٧] من تيم الرباب، طلبت منه مقابل حبها عبداً وجارية وثلاثة آلاف درهم، وأن يقتل عليّاً، نفَّذ الرجل وظفر بالجائزة الثانية أي (الجنة ونعيم لا يزول) كما وعدته قطام[٥٨] وانتهى الأمر...

ولا يسعني أن أنفيَ هذه الرواية، ولكنـي سأثير بعض التساؤلات وأسجّل بعض المعلومات التي تعين الدارس في التماس الحقيقة. قاتل علي رجل خامل الذكر، ما كان ليُعرف أو يُشهر لو لم يقترن اسمه بتلك الحادثة التي أودت بحياة واحد من أعظم رجال التاريخ. كل ما عرفناه عنه: أنه أدرك الجاهلية وهاجر في خلافة عمر، وشهد فتح مصر، وسكنها مدة ــ شهد صفين مع علي، ثم خرج عليه مع الخارجين[٥٩].

أما كيف استقر في ذهنه أن يقتل عليّاً فأمرٌ مُخْتَلَفٌ

---

(٥٧) شرح النهج: ج ٢ /٦٦ (قال إنها: قطام بنت الأخضر) وفي الخوارج والشيعة /٤٢ قطام بنة الشجنة وأعلام الزركلي ٤/١١٤ وأعيان الشيعة قسم ٢ /٢٥١ــ٢٥٣

(٥٨) المبرد /٣٧

(٥٩) ديوان السيد الحميري /٤٢١ ــ ٤٢٦.

عليه . فقطام نفسها لم تقرر كتب التاريخ أنها كانت زوجته أم عشيقته ، والروايات مختلفة في ذلك .

ــ فإن كانت زوجته فبأي سلطان تدفعه إلى هذه المخاطرة ، ثم تطلب منه ثلاثة آلاف درهم وعبداً وجارية ؟؟ كان جديراً بها أن تعطيه بدلاً من أن تأخذ منه ، إنّ ما طلبته منه وما كلفته به أبعد ما يكون عن منطق ما يقع بين زوجين ، ولا بد ــ والحالة هذه ــ أن يكون لدى عبد الرحمن دوافع أخرى غير إرضاء زوجته والثأر لقتلاها .

ــ وإن كانت عشيقةً أو حبيبةً لابن ملجم ــ وهذا أقرب للواقع ــ فقد طلبت منه غالياً ودفعت به إلى المهالك ، وكان يكفيها منه أن يقتل لها علياً ليظفر بحبها ، أما أن تطلب منه أموراً مادية أخرى كالمال والعبد والجارية فهذا ليس شأن المحبين ..

وقد استكثر ابن ملجم ما طلبت منه قطام ، وقال ابن أبي مياس المرادي(٦٠)

ولم أر مهــراً ساقــه ذو سماحــةٍ
كمهـر قطـام من فصيـح وأعجــم

(٦٠) الكامل للمبرد ‎/٣٧/٧ ينسب الأبيات لابن ملجم نفسه ، أما شعر الخوارج ‎/٧ . وشرح النهج ‎٧١/٢ وغيرهما فالأبيات فيها لابن أبي مياس المرادي .

ثلاثـــةُ آلاف وعبـــدٌ وقينـــةٌ
وضربُ علـــيٍّ بالحسام المصمّـــم
فلا مهـــرَ أغلى من علـــيٍّ وإن غلا
ولا فتكَ إلا دونَ فتكِ ابـن ملجـــم

هل توقع عبد الرحمن أن يقدّم رأس علي جزءاً من مهر طلبته منه قطام ويكمل الجزء الباقي ثم ينعم معها بعيش هانيء وحياة زوجية سعيدة، أم أن هناك ضغوطاً أخرى كانت أقوى من حب قطام وتحريضها؟

ـــ شيء آخر يجب ألا يفوت المتأمّل في هذه القضية، وهو أن عبد الرحمن لم يكن شاباً صغيراً تستهوية امرأة بجمالها فتدفع به إلى هذه المخاطرة، وهو الذي عاش شطراً من حياته في الجاهلية وأكثر من أربعين عاماً في الإسلام بعد الهجرة وثلاث عشرة سنة قبل الهجرة (فترة الدعوة في مكة)، وبهذا يكون هذا العاشق المغامر في الستين أو ما يزيد.

ـــ ومما هو متواتر في هذه القضية أن ابن ملجم كان يتهيأ لقتل علي بشكل علني يحمل سيفه ولات حين حرب، يتفوّه بكلمات تنم عن نيته، كأن يقول وهو تلقاء المنبر وعلي يؤدّب أصحابه «والله

لايخنهم منك »[٦١] وهو مطمئن إلى ما عرف من سيرة علي بأنه لا يأخذ إلّا عن بينة ، فإذا قيل له « احترز من ابن ملجم فإنه قاتلك » أجاب متبسماً : ولكنه لم يقتلني بعد ، أأقتل قاتلي ؟ وكان يكثر من القول : ما يؤخر أشقاها ؟ أشقاها خاضب هذه من هذه (مشيراً إلى لحيته وجبهته)[٦٢] .. وكان يردد :

اشددْ حيازيمَكَ للموتِ ... فإنَّ الموتَ لاقيكا
ولا تجزعْ من الموتِ ... إذا حلَّ بناديكا

وكان إذا رأى عبد الرحمن ـ وهو يعطيه عطاءه ـ تمثل ببيت عمرو بن معد يكرب في قيس بن مكشوح المرادي[٦٣] :

أريد حباءه ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

إذا صحَّ ما جاء في هذه الرواية من أن الدافع لقتل علي كان تحريض امرأة موتورة قُتل معظم أهلها في النهروان ، وأن القاتل رجل خامل لا شأن له طمع بالأجر فالمسألة مسألة اغتيال شخصي لا يد

---

(٦١) الكامل للمبرد /٣٨ .

(٦٢) رويت الرواية في الكامل للمبرد على غير هذا الشكل (أشقاها خاضب هذه من هذا) وأمسك بلحيته ووضع يده على قرنه . / الكامل ٧٦ / .

(٦٣) البيت وارد في الكامل للمبرد (حباءه) وفي غيره (حياته) ص ٣٨ ونهج البلاغة ج ٢ /٦٥ ومروج الذهب للمسعودي ٤١٧/٢ .

لجماعة الخوارج فيها ـــ ويؤكد ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لم يَذكر أن أحداً من الخوارج عامتهم أو خاصتهم طلب منه ذلك، فيكون ما فعله عملاً فرديّاً بقي محصوراً به وبقطام التي دفعته إليه..

وهناك رواية أخرى عن مقتل علي أوجزها فيما يلي:

تعاهد ثلاثة من الخوارج في موسم الحج من سنة أربعين هجرية، على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، فهم في نظرهم أس الداء وأصل البلاء، وليترك أمر المسلمين شورى، واتفقوا أن تكون ليلة السابع عشر أو التاسع عشر أو الواحد والعشرين من رمضان من السنة المذكورة موعداً لذلك. وأخذ كل طريقه إلى صاحبه الموكّل بقتله: في مصر والشام والعراق، فأما صاحب عمرو بن العاص فدخل المسجد مع المصلين وطعن الإمام طعنة أردته قتيلاً، ولكن ذلك القتيل لم يكن عمرو بن العاص، بل كان ـــ كما سمته كتب التاريخ ـــ خارجة قائد شرطته[٦٤] أنابه عنه في الصلاة تلك الليلة!!.

وأما صاحب معاوية فقد ضربه بالسيف على أليته وكان معاوية عظيم الأليتين ـــ وقيل: كان دارعاً فلم يصب منه مقتلاً واتخذ

(٦٤) هو خارجة بن حذافة من بني عامر (الكامل ١/٤١) ونهج البلاغة ج ٢/٦٥.

المقصورة بعدها في الصلاة محتجباً عن باقي المصلين[٦٥] .. وظفر عبد الرحمن بن ملجم بعلي بضربة سيف مسموم على رأسه..

ومن تمام الرواية أن نذكر أن الذي وكّل بقتل معاوية كان اسمه الحجاج بن عبد الله الصريمي المعروف بالبُرَك، وأن الموكّل بقتل عمرو بن العاص كان اسمه عمرو بن بكر التميمي ــ وقيل: كان اسمه زادويه مولى لبني العنبر ــ وقيل: إن الثلاثة كانوا من بني ملجم، فكان القاصد إلى معاوية اسمه: يزيد بن ملجم والقاصد إلى عمرو آخر من بني ملجم وأن أباهم قد نهاهم، وأن أمهم قد حضّتهم على ذلك[٦٦] الخ....

لقد أنهى عبد الرحمن بن ملجم ــ بضربته هذه ــ مرحلة من مراحل التاريخ، وألغى نمطاً فريداً من أنماط الحكم، هو الحكم الراشدي، وبدأت مرحلة أخرى لها ميزاتها وصفاتها... لقد سلّم الخلافة إلى معاوية، وقدمها له سهلة ميسورة، هل فعل ذلك عن قصد منه أم عن غير قصد؟ هل كان ابن ملجم وضحيته (أعني عليّاً) ضحيتين لمؤامرة كبري استهدفت خلافة الراشدين

---

(٦٥) المبرد /٤١ وشرح النهج وغيرها ومروج الذهب للمسعودي ٤١٧/٢.

(٦٦) الكامل للمبرد /٣٧ وشرح النهج ج ٢ /٤٥.

برمتها؟ هذا مايلوح في أفق التاريخ إذا قرىء بغير الطريقة المكتوبة، هل كان ابن ملجم مدفوعاً بحب قطام وهو شيخ يربو على الستين؟ أم بالاتفاق الذي أبرمه مع رفيقيه الخارجيين؟. ولم يصيبا هدفيهما؟. لماذا لم يخرج عمرو بن العاص للصلاة تلك الليلة؟ وأن الموكل بقتله لم يعرفه، فعندما حُمل إليه وسمع الناس تخاطبه بالإمارة قال: أوما قتلتُ عمراً؟ قيل: لا[٦٧]، لماذا كان معاوية دارعاً تلك الليلة، وكانت الضربة على مأكمته لا على رأسه؟

الأمر الذي لاشك فيه أن القضية الخارجية لم تستفد شيئا من مقتل علي، بل على العكس تماماً فقد كان لعنةً عليهم وخزيا لهم، فقد خسروا الرجل الذي كانوا يتعايشون معه ولا يخافون منه ظلماً ولا غدراً، بل كان يعاملهم بمنتهى العدل[٦٨] ويتفهم عقدهم ودوافعهم، حتى لقد أوصى ألا يحارَبَ الخوارج بعده، فهم طلاب حق لكنهم أخطؤوه، قال: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[٦٩].

---

(٦٧) الكامل للمبرد ٤١/١ ..

(٦٨) علي وبنوه /١٥٣.

(٦٩) شرح ابن أبي الحديد للنهج ح ١ /٥٩٣.

فإذا فتشنا عن المستفيد الحقيقي من إزاحة علي عن ساحة الحكم والتخلص من طريقته وأسلوبه في سياسة المسلمين، وعلى من يقع خطر هذه السياسة، سجلنا الملاحظات التالية:

١ ـــ لم تكن عداوة الخوارج لعلي عداوة إيديولوجية صميمية، بل كانت عداوة طارئة سببتها حادثة واحدة (هي التحكيم) وما تلاه من مضاعفات ودسائس أذكت الخلاف وسعّرت ناره، بل إن عليّاً والخوارج يصدرون عن مشارب واحدة ونزعات يسارية متشابهة، وهم أقرب إلى أسلوبه في الحكم والسياسة من أسلوب معاوية، والصراع الحقيقي كان بين اليمين واليسار، والخوارج يسارٌ ثوريّ، وبذلك لا يمكن أن ينصروا معاوية على عليّ ـــ وهم يعلمون ـــ.

٢ ـــ لم يذكر التاريخ حادثة اغتيال واحدة مارسها الخوارج عبر تاريخهم الطويل، والمتتبع لمسيرة صراعهم مع الأنظمة القائمة يتأكد من أنهم لم يعتمدوا الاغتيال أسلوباً في التغلب على الخصوم، بل كان من أخلاقهم المجابهة والمواجهة والقتال حتى الموت، ولو فعلوا ذلك لكانوا وفّروا كثيراً من قتلاهم وحقنوا غزيرا من دمائهم.

٣ ـــ كانت بوادر المؤامرة منذ بداية صفين تخاذلا واستعلالا

لبعض التركيب القبلي للجيشين وإفساداً للرسل وإغراءهم بالمال والمناصب، ثم إن مقتل علي وقع ساعة إنجازه الاستعداد للعودة إلى حرب الشام.

٤ ــ كان لعبد الرحمن بن ملجم مساعدان يعينانه في إنجاز مهمته، هماشبيب بن بحران (أو بحيرة) ووردان بن مجالد، وذلك لتكون الخطة محكمة، وفعلاً فقد كانت الضربة الأولى لشبيب لكنه أخطأ الهدف وأصاب الباب(٧٠) حتى جاء ابن ملجم فأصاب الهدف.

٥ ــ وهناك دور الأشعث بن قيس الكندي: لقد كان دوراً بارزاً للغاية، سأشير إلى النقاط البارزة في هذا الدور:

قال المبرد صاحب الكامل(٧١) إن عبد الرحمن بن ملجم بات تلك الليلة عند الأشعث بن قيس، وأن حجر بن عدي سمع الأشعث يقول له: فَضَحكَ الصبح، فلما قالوا: قُتل أمير المؤمنين، قال حجر للأشعث: أنت قتلته ياأعور!

ووردت هذه الرواية باختلاف طفيف في شرح النهج لابن

---

(٧٠) الكامل للمبرد /٣٨ ونهج البلاغة وابن الأثير وغيرها.

(٧١) باب الخوارج /٧٨ وشرح النهج ابن أبي الحديد ج ٢ /٦٦ ــ ٦٧.

أبي الحديد[٧٢] قال: خلا عبد الرحمن بالأشعث في بعض نواحي المسجد وهو يقول له: النجاء النجاءَ بحاجتك فقد فضحك الصبح، ومرَّ بهما حجر بن عدي فأسرع إلى علي ليخبره، فوجد عبد الرحمن قد سبقه إليه... كذلك فقد جاء في شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة[٧٣]. أن الأشعث هدد عليّاً بالقتل، فأجابه علي بالحرف الواحد: «أبالْموت تخوِّفني أوْ تهدِّدُني، فوالله ما أبالي وقعتُ على الموتِ أو وقعَ الموتُ عليَّ» وفي خطبة لعلي في نهج البلاغة الجزء الأول ص /١١٣/، اعترضه الأشعث وهو يخطب على منبر الكوفة. فقال له: «ياأمير المؤمنين هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام بصره إليه ثم قال: ما يدريك ما عليَّ مِمّا لي، عليكِ لعنة الله ولعنة اللاّعنين، حائك ابن حائك منافق ابن كافر، والله لقد أسَرَكَ الكفر مرةً والإسلام أخرى» إلى آخر الخطبة وماتلاها من شرح مستفيض أوضح من مواقف الأشعث في الجاهلية والإسلام، والكثير منها يدل على أن لدى الأشعث دوافع للفتك بعلي، كان من أقوى هذه الدوافع أن عليّاً عزله عن ولاية أذربيجان وكان قد وليها أيام عثمان.

---

(٧٢) شرح النهج ٢/٦٧.

(٧٣) شرح النهج /٦٧.

وجاء في كتاب العزل «إنما غرّك من نفسك إملاء الله لك .
فما زلت تأكل رزقه وتستمتع بنعمه ، وتُذهب طيباتك في حياتك .
فأقبل واحملْ ماقبلك من الفيء ولا تجعل على نفسك سبيلاً »[٧٤] .

وبذلك يكون الأشعث قد بدأ حياته مع علي بداية غير ودّية ولا مخلصة ، فكان يتربص به الدوائر ويتحين الفرص لينتقم منه ــ وقد فعل ــ أكد ذلك عدد كبير من قدماء المؤلفين ، فاتهموا الأشعث وأبا موسى معاً ، مع تحميل الأول مسؤولية التآمر والاتصال الدائم بمعسكر الشام وقيادته ، وقد ذكر فلهوزن أسماء بعض أولئك المؤلفين[٧٥] منهم العرب ، كاليعقوبي وأبي مخنف والدينوري ، ومنهم الأجانب مثل : فيل ، ودوزي ، وبرنّوف ، وملّر .

ويبدو أن شخصية الأشعث لم تكن مستقرة على شيء وأن الأهواء كانت تتنازعه فهو من جند علي ومن خاصته ، وهو متآمر عليه حاسد له ، وقد استغرب كثير من المؤلفين ألا يكون خارجيّاً[٧٦] فقد كان من أشد المخذّلين عن علي وعن الحرب يوم

---

(٧٤) الفتنة الكبرى ص ١٥٠ .

(٧٥) الخوارج والشيعة ٦ ــ ٩ .

(٧٦) فلهوزن الخوارج والشيعة /٢٦ ــ ٣٩ .

صفين ويبدو أن ماضيه لم يكن مشرفاً، فقد أسلم وارتد عن الإسلام[٧٧] ثم أتى أبا بكر مستغفراً فغفر له وزوجه أخته ولقد ندم على عدم قتله إذ قال: «ثلاث تركتهن وددت أني لم أفعل. وددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه، فإنه يخيل إلى أنه لا يرى شراً إلا سعى فيه وأعان عليه.. الخ»[٧٨] وكان قبل صفين والياً على أذربيجان،واستولى على خراجها ولما استخلف عليّ فكر في الهرب إلى معاوية لولا قومه، وعزله عليّ عن الولاية وكانت له يد قتله، وكان عليّ يشك في أمره وينسب إليه كل شر[٧٩] ... ولكنه لم يسمح لنفسه أن يأخذه بغير ذنب واضح، ومن ذكاء الأشعث ودهائه أنه كان يحذر عليّاً من ابن ملجم، فقد روى المبرد في كتاب الكامل[٨٠] أن الأشعث نظر عبد الرحمن متقلداً سيفاً حديداً وليس بأوان حرب، فركب بنلته وأتى عليّاً فخبره وقال له: عرفت بسالة ابن ملجم وفتكه، فقال عليّ: ما قتلني بعد..

---

(٧٧) أدب الخوارج /قلماوي /١٧.

(٧٨) فتوح البلدان للبلاذري /١١٠.

(٧٩) أدب الخوارج /١٧ وعبقرية الإمام علي للعقاد /١٠٠ـــ ١١٢ وعلي بن أبي طالب: ٩٢/٥.

(٨٠) باب الخوارج /٣٧ـــ ٣٨ (الكامل).

ومن هذا القبيل، مانقله فلهوزن في كتابه (تاريخ الدول العربية) أن مؤامرة قتل علي تمت بين معاوية وابن ملجم وعمرو بن العاص والأشعث بن قيس، وروى أن الأشعث هذا تابعها في العراق ــ وكان صبيحة مقتل علي مع ابن ملجم يقول له محرضاً: النجاءَ النجاءَ فقد فضحك الصبح، وسمع حجر بن عدي فقال للأشعث: قتلته ياأعور! وأسرع إلى عليّ ليخبره فوجد ابن ملجم قد سبقه إليه وضربه بالسيف..

وأخبار الأشعث كثيرة مستفيضة مع علي وحول مقتله..

ويبدو أن مقتل علي (بتدبير من معاوية) كان معروفاً في تلك الأيام تتناقله الألسن والروايات ويتحدث به الشعراء بصوت مرتفع، وبقي الأمر كذلك إلى أن استطاعت أنظمة الحكم أن تطمس هذه الحقيقة وتلقّن المؤرخين ماكتبوه عن هذا الموضوع، وحتى مؤرخو الشيعة فقد راقهم أن يُنسب قتل عليّ لرجل خارجي ــ أليس الخوارج أعداء عليّ؟ ــ فدونوا ذلك دون تمحيص أو تدقيق.

قال أبو الأسود الدؤلي مخاطباً معاوية: (٨١)

(٨١) مروج الذهب للمسعودي ٢/٤٤ ونُسبت هذه الأبيات لامرأة اسمها أم العريان /المبرد /٧٨.

أَلَا أبلـغْ معاويـةَ بن حربٍ   فلا قَرَّتْ عيـونُ الشّامتينـا
أفي شهر الصيام فجعتمونـا   بخير النـاس طراً أجمعينـا؟
قتلتم خيرَ من ركب المطايـا   وذلّلهـا ومـن ركـب السفينا
ومن لبس النعالَ ومن حذاها   ومـن قرأ المثانـيَ والمبينـا

٦ ــ الملاحظة السادسة، لماذا لم يحقق أحدٌ مع هؤلاء الثلاثة الذين أرادوا قتل علي وعمرو ومعاوية؟ ولم ينشر شيء من اعترافاتهم وأقوالهم على الناس؟ فإذا كان ابن ملجم قد قُتل في لحظة غضب شفاء لنفوس أهل علي وتنفيساً لأحزانهم، فما بال البُرَك الصريمي يبشر معاوية بمقتل علي هذه الليلة ويمهله معاوية حتى يتيقن من صحة زعمه، ثم يقتله شر قتلة إذ قطع يديه ورجليه[٨٢]، كذلك فقد خُنق سر صاحب عمرو بن العاص[٨٣] وبذلك طويت هذه القضية وطمست معالمها ومات الذين يحملون سرها الحقيقي، وكان من الممكن أن يدلوا بمعلومات تقلب وجه ما كتب وما توارثته كتب التاريخ. وفي هذا شبه بمقتل الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، إذ كان من الممكن أن تعرف دوافع قاتله أبي لؤلؤة لو قُدّر له أن يعيش. وأرجح مع صاحب اليمين واليسار في

(٨٢) المبرد /٤١.
(٨٣) قتل وصلب مروج الذهب /٤١٧.

الإسلام[٨٤] أن مقتل علي كان من تخطيط اليمين الذي استعمل الاغتيال وسيلة بارزة في إزاحة الخصوم، فإذا كان قد قتل الأشتر ومحمد بن أبي بكر والحسن بن علي (بالسم وغير السم)، وهؤلاء أنصار لعلي وعمّال له، فمن الأولى به أن يخطط ويسعى جهده لقتله وهو المنافس الأكبر والأوحد من هذا (المستوى)، لذا يمكن تصديق القول: إن التخطيط لاغتيال علي بدأ قبل أن يتحرك الجيشان نحو صفين[٨٥].

وكان ذلك اليمين هو الذي قتل عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي الثاني، عندما جنح نحو اليسار، وبدأت إجراءاته اليسارية تهدد هذا اليمين ومصالحه، إذ بدأ بالحجر على كبار الصحابة وحدد إقامتهم، وكان ينوي تحديد أموالهم وممتلكاتهم ومصادرة ثرواتهم وتوزيعها، ولكن اليمين قتله قبل أن ينفذ ما أراد، وقتل قاتله وطمس الجريمة[٨٦]، وهذا ما جرى لعلي بالضبط، وبذلك يكون الخوارج أبرياء من دم علي وأيديهم نظيفة من اغتياله، وعبد الرحمن

---

(٨٤) اليمين واليسار في الإسلام: ١٣٠ـــ ١٣١.

(٨٥) اليمين واليسار: ١٣٠ـــ ١٣١.

(٨٦) اليمين واليسار. ٦٣ـــ ٦٤ـــ ٧١.

ابن ملجم الذي كان أداة الاغتيال ، لم يكن ذلك الخارجي المرموق المتشبع بأخلاق الخوارج (وليس في أخلاقهم غدر ولا اغتيال) وكان عمر الخوارج قصيراً، لم تتبلور صفاتهم وتترسخ قيمهم وأخلاقهم بعد، لم يعرف التاريخ شيئاً كافياً عن بطل هذا الاغتيال ، لقد اشتراه اليمين لينفذ به ما أراد ، فيلحق به وبجماعته (الخوارج) تبعة هذه الجريمة فيضرب (عصفورين بحجر واحد)، ومن المؤكد أن ابن ملجم لو لم يقتل على أيدي آل علي تشفياً وانتقاماً ، لقتل بأيدي مدبري المؤامرة طمساً وتعتيماً، كما جرى لأبي لؤلؤة قاتل عمر بن الخطاب.

لم أقصد من هذه الإطالة في هذا الموضوع ، توجيه التهمة (تهمة اغتيال علي) إلى أحد بقدر ما أقصد إزاحة هذه التهمة عن الذين حمّلهم التاريخ وزرها ، وألصقها بهم وحاسبهم عليها ، وهم الخوارج ، فعبد الرحمن بن ملجم لم يكن إلا أداة لتنفيذ الاغتيال ، وقطام لم تكن إلا دافعاً شكلياً أو إعلامياً له ، وإذا كان عبد الرحمن مأجوراً فليس لقطام ، بل للمستفيد الحقيقي من إزاحة علي عن ساحة الأحداث سواء أكان ذلك معاوية ــ الذي جنى الثمار مباشرة ــ أم عمرو بن العاص الذي كان ينوي جنيها والذي ذكرت

بعض الروايات أنه كان صاحب التدبير للتخلص من علي ومعاوية معاً لأنه كان طامعاً بالخلافة[87].

والشيء الذي أريد أن أخلص إليه: إن الخوارج بريئون من دم علي وإن كان قتله قد نفذ بيد خارجية، وهي التهمة الثانية القاتلة التي وجهت إليهم، بعد تهمة وقف القتال في صفين واختيار الحكم.. فاللعنة التي لحقت بهم وتابعتهم كانت لعنة الخروج والتمرد على الحكام عبر التاريخ..

وتأكيداً لما ذكرت سابقاً من أن الخلاف بين عليّ والخوارج لم يكن إيديولوجياً ولا أبدياً ــ شأن خلافهم مع معاوية ــ فقد كانوا معجبين بعلي على الرغم من تكفيرهم له، معجبين به خطيباً وتقيّاً وعادلاً وشجاعاً، حتى إنهم كانوا يتسللون قبل النهروان وبعدها إلى مسجد الكوفة وينصتون إليه وهو يؤدّب أصحابه[88] ويشهدون معه الصلاة، فإذا سُئلوا عنه قالوا: قاتله الله كافراً ما أفقهه[89].

---

(٨٧) عبقرية الإمام علي: ٢٣٣.

(٨٨) علي وبنوه طه حسين /١١٣.

(٨٩) علي بن أبي طالب ــ عبد المقصود ٥/٢١١.

ولاشك أن علياً كان معجباً بالخوارج أيضاً شجاعةً وزهداً، وإن كان يأخذ عليهم تعنتهم وسطحيتهم وغرورهم، وقد توقع لهم مستقبلاً مظلماً على أيدي حكام يسومونهم الظلم والعذاب، قال يخاطبهم[٩٠] : «أمَا أنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً، وأثَرَةً يتّخذها الظالمون فيكم سنّة».

كان تكفير الخوارج لعلي موقفاً واحداً وحادثة واحدة وتهمةً واحدة (قبيل التحكيم) أما قبل ذلك وبعده فلا مأخذ لهم عليه، بل كانوا متسعدين لتجاوز قبوله التحكيم، والرجوع عن تكفيره والعودة معه، لو قبل ما ساوموه عليه من اعتراف بالخطأ الذي بلغ حد الكفر.. وخلافهم مع عليّ — على عنفه ودمويته — لم يتجاوز شخصه، فلم يكونوا أعداءً لأبنائه ولا لشيعته بل عاشوا معهم في قطر واحد دون أي احتكاك[٩١]، وقد أسلفنا أن الحسن بن علي امتنع عن قتالهم لما دعاه معاوية إليه قائلاً: «لا أقاتل قوماً أنت أولى بالقتال منهم»[٩٢].

---

(٩٠) شرح ابن أبي الحديد ١/٤٩٨.
(٩١) الكامل للمبرد / ٧٥ / وأدب الخوارج / ٣٣ /.
(٩٢) الكامل للمبرد /٧٥.

وتأكيداً لهذا الرأي نذكر موقف عبد الله بن وهب الراسبي، أول خليفة خارجي، من نتيجة التحكيم ورأيه في ذلك قال: [٩٣]

ندمنا على ما كان منا ومن يردْ
سوى الحقّ لا يدركْ هواه ويندمِ
خرجنا على أمرٍ فلم يك بيننا
وبين عليٍّ غيرُ غابٍ مقوَّم
فجاء عليّ بالتي ليس بعدها
مقالٌ لذي حلمٍ ولا متحلّمِ

وقد أوضحت كتب التاريخ والأدب أن عليّاً كان يتحاشى حربهم [٩٤] وأنه كان يتجه بتفكيره واستعداده للعودة إلى الشام متجاهلاً أمر الخوارج، ولكن الحرب معهم سبقت بتأثير بعض الذين لم يخلصوا له كالأشعث الذي ألح عليه أن يحاربهم قبل العودة إلى الشام.

كان علي بموقفه هذا (أي بتحاشي حرب الخوارج) يأمل أن يثوبوا إلى رشدهم فقال لقومه: «اتقو الله وقاتلوا من حادَّ الله

---

(٩٣) الإمام علي بن أبي طالب: ٦ /٣٨ــ ٣٩.
(٩٤) الكامل لابن الأثير ج ٣ /٣٣٩ وأدب الخوارج /٣٤.

ورسوله وحاول أن يطفىء نور اللّٰه، قاتلوا الخاطئين الضّالين القاسطين الذين ليسوا بقرّاء القرآن ولا فقهاء في الدين ولا علماء في التأويل، واللّٰه لو وُلّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل، تيسروا لعدوكم من أهل المغرب»[(٩٥)]

ومن مواقفه في محاولة تجنب حرب الخوارج، لما طلب منه جماعة حرب الحرورية أولاً، قال لهم: «بلغني أنكم قلتم كيت وكيت وإن غير هؤلاء الخارجين أهمّ إلينا، فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبّارين ملوكاً، ويتخذون عباد اللّٰه خولاً»[(٩٦)] وواضح من كلام علي في النصّين:

١ ــ أنه كان يتحاشى حرب الخوارج.

٢ ــ أنه كان ينفي عنهم مجموعة من الصفات الذميمة التي وصف بها أهل الشام؛ والخوارج بدورهم كانوا ينظرون إلى علي نظرة مباينة تماماً لنظرتهم إلى معاوية وأسلوبه في الحكم، فهو ليس موضوع مقايسة أو مفاضلة مع علي، وهو مرفوض أصلاً بحكم النصوص القرآنية (آية

---

(٩٥) الكامل في التاريخ ٣/٣٣٩.

(٩٦) الكامل لابن الأثير ٣/٣٤١.

الفئة الباغية) التي تسقطه من حسابات الخوارج ، وهم يطلقون عليه وعلى آله أقسى الشتائم وأقذع السباب .

(٦)

بعد عليّ

لم يعرف الخوارج أي نوع من أنواع الاستقرار في حياتهم بعد عليّ ، فهم في تكوينهم النفسي والأخلاقي والديني ، يرفضون النظام الجديد ، ولا يرون غير الحرب سبيلاً ، فإذا كانوا قد خرجوا على عليّ وكفّروه لموقف واحد اعتقدوا بأنه أخطأ فيه ، فهل يُعقل أن يقبلوا نظاماً كل ما فيه يناقض قناعاتهم؟ فخليفته لا تجوز له الخلافة لما سبق أن ذكرنا ، وهو رأس الفئة الباغية التي يجب أن تُحارَب حتى تفيء إلى أمر اللّه، ثم إنه قد حَوَّل الخلافة إلى ملكية وراثية ، وأطلق يده في بيت مال المسلمين يبدد مال اللّه في غير أوجه الحق التي أمر بها اللّه وسنّها الإسلام..

فأوجه الخلاف ودوافع الخروج على النظام الجديد كثيرة كثيرة لدى الخوارج، فلو سكت عنهم الأمويون اتّقاءً لشرهم، فهم لا يسكتون وذلك لما ذكرنا من نقاط الخلاف وأنه خلافٌ إيديولوجي عميق، ففي صميم عقيدتهم أنه لا يجوز القعود عن حرب الإمام الجائر ولا تجوز موادعة أهل الحرب، إلّا من أقرَّ بالجزية[٩٧] .. لذلك فقد شهر الخوارج سيوفهم في وجه الأمويين، ووطنوا أنفسهم على الموت في سبيل الحق الذي اعتقدوه، وكان من حسن حظ الأمويين أن عبد الله بن الزبير حارب الخوارج طيلة حكمه في الحجاز، وكفَّ سيوفهم عنهم تسع سنوات هي مدة استقلاله في الحجاز، واستعمل في حربه معهم أعظم قادة الجيوش من آل المهلّب، وألجأهم إلى أطراف الدولة ومناطقها الجبلية النائية، ككرمان والري وجرجان وغيرها ..

وكان أول أمرهم مع ابن الزبير أن أعانوه على الأمويين لحماية الكعبة، فراراً من ظلم زياد وللوقوف على رأيه «رأي ابن الزبير»، فإن كان على رأيهم جاهدوا معه، وإلا دافعوا عن البيت، فتظاهر

---

(٩٧) ابن الأثير ٣/٣٢٧.

أنه على رأيهم فقاتلوا معه أهل الشام، ثم ناظروه فلم يظفروا منه بما رغبوا فتفرقوا عنه[٩٨]..

ولمّا تفرق الخوارج عن ابن الزبير وناصبوه العداء، أعدَّ لهم الجيوش وعلى رأسها قادة مشهورون، كان من أولهم المهلّب بن أبي صفرة نفسه، فحاربهم حرباً مريرة طويلة[٩٩] أخبارها طويلة (تجدها في كتب التاريخ وبخاصة الكامل لابن الأثير).

ومن القادة الذين استعملهم مصعب بن الزبير في حرب الخوارج، وكان له أثر بالغ في السياسة والحرب، عمر بن عبد اللّه بن معمر، إذ ولّاه فارس وأوكل إليه حرب الخوارج، وعندما علم قطري ابن الفجاءة، زعيم الخوارج وفارسهم وشاعرهم بتولية هذا القائد حسب له أكبر حساب، وحذر قومه منه وأن حربه تختلف عن حرب المهلّب، فقال لهم: «قد جاءكم شجاع بطل يقاتل لدينه وملكه بطبيعة لم أر مثلها لأحد، ما حضر حرباً إلا كان أول فارس يَقتل قرنه»[١٠٠].

---

(٩٨) ابن الأثير ٤/١٦٥.

(٩٩) ابن الأثير ٤/١٩٥.

(١٠٠) ابن الأثير ٤/٢٨٢.

وليس من شأن هذه الدراسة الإطالة في شرح وقائع التاريخ إلا بمقدار ما تضيء هذه الوقائع النقاط التي يسعى بحثنا لإضاءتها.

لما قضي على ابن الزبير، ودخل العراقَ قادةُ الأمويين المعروفون، كالحجاج بن يوسف الثقفي، وخالد بن عبد اللّٰه القسري وغيرهما ممن ثبتوا أركان الدولة بالبطش والإرهاب، وإخماد المعارضات، مهما كان نوعها وبأيّ أسلوب ممكن، بدءاً من ثورة ابن الزبير في الحجاز والحسين بن علي في العراق، وانتهاءً بثورات الخوارج، ومن المفيد والمهم الإشارة في هذا المكان إلى أن عبد اللّٰه بن الزبير ــ قبل أن يلقى ذلك المصير المشؤوم ــ قد خدم الأمويين خدمة جليلة فيما يتعلق بالخوارج فقد كانت جيوشه أنهكتهم وفتّتت عزائمهم وكسرت شوكتهم.

أقول: لما قُضي على ابن الزبير ورث عنه ولاةُ بني أمية أولئك القادة الذين كان يستعملهم في حرب الخوراج، فحاربوهم بسيوف آل المهلب، وبذلك تكون هذه الأسرة التي أنجبت نخبةً من المحاربين قد أجَّرتْ سيوفها للحاكم القائم دون النظر إلى هويته.

أما الخوارج فقد استمرت ثوراتهم تقضّ مضاجع الدولة الأموية، وتنتقص من أطرافها طيلة عمر هذه الدولة، وهو قرن من

الزمن تقريباً، وقد أسهموا في إضعافها والقضاء عليها، كما أسهموا في القضاء على دولة الراشدين بقتل آخر خلفائهم.

استعمل معهم الأمويون كل أنواع السياسات بدءاً من المهادنة والموادعة، وانتهاءً بالغدر والاغتيال، فقد سار فيهم المغيرة ابن شعبة واليهم (والي الأمويين) على العراق، وعبد الله بن عامر سيرةً حسنة، تشبه سيرة علي فيهم[١٠١] فلم يهيجاهم إلا إذا أعلنوا العصيان والثورة. وقد كان خروجهم تضحية بالنفس يُقدِمون عليها وهم عالمون بنتائجها، مطمئنون راغبون بها[١٠٢].

كما عاملوهم بالملاحقة والسجن وقتل السجناء والأبرياء، دونما ذنب اقترفوه، أو خروج أعلنوه، أو إفساد في الأرض — كما كان يسميه الحاكمون — بل لمجرد الاشتباه بأنهم يدينون بالمذهب الخارجي، وكان من أشهر حوادث قتل السجناء حادثة مقتل عروة ابن أديّة الذي قتل في سجن زياد بطريقة مثيرة، وكان تقيّاً شجاعاً فقيهاً، حتى لقد تجاذبته الفرق الإسلامية الأخرى، وادعته لصلاحته وحسن سيرته، قطع زياد يديه ورجليه وسأله بعد ذلك: كيف

---

(١٠١) الفتنة الكبرى لطه حسين /٢٢٨.

(١٠٢) نفس المرجع (علي وبنوه) ٢٢٩.

ترى؟ فأجابه: أفسدتَ عليّ دنياي، وأفسدتُ عليك آخرتك، ثم أمر به فقُتِل وصُلب[١٠٣].

وبلغ من تهديد الخوارج لدولة بني أمية، أن بعض قادتهم استطاعوا أن يدخلوا الكوفة والبصرة ومكة والمدينة ويملكوا على أمرها ويتغلبوا على ولاتها، ويقيموا فيها ويسيّروا أمورها فتراتٍ من الزمن تطول أو تقصر تبعاً لما كانت تقتضيه الأحوال.

من ذلك ماأثبتته كتب التاريخ، وتواترت رواياته، وهو دخول القائد الخارجي شبيب بن يزيد الشيباني الكوفة على الحجاج، وتحصُّنه منه ومن زوجته غزالة الخارجيّة بقصر الإمارة، حتى لقد ضرب شبيب باب القصر بعمود من حديد فترك فيه أثراً، والحجاج محاصر في داخله. وصلَّت زوجته غزالة ركعتين في مسجد الكوفة، قرأت بهما سورتي البقرة وآل عمران — وهو نذر كانت قد نذرته على نفسها — وقال الشاعر في ذلك:

وفتِ الغزالةُ نذرَها ... يارَبِّ لاتغفر لها

وكتب عمران بن حطّان الشاعر الخارجي المشهور إلى

---

(١٠٣) الكامل للمبرد /٩١.

الحجاج شامتاً ومعرّضاً ــ وكان الحجاج قد لجَّ في طلبه ــ[١٠٤] :

أسدٌ علــيَّ وفي الحروب نعامــة
ربْــداءُ تجفــل من صفير الصَّافــر
هلَّا برزتَ إلي غزالــة في الوغــى
بل كان قلبك في جناحَــيْ طائــر

وكان الحجاج قد أرسل إلى شبيب هذا خمسة قواد فقتلهم واحداً بعد واحد ، وفي إحدى حروبه غرق في نهر دجيل (الأهواز) لا دجيل بغداد سنة سبع وسبعين للهجرة[١٠٥] وقيل : إن صوته كان كالرعد حتى قال شاعر منهم في صيحته[١٠٦]

إنْ صاح يوماً حسبتَ الصخر منحدراً
والريح عاصفــةً ، والمــوج يلتطــم

---

(١٠٤) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق هارون /١٢٨ ومروج الذهب للمسعودي ١٣٩/٢ والكامل للمبرد /٩٠ ــ ٩١ والكامل في التاريخ ٤٠٦/٤ .

(١٠٥) البيان والتبيين حاشية /١٢٨ .

(١٠٦) البيان والتبيين حاشية المحقق /١٢٨ وشرح النهج ٥٤١/١ ــ ٥٥٧ وشعر الخوارج : ١٠٩ .

وقيل كذلك: إنه لما غرق شق الحجاج بطنه واستخرج قلبه فكان كالحجر إذا ضربت به الأرض نبا عنها[١٠٧].

وكان تهديد الخوارج للحكم الأموي على أشده في السنوات الأخيرة من عمره ــ فقد استطاع أبو حمزة الخارجي (المختار بن عوف الأزدي) احتلال مكة والمدينة وأقام بهما طويلاً وسار في الناس سيرة حسنة، كما دخل اليمن القائد الخارجي بلخ بن عقبة الأزدي أو (المسعودي) وأقام فيها طويلاً أيضاً، كان ذلك بالتنسيق مع بعضهما البعض على محورين. وهذان القائدان الخارجيان كانا يدعوان إلى عبد الله بن يحيى الكندي الذي سمي (طالب الحق) وخوطب بأمير المؤمنين، كان ذلك سنة تسع وعشرين ومئة للهجرة في خلافة مروان بن محمد[١٠٨].

وكان أخطر ما هدد الدولة الأموية في سنيّها الأخيرة خروج الضحاك بن قيس الشيباني، الذي قيل إن جيشه بلغ مئة وعشرين

(١٠٧) مروح الذهب للمسعودي ٢/١٤٠ وشرح ابن أبي الحديد للنهج ١/٥٥٧ وابن الأثير ٤/٤٣٣.

(١٠٨) مروج الدهب ٣/٢٤٢ والكامل في التاريخ ٥/٣٥١ ــ ٣٨٣ وشرح النهج ١/٦٠٦.

ألفاً، واحتل العراق وواسط ونزل دار الحجاج، وبايعه عامل العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وهما من أعيان بني أمية وصلّيا خلفه، فقال في ذلك أحد شعراء الخوارج وهو شبيل بن عذرة الضبعي:[(١٠٩)]

ألم تر أن اللّـــه أظهـــر دينـــه
وصلَّتْ قريشٌ خلـف بكـر بن وائـل

وقـد وُصف الضحـاك هذا بأنـــه كان من علمـــاء الخوارج[(١١٠)]: ومن مشاهير زعماء الخوارج الذين لعبوا أدواراً متفاوتة الأهمية في مناهضة الدولة الأموية بين حين وحين، كما أسهموا في ترسيخ أقدام العقيدة الخارجية وقيم الخوارج وأخلاقهم: قطري بن الفجاءة، ونافع بن الأزرق، ومرداس بن أديّة، ونجدة بن عامر وغيرهم ممن سنمرّ على ذكر أكثرهم بين أسماء شعراء وخطباء الخوارج..

وقبل الخروج من هذه اللمحة التاريخية أريد أن أذكـر

---

(١٠٩) شعر الخوارج /٧٤.

(١١٠) البيان والتبيين /٣٤٢ وابن الأثير ٣٣٤/٥ ــ ٣٣٧ والعصبية القبلية للنص /٣٨٨ ــ ٣٩٤ والدولة العربية وسقوطها (ولهاورن) /٣٠٩ ــ ٣١١.

موقفهم من الخليفة الأمويّ الصالح عمر بن عبد العزيز، وموقفه منهم، كانت العلاقة علاقة أمل بالتقارب وكانت في بدايتها علاقة إعجاب متبادل، لكنهم ناظروه مناظرة طويلة وهامة أوردها ابن الأثير(١١١)، مما قالوا له في آخرها: «بيننا وبينك أمر واحد، خالفت أعمال أهل بيتك، وسميتها مظالم، فإن كنت على هدى وهم على الضلالة، فالْعنْهم وتبرأْ منهم» فقال عمر: «لقد علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا، ولكنكم طلبتم الآخرة فأخطأتم طريقها»..

وكان طبيعياً ألا يلتقي الطرفان في كل شيء، وافترقوا عنه ولكن كلاً منهما اعترف للآخر ببعض الفضائل، وكان رأي عمر ابن عبد العزيز فيهم مشبهاً لرأي علي من قبل، وهو أنهم: طلبوا الحق فأخطأوه..

ولم يختلف شأنهم في العصر العباسي عما كان عليه في العصر الأموي، كانوا أعداء حقيقيين لبني العباس، وكانت ثوراتهم عليهم متتابعة وخروجهم مستمراً، لم تفتر لهم عزيمة، ولم تلن لهم قناة..

---

(١١١) الكامل في التاريخ ٤٦/٥ ــ ٤٧ ــ ٤٨ والبيان والتبيين ١٩٠/١ ــ ١٩١.

فإضافة إلى ما ذكرنا من ثوراتهم على بني أمية ، بزعامة قادتهم الكبار كنافع بن الأزرق ، وقطري بن الفجاءة ، وأبي حمزة ، والضحاك بن قيس الكندي وغيرهم ، ممن أنهكوا الدولة الأموية ، وشغلوا جيوشها طيلة قرن من الزمن .. إضافةً إلى ذلك فقد ثاروا على العباسيين وأقضّوا مضاجعهم في تاريخ طويل فصَّلته وشرحت أجزاءه كتب التاريخ ..

ثار خوارج عمان على السّفاح بزعامة الجُلَنْدى (من الإباضية)[112] وثاروا على المنصور في الجزيرة (جزيرة الشام) بزعامة مُلَبّد بن حرملة الشيباني سنة ١٣٧ هـ وقيل إن الجيش الذي هزمهم به بلغ ثمانمائة ألف[113].

وثار الإباضيون والصّفريون في تونس وما حولها ، حوالي خمس عشرة سنة[114] وخرجوا على المهدي بخراسان بزعامة يوسف بن ابراهيم (البَرْم)[115] وخرجوا على الرشيد بجزيرة الشام ، وكانت ثورة الوليد ابن طريف سنة ١٧٨ هـ من أعظم ثوراتهم ، ولما قتل الوليد رثته

---

(١١٢) ابن الأثير ١٨٣/٥ .

(١١٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين /٣٣٨ .

(١١٤) نفس المصدر والصفحة .

(١١٥) ضحى الإسلام /٣٣٩ .

أخته (الفارعة) بقصائد أروع من قصائد الخنساء بأخويها من ذلك قولها:[116]

أيا شجر الخابور مالك مورقاً
كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتىً لا يُحبُّ الزَّاد إلَّا من التُّقى
ولا المالَ إلَّا من قنىً وسيوف

أما انتقال المذهب الخارجي إلى مصر وشمالي افريقية فكان في العهد الأموي الأخير في أكثر الروايات، وكان هرباً من الظلم والاضطهاد اللَّذين لحقا بهم من بني أمية وولاتهم[117].

وقد انتقل إلى هناك المعتدلون منهم (الإباضيون والصّفريون) وقد تم ذلك الانتقال على أيدي دعاة مهرة، مثل عكرمة (مولى ابن عباس) وسلمة بن سعد[118] الأول عن الصفريين، والثاني عن الإباضيين، وكان ذلك أوائل القرن الهجري

---

(١١٦) ضحى الإسلام /٣٣٩ والبيان والتبيين ٣٤٢/١.

(١١٧) ابن الأثير ٢١٣/٥ والمغرب الإسلامي لقمال موسى /٢٤٦ والإباضية في موكب التاريخ ٢١/٢.

(١١٨) ورد اسمه مسلمة بن سعيد في كتاب. المغرب الإسلامي لقمال موسى.

الثاني وكانت حركتهم في بدايتها عربية قمةً وقاعدةً، وسكنوا في جبل نفوسة وورقلة، ثم انضم إليهم البربر ولاقت مبادئهم رواجاً لا مثيل له في أوساطهم، وذلك أن عمال بني أمية أساؤوا معاملتهم، فوجدوا عند البربر مرتعاً خصباً لآرائهم(١١٩).

على أن وضعهم في شمالي إفريقيا، كان مختلفاً كل الاختلاف عما كان عليه في المشرق، إذ استطاعوا بعد ثورات متعددة ومستفيضة الأخبار في كتب التاريخ، ضد الأمويين والعباسيين من بعدهم(١٢٠) أن يعرفوا أشكالاً من الاستقرار والازدهار وتشكيل الدول، مما كان في المشرق حلماً مستحيل التحقيق. فقد أسسوا الدولة الرستميّة (الإباضية) في تاهرت أو تيهرت كما ورد اسمها في بعض الكتب، تأسست سنة ١٦٠ هـ، وقال عنها مؤلف كتاب الجزائر: أحمد توفيق المدني(١٢١) إنها أول دولة إسلامية وطنية أسست في الجزائر وهي بربرية، بسطت سلطانها العادل على كل الجزائر عدا ناحية الزاب الأغلبية، وناحية

---

(١١٩) الدولة العربية وهاوزن /٢٧٤ ــ ٢٧٥ والمغرب الإسلامي /٢٠١ ــ ٢٤٦ والإباضية في موكب التاريخ ج ٢ /٢٦ ــ ٢٧.

(١٢٠) ابن الأثير ١٤٠/٥ ــ ١٤٤.

(١٢١) كتاب الجزائر /٢٣ ــ ٢٤.

تلمسان الإدريسية، وكان مذهب البربر بعامة هَو الإباضي، كما قال المؤلف نفسه: إن تيهرت أصبحت أعظم مدن المغرب مدنيَّةً وعمراناً، وأسس أئمتها الدولة على التقوى ونشر الرفاهية، فعبدت الطرق، ووسعت نطاق التجارة وأقبل المسلمون البربر على خدمة الأرض، فأصبحت مملكة تيهرت حديقة غناء(١٢٢).

وقال أيضاً: إن الدولة الرستميّة أسست على سنة الجمهورية الإسلامية، أيام الخلفاء الراشدين، رئيسها أمير المؤمنين يُنتخب انتخاباً حراً، وهو يستشير كبار (الشراة) أي عظماء المذهب وعلماءه، وقد استمرت هذه الدولة من سنة ١٦٠هـ إلى سنة ٢٩٦ هـ وتولى أمرها أئمة عادلون أولهم عبد الرحمن بن رستم وآخرهم اليقظان(١٢٣)، كما وصفها المؤلف بالازدهار الفكري والاقتصادي والأدبي(١٢٤) ومن المفيد في هذا المكان أن أسجّل هاتين الملاحظتين:

---

(١٢٢) نفس المرجع السابق /٢٣ــ ٢٤ والإباضية في موكب التاريخ ١/١٣٧ــ١٣٨.

(١٢٣) نفس المرجع /٢٤

(١٢٤) نفس المرجع /٧٦ــ ٧٧.

الملاحظة الأولى:

إن خوارج المغرب ــ باستعمالهم الدعاة والمبشرين ــ يختلفون اختلافاً جوهرياً عن خوارج المشرق، الذين اعتمدوا أسلوب المجاهرة والمواجهة والسيف في تحديهم لخصومهم، ويدخل ذلك في صميم ما بين الفريقين من تباين في المواقف والعقائد، فيما يتعلق بالتطرف والاعتدال، فخوارج المغرب ــ وكما أسلفنا ــ يعدّون من المعتدلين فهم الإباضيون والصفريون، الذين يدعون لرأيهم بالدعاة والمبشرين، وربما بشيء من السرية والمرونة، ومنهم القعدة الذين لا يرون المواجهة المسلحة هي أفضل الطرق لتحقيق الأهداف،.. لذلك فقد أسَسَ هؤلاء الدول، وذاقوا طعم الاستقرار، وأسهموا في صنع الحضارات.

الملاحظة الثانية

الإشارة إلى أن مؤلف كتاب (الإباضة في موكب التاريخ) ــ علي يحيى معمر ــ يصرّ ويقدّم ما وسعه من أدلة على أن يخرج الإباضيين من حظيرة الخوارج، ويهتم أشد الاهتمام بتأييد هذا الرأي، ويلح على تأكيد أن الإباضيين ليسوا كالأزاقة والنجدات

وغيرهم شعبة من شعب الخوارج الذين خرجوا على عليّ في صفين، وإنما هم فرقة إسلامية قديمة النشأة، تتمسك بصفاء الإسلام ونقائه، ويبني كتابه الضخم السالف الذكر على هذا الأساس.

ولكن ذلك المؤلف عندما يشير في لمحة تاريخية إلى صفين ويوم الخروج، يقف إلى جانب الخوارج في موقفهم من علي، ويجد لهم المسوّغات، ويشاركهم رأيهم الذي واجهوا به عليّاً، وهو أنه (أي علي) قد فرّط بحقه، إذ قبل المساواة عليه، وتحكيم الرجال فيه، وهذا هو تماماً رأي عامة الخوارج قبل أن ينقسموا إلى فرق...[١٢٥] وأخلص إلى القول: إن الخوارج ـ بعد علي ـ وبخاصة في الفترة التي تلت غيابه، أصبحوا قوماً غرباء يعيشون في زمانٍ غير زمانهم، ملاحَقين مضطهدين، وقد كان هدفهم الوحيد وشغلهم الشاغل، إحقاق الحق، وإقامة نظام إسلامي شرعي، يقوم على الأسس التي اعتمدها الإسلام الأول في إقامة الدولة، واختيار الخليفة، واعتماد الشورى وسيلةً في كل ذلك.

وأين هم مما يحاولون؟ إنهم يحاولون قسر الأشياء وتحميلها ما لا تستطيع حمله، فقد حلّت القيم المادية محل كل القيم

(١٢٥) راجع (الإباضية في موكب التاريخ) في مواضيع كثيرة..

الأخرى، وسادت أنظمة الحكم الدكتاتورية والقمع والإرهاب وشراء الضمائر والأعوان بأموال المسلمين، وباختصار فقد انتصر اليمين على اليسار في الإسلام، فأين موقع الخوارج ــ وهم يسار الإسلام المتطرف ــ من هذه الظروف الجديدة؟ أين ذلك مما يريدونه من تطبيق حرفية النصوص الإسلامية، والسير على أسمى المبادىء الأخلاقية؟. كانوا يسعون ــ دون شك ــ وراء المستحيل...

(٧)

صفات الخوارج

لقد اعترف أعداء الخوارج لهم بمجموعة من الصفات تميزهم عن غيرهم ـ وعندما نقول: أعداء الخوارج، فإننا نعني كل الذين كتبوا عنهم، فليس للخوارج أصدقاء ـ هذه الصفات التي ذكرتها كتب التاريخ للخوارج تحلهم في المحل الأول بين الفئات الإسلامية التي كان لهم بها صلة من أي نوع كانت تلك الصلة، فهم يقفون على قمة الهرم الإسلامي تحلياً بجملة من الصفات الفذة التي هي أمهات الفضائل العربية والإسلامية، كالصدق والشجاعة والوفاء والتقى والصراحة والتضحية والفداء،

وغيرها من الصفات التي فخر بها العربي وتوارثها الآباء عن الأجداد .

إن هذه الأخلاق التي تغنَّى بها العربيّ ، واعتزَّ بها ، واعتبرها إرثاً خالداً ، ليست مطلقة عند الخوارج ، أو بمعنى آخر ، إنها مرتبطة بالعقيدة الخارجية ، مقيدة بها ، تمشي في ركابها فالكرم والشجاعة والنجدة والشهامة ، وغيرها من القيم العربية ، ليست شيئاً إن لم تكن موظَّفة لنصرة المذهب الخارجي .

فليس فيهم ذلك الأمير الكريم ، الذي رفع عماده ، وأوقد ناره ، ورفع صوته بدعوة الضيفان والمعتفين ، فنحر الذبائح وأطعم وسقى ، وأجزل الهبات والأعطيات ، كحاتم الطّائي ، ومعن بن زائدة وغيرهما من أجواد العرب ، ممن تناقلت الركبان أخبارهم ، وضرب بهم المثل . إن هذا الكرم ـــ عند الخوارج ـــ نوع من التبذل والتفريط ، والكريم من هذا النوع لا بد أن ينفق من جهد غيره ، ويتصرف بأموال المسلمين تبعاً لرغباته ونزواته ومصالحه ، وسعياً وراء المجد الفردي والشهرة التي لا تخدم قضية ، ولا تنصر مبدأً .

وليس فيهم ذلك الشجاع الفاتك ، الذي أتقن فنون الرماية والفروسية وبارز الأقران ، مباهاةً وبطراً .

وهم لا يغيثون ملهوفاً ، ولا ينجدون مستنجداً ، ما لم تنطبق عليه شروطهم (الخارجية) ، بل ربما قتلوه إن لم يكن أهلاً للنجدة ، ولا يكون كذلك إن لم يكن مسلماً مؤمناً صحيح الإسلام والإيمان ، أي أن يكون خارجياً .

إن كرمهم وشجاعتهم ونجدتهم وغيرها من الصفات ، هي في خدمة مذهبهم الديني والسياسي ، تتمحور كلها حوله ، فهم شجعان حتى الموت ، لكن في سبيل المبدأ ، وهم كرماء بالغالي والرخيص ، لكن لنصرة مذهبهم الخارجي .. لذا فإنهم ملتزمون التزاماً صارماً : كل شيء من أجل المذهب ، كل شيء من أجل القضية ..

إنهم ينطوون على مجموعة من الصفات الفذة التي لا يحملها إلا أفذاذ الرجال ، وأعظم ما في الأمر ، أنهم يتحلون بها بشكل جماعي ، ويلزمون بعضهم على حملها والتحلي بها فهم مجموعات متجانسة الأخلاق والصفات كأنهم صبّوا في قالب واحد ، أو كأنهم تخرجوا من مدرسة واحدة صارمة النظام ، يقوم عليها أساتذة أولو بأس وشدة ، يلقنون فيها مناهج واحدة ..

ولا أريد أن أحكم على أخلاقهم أو دينهم من خلال

موقفهم ممن عارضوا أو ناصبوا العداء كائناً من كان، فقد عارضوا علياً، كما عارضوا كل من عاصروا من خلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، والمتتبع لهذه المعارضة سيجد لها ما يسوِّغها..

وإذا كان موقفهم من علي هو البداية، وهو الذي أثار الجدل حولهم، وأعطى خصومهم الآخرين أوراقاً يلعبون بها ضدهم، ويشوهون ملامحهم عبر التاريخ، فإن علياً كان أرحم بهم وأعرف وقد أكد أنهم طلاب حق أخطأوا الطريق إليه.

كذلك فلسنا مطالبين بتخطئة واحدٍ من خصمين اختصما في أمر ما من الأمور، ولسنا ملزمين بالوقوف إلى جانب فريق من فريقين تنازعا في قضية من القضايا، فقد يكون الطرفان المتنازعان على خطأ، وقد يكونان على صواب، كما هو الأمر في الخلاف بين علي والخوارج، فنحن أمام خصمين شريفين، كل منهما معتقد بصحة وصدق موقفه، يريد وجه الله في كل ما يقول ويفعل، لا مساومة ولا مهادنة ولا تراجع من فريق أمام فريق: فلو قبل عليّ مقالتهم واعترف بمثل ما اعترفوا به، لعادوا إليه، ونصروه على خصمه ولحصل على الخلافة، ولكنه لم يقبل بموقف رآه خطأً مهما كان مردوده عليه.

ولو قبل الخوارج حجة عليّ في العودة إلى صفوفه، دون قيد أو شرط، لانتهى الأمر، ولَأُلْغِيَ الخوارجُ من التاريخ، ولتجنبوا هذه اللعنة الأبدية التي لحقت بهم عبر الأجيال، ولكنهم رفضوا التراجع عن موقف اعتقدوا صحته مهما كان الثمن: خصمان يتقاتلان دون هوادة وكل منهما معجب بالآخر ومفجوع فيه، لكنه يحس أنه مدفوع إلى هذا الموقف بما يحمل من مبادىء يريد لها الظفر.

وعلى الرغم من الغمامة السوداء التي ظللت تاريخ الخوارج، منذ ولادتهم في صفين، وحتى هذه الأيام: إذ كل المؤلفين ضدهم، كلهم يسبّونهم، ويكتبون عنهم كفئة نجسة ملوثة خارجة على سلطان الدولة وأعراف المجتمع، إنهم مذمومون ملعونون بكلّ لسان، فكلّ الذين كتبوا التاريخ وألّفوا السِّيَر أعداء لهم، سواء أكانوا من السنة أو الشيعة أو المعتزلة، أقول: على الرغم من كل ذلك فإنهم ينتزعون إعجاب كل من يعرفهم ولو من خلال السطور السوداء الظالمة التي كتبت عنهم في تاريخهم المرير.

لذا لا أرى عجباً أن يقف المرء من خصمين متحاربين وقفة المعجب بهما معاً، وعلى الرغم مما يبدو من لا منطقيتهم في جدالهم

مع علي في مسألة التحكيم، فإنهم هكذا اجتهدوا، وهكذا فهموا، ثم انسجموا مع ما اجتهدوا وفهموا وحملوا السيف لتأييده، (وليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه)، كما قال علي عنهم ـــ.

لم يخرجوا طمعاً في دنيا، ولم يرهبهم عدو قوي، وكان أروع مافي خروجهم على مخالفيهم، علمهم أنهم مهزومون أمامهم، وأنهم يدافعون عن قضية ميئوس من انتصارها على الأرض قال عنهم فلهوزن[١٢٦] «إنهم يسعون وراء أهداف لا يمكن تحقيقها ـــ لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها ـــ وهو أمر لم يكونوا يجهلونه إذ لم يكونوا يعتقدون بانتصار مبادئهم على الأرض».

وهذا ما يؤكد أنهم خرجوا ابتغاء مرضاة الله، لا يبغون غير ذلك، سموا نفسهم (الشراة) من قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾[١٢٧]. كفَّروا عليّاً زعيمهم وقائدهم ومثلهم الأعلى في الدنيا والآخرة، عندما اعتقدوا بخطئه، خرجوا عليه وكلهم مرارة وأسى على التفريط بالزعيم والقائد، ولكن

(١٢٦) الخوارج والشيعة / ٦٢ / والطبري ١٨٦/٢ وما يليها. وابن الأثير ٥١٩/٣. وشرح النهج وغيره.

(١٢٧) سورة البقرة ٢٠٨.

يجب ألا تأخذهم في قول الحق والدفاع عنه لومة لائم، مهما كان الثمن باهظاً، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. إن أهم ما عرف به الخوارج:

ـ **الصدق مع النفس**، والانسجام التام بين القول والعمل، وبين ما يخفون وما يعلنون. وفي سيرتهم وتاريخهم أمثلة وشواهد كثيرة على ربط القول بالعمل، والشعار بالتطبيق، وقد سمعنا أعداءهم قبل أصدقائهم يجمعون على أنهم يحاولون تقويم المنكر بأيديهم، لا بألسنتهم وأيديهم.

من ذلك ما تواتر في كتب التاريخ عن سجن مرداس بن أدية في سجن عبيد الله بن زياد[١٢٨]، فقد استطاع ذلك الخارجي السجين ـ بما له من صفات ـ أن ينال ثقة السَّجَّان، فكان يأذن له بمغادرة السجن ليلاً ليعود إليه نهاراً، وظل الأمر كذلك إلى أن عزم عبيد الله أن يقتل سجناءه من الخوارج وفيهم ـ بالطبع ـ مرداس هذا، وكان لمرداس صديق في خدمة عبيد الله، أوصل إليه الخبر بعزم الأمير على قتله وقتل رفاقه السجناء، فما كان من مرداس إلى أن عاد إلى السجن ليواجه القتل ـ وهو يعلم ـ كيلا يؤذي ذلك

---

(١٢٨) الكامل للمبرد ٨٢.

السجان الذي أحسن إليه، ولما جاء دوره ونودي عليه ليقتل، استوهبه السجان من الأمير فوهبه له.[129]

ـ **شجاعة القلب واللسان**: لقد كانت تلك الشجاعة أساس سلوكهم وطابع حياتهم الخاصة والعامة، عرفوا بها في علاقاتهم الاجتماعية والسياسية وفي حوارهم مع الأصدقاء والأعداء.

لقد كانوا في الحروب مقاتلين أشداء لم تلن لهم قناة، ولم يذكر التاريخ هارباً واحداً من مقاتليهم، كما لم يذكر أن أسيراً منهم ساوم على رأيه أو حاول أن يبيع قضيته بأي ثمن، أو غيَّر قوله خوفاً أو طمعاً أمام عدوه، أميراً كان أم خليفة أو كائناً من يكون. يستقبل أحدهم الرمح وقد أنفذه فيسعى فيه إلى قاتله وهو يقول:[130] «وعجلت إليك رب لترضى»[131].

وإن جادلوا أو حاوروا قالوا ما يعتقدون صحته وصدقه دون مواربة أو انحراف أو تزييف لا يبغون إلا وجه الحق في ذلك.

خطب زياد بن أبيه في البصرة والياً عليها من قبل معاوية

(١٢٩) الكامل للمبرد ٨٢، وشرح النهج ١/٥٩٥ وابن الأثير ٣/٥١٩.

(١٣٠) الكامل للمبرد ٥٧، وشرح النهج ١/٦٠١.

(١٣١) سورة طه: ٨٤.

خطبته المشهورة، فقام إليه الخارجي المشهور مرداس بن أدية وقال: أنبأنا الله بغير ما قلت إذ قال: «ألا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى[١٣٢]» وأنت تزعم أنك تأخذ الحاضر بالغائب والمقبل بالمدبر والصحيح بالسقيم والمطيع بالعاصي[١٣٣]

وجيء برجل منهم إلى عبد الملك لتضرب عنقه، فدخل على عبد الملك ابنٌ له صغير يبكي لأن المعلم ضربه، فيهمّ عبد الملك بالمعلم فيقول الخارجي: دعوه يبكِ فإنه أفتح لجرمه، وأصحّ لبصره، وأذهب لصوته، وأدعى لعبرته إذا دعيت يوم القيامة، فيدهش عبد الملك ويقول له: ويحك! أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟ ويجيب الخارجي: ما ينبغي لمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء.[١٣٤]

وقال الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعتَ القرآن؟ قال: أمتفرقاً كان فأجمعه؟ قال: أتقرؤه ظاهراً؟ قال: بل أقرؤه وأنا أنظر إليه، قال: ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: لعنه الله

---

(١٣٢) سورة النجم: ٣٨ـ ٣٩.

(١٣٣) الكامل ٥٢ وشرح النهج ١/٦٠٢ والبيان والتبيين للجاحظ / ٦٠ /.

(١٣٤) شرح النهج ١/٥٩٤ والبيان والتبيين: ٢/٢٥٩.

ولعنك معه، قال: فإنك مقتول فكيف تلقى الله؟، قال: ألقى الله بعملي وتلقاه أنت بدمي[١٣٥].

ومن أمثلة الحوار المكتوب ما دار بي الحجاج وبين قطري بن الفجاءة. كتب الحجاج لقطري: سلام عليك، أما بعد فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية، وقد علمت حيث تجرثمتَ ذاك أنك عاصٍ لله ولولاة أمره، غير أنك أعرابيٌّ جلفٌ أمّيّ تستطعم الكسرة، وتستشفي بالتمرة، والأمور عليك حسرة، خرجت لتنال شبعة فلحق بك طغامٌ صُلُوا بمثل ما صُليتَ به من العيش، فهم يهزون الرماح. ويستنشئون الرياح على خوف وجهدٍ من أمورهم. وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بترحتين، والسلام[١٣٦].

فأجابه قطري: من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف. سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم اللّه، ويرهبون نقمه، فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظلع به أهل السّفال، وهدى به من الضلال، ونصر به عند استخفافك بحقه.

---

(١٣٥) البيان والتبيين ١٤٨ــ ١٤٩.

(١٣٦) البيان والتبيين ٢/٣١٠.

كتبتَ إليَّ تذكر أني أعرابيٌّ جلفٌ أميٌّ أستطعم الكسرة واستشفي بالتمرة. ولعمري يا بن أم الحجاج إنك لَمُتيَّهٌ في جِبلّتك مُطْلَخِمٌّ[137] في طريقتك واهٍ في وثيقتك لا تعرف اللهولا تجزع من خطيئتك، يئستَ واستيأستَ من ربك، فالشيطان قرينك لا تجاذبه وثاقك ولا تنازعه خناقك، فالحمد لله الذي لو شاء لأبرز لي صفحتك وأوضح لي صلعتك، فوالذي نفس قطريٍّ بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال، مع أني أرجو أن يدحض الله حجتك، وأن يمنحني مهجتك[138].

هذه لمحات خاطفة وشواهد عابرة على صدقهم وجرأتهم وصراحتهم في قول الحق، ذكرها التاريخ وتناقلتها أقلام الرواة وألسنتهم.

ـ **الورع والزهد والتعبد**: لقد عرف عن الخوارج من الزهد وإدمان العبادة وتقديمها خالصة لوجه الله، ما لم يعرف عن فئة من فئات الإسلام الأخرى، فإذا وجد بين بقية الفرق متعبدون متزهدون، فإنما هم أفراد، لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة، وإذا أمعنا

(١٣٧) المطلخم: المظلم والمتكبر.

(١٣٨) البيان والتبيين ٢/٣١١.

البحث وجدنا أن سلوكهم هذا يفسر بدوافع اجتماعية أو سياسية أو تجارب فردية شخصية، رمت بهم في أحضان التزهد والتعبد.

وزهد الخوارج ليس كزهد المتصوفين الذين ظهروا فيما بعد والذين نفضوا أيديهم من الدنيا وهربوا من مسؤولياتها، وسلكوا الطرق الصوفية، بل هو زهد مقترن بالعمل لتقويم الاعوجاج وإصلاح الفساد باليد واللسان، أو هو بتعبير آخر زهد إيجابي لا يعني التخلي عن الواجبات الدنيوية والمساهمة في صنع الحياة.

الزهد والشجاعة كانا متلازمين في حياة الخوارج، وإذا كانت الحرب قد فرضت عليهم فإنهم قد فرضوا على أنفسهم التعبد والتزهد.

وصفهم أعداؤهم وأصدقاؤهم فكانت الصورة واحدة، ومما جاء في وصفهم على ألسنة شعرائهم وخطبائهم قول عمرو بن الحصين العنبري يصف زهدهم:[(١٣٩)]

متأوِّهـــون كأنَّ جمرَ غضاً ... للموت بين ضلوعهم يسْري

فهـمُ كأنَّ جرى بهمْ مَرَضٌ ... أو مسَّهم طرفٌ من السّحْر

---

(١٣٩) شرح نهج البلاغة ٦٦١/١.

لا ليلهمْ ليلٌ فيلبسهم فيه غواشي والنوم بالسكرِ

ومما جاء في خطبة أبي حمزة الخارجي يصف قومه:[140]

أنضاءُ عبادةٍ وأطلاحُ سهرٍ، ينظرُ اللّهُ إليهمْ في جوفِ الليلِ منحنيةً أصلابُهم على أجزاءِ القرآن، كلَّما مرَّ أحدُهُمْ بآيةٍ من ذكرِ الجَنَّةِ بكى شوقاً إليها، وإذا مرَّ بآيةٍ من ذكرِ النَّارِ شهقَ شهقةً كأنَّ زفيرَ جَهنمَ بين أذنيه. موصولٌ كلالُهم بكلالهم: كلالُ الليل بكلالِ النهار، قد أكلت الأرضُ رِكبَهم وأيديَهُمْ وأنوفَهُمْ وجباهَهُمْ، واستقَلُّوا ذلك في جَنْبِ اللّهِ، حتى إذا رأوا السِّهامَ قد فُوِّقتْ، والرماح قد أُشرعتْ، والسيوفَ قد انتُضيت، ورعدتِ الكتيبةُ بصواعق الموت وبرقتْ، استخفُّوا بوعيد الكتيبة لوعدِ اللّه، ومضى الشَّابُّ منهم قُدُماً حتى اختلفتْ رجلاهُ على عُنُقِ فَرَسِه وتخضّبتْ بالدماءِ محاسنُ وجهه.. الخ.. الخ.

وزهدُ الخوارج لم يكن مقترناً بالضعف والخور اللذين يرافقان عادةً العبَّاد أو المتصوفين الذين لا حول لهم ولا قوة، إلا ما يجري على ألسنتهم من كلمات الخشوع والدعاء والاستسلام، بل كان زهداً متصلاً بشجاعة القلب واللسان واليد،. أمر عبيد اللّه

---

(١٤٠) البيان والتبيين ٢/١٢٢ ـ ١٢٥.

ابن زياد بعروة بن أدية، أحد الخوارج المعروفين، فقطعت يداه ورجلاه، ثم قال له: كيف ترى؟ قال: أفسدت عليَّ دنياي وأفسدتُ عليك آخرتك، وبعد أن صُلب وقتل دعا عبيد الله مولاه فسأله عنه فقال: أأطنب أم أختصر؟ قال: بل اختصر فقال: ما أتيتُه بطعامٍ بنهار قط، ولا فرشت فراشاً بليل قط[١٤١].

وواضح من هذه القصة ما كان عليه الرجل من تقى وورع وشجاعة في وقت معاً. وليس عروة هذا فرداً في هذه الصفات، فالخوارج بجملتهم موصوفون بالورع والزهد والشجاعة، روي عن مرداس بن أدية ـــ أخي عروة السالف الذكر ـــ أنه مرَّ بأعرابي يهنأ بعيراً[١٤٢] له فهرج[١٤٣] البعير فسقط مرداس مغشيّاً عليه، فظن الأعرابيّ أنه قد صرع، فقرأ في أذنه، فلما أفاق قال الأعرابي: قرأت في أذنك، فقال له مرداس: ليس بي ما خفته علي، ولكني رأيت بعيرك هرج من القطران، فذكرت به قطران جهنم، فأصابني ما رأيت، فقال: لا جرم، والله لا فارقتك أبداً![١٤٤]

---

(١٤١) الكامل للمبرد ٢٣ـــ و ٩١.

(١٤٢) يهنأ بعيراً: يطليه بالهناء وهو القطران.

(١٤٣) هرج: تعب وتحير.

(١٤٤) الكامل للمبرد ٨٢ـــ ٨٣ والكامل في التاريخ ٥١٨/٣.

ـــ **الشجاعة في الحروب** .. ولا أرى أن أفيض في هذه الصفة فكل زوايا هذه الدراسة ينطق بذكر شجاعة الخوارج، ويردد أخبار بطولتهم ويورد أمثلة من التضحية والفداء ملأت تاريخهم.

ـــ **الوضوح في الأقوال والأعمال** ... والبعد عن التعمق في أي شيء، من دين أو فلسفة أو عقيدة سياسية، وهم أبعد ما يكونون عن المذاهب الباطنية، أو اتخاذ التقية أسلوباً في السلوك الاجتماعي أو السياسي، لذا فإنهم كانوا يبدون جفاةً غلاظاً في تعاملهم، كما أنهم نبذوا المداراة واستعمال الدسائس لتحقيق أغراضهم، ومن ذلك عدم اعتمادهم على الدعاة السريين في نشر عقيدتهم، مخالفين بذلك كل أصحاب العقائد الدينية والسياسية، من باطنيين وغير باطنيين في إيصال آرائهم إلى الناس.

ـــ **وربما كانت السطحية نوعاً من الوضوح** الذي مارسوه، فهم سطحيون حرفيون إلى حد يبلغ درجة السذاجة والسخف في كثير من الأحيان، وقد ذكرت في مكان آخر من هذه الدراسة أن ما عرف عن الخوارج من بساطة وحرفية وسذاجة في تفسير النصوص وفهم المواقف، سبب لهم الكثير من المتاعب التي بلغت حد الخطورة على كامل وضعهم، من ذلك ما رواه المبرد في

الكامل[١٤٥]، أن المهلب بن أبي صفرة، دسَّ إلى قطري بن الفجاءة ــ أحد خلفاء الخوارج ــ رجلاً وقال له: إذا رأيت قطريّاً فاسجد له، فإن نهاك فقل: إنما سجدتُ لك. ففعل الرجل ونهاه قطري وقال له: إنما السجودُ للّه، فقال الرجل: ما سجدت إلا لك، فقال رجل من الخوارج: قد عَبَدَكَ من دون اللّه، وتلا: ﴿إنكم وما تعبدون من دون اللّـه حصب[١٤٦] جهنـم أنتم لها واردون[١٤٧]﴾. فقال قطري: إن النصارى عبدوا عيسى بن مريم فما ضرَّ ذلك عيسى شيئاً، فقام رجل من الخوارج إلى الرجل الذي سجد لقطري فقتله، وكان ذلك الرجل نصرانيّاً، فأنكر ذلك عليه وقال: أقتلت ذميّاً؟! واختلفت الكلمة ووقع الشقاق..

ــ واتصف الخوارج بفصاحة اللسان والإعجاز البلاغي وقوة الحجة والقدرة على الإقناع، وهذه سمات تحلى بها عامتهم، فقد سجلوا في محاوراتهم ومجادلاتهم ومكاتباتهم جملةً من آيات البلاغة، سحر بها العدو قبل الصديق، مثال ذلك ما جاء في كتاب

---

(١٤٥) الكامل ١٩٣.

(١٤٦) حصب: بمعنى حطب.

(١٤٧) سورة الأنبياء ٩٨.

الكامل للمبرد[148] أن عبد الملك بن مروان أتي برجل منهم، فبحثه، فرأى منه ما شاء فهماً وعلماً، فرغب فيه، فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصراً محققاً، فزاده في الاستدعاء، فقال له: لتغنك الأولى عن الثانية، وقد قلتَ فسمعتُ، فاسمعْ أقلْ، قال له: قل، فجعل يبسط من قول الخوارج ويزين له مذهبهم، بلسان طلق وألفاظ بينة ومعانٍ قريبة، فقال عبد الملك: لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأنّا أولى بالجهاد منهم.

وعندما لجَّ عبيد اللّه بن زياد في حبس الخوارج وقتلهم، كُلِّم في بعضهم فأبى وقال: لَكَلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع[150، 149].

ـ **وهم مثاليون مغرقون في مثاليتهم إلى حد الطوبائية**، يسعون وراء أهداف غير ممكنة التحقيق على أرض الواقع الاجتماعي والسياسي والتاريخي والنفسي للوسط الذي يعيشون فيه، وهم في

---

(148) الكامل ٦٧.

(149) الكامل ٨٢.

(150) اليراع: القصب الفارسي.

سعيهم لتحقيق أهدافهم لم يدرسوا الظروف المحيطة بهم، ولكنهم وضعوا مثلهم أمام أعينهم واتجهوا نحوها، دون دراسة أو دراية، فبدوا غرباء في بيئتهم.

ـــ **لم تكن قرابة النسب هي القرابة المقدمة عندهم**، بل على العكس تماماً، لقد كان انتماؤهم الخارجي أوثق أنواع الارتباط عندهم، وإن نظرة فاحصة في تركيبهم القبلي والطبقي تؤكد ذلك السبق الذي أحرزوه في إحلال العقيدة محلّ القبيلة.

وجملة القول: إن الخوارج يتحلون بمجموعة من الفضائل التي يندر أن تتحلى بها جماعة، وقد يلفت النظر جماعية التربية عندهم، مخالفين بذلك ما عرف عند العرب من فردية، واعتداد بالشخصية، وعدم الانصهار في الجماعة.

وما دام الصدق والصراحة والشجاعة هي أمهات الفضائل التي اتصف بها الخوارج، فهم أبعد ما يكون عن الخداع والمكر والمواربة حتى مع أعدائهم، وهذا ناتج ـــ بطبيعة الحال ـــ عما عرف عنهم من عفوية وسذاجة وتسرع في إعطاء الرأي، وبخاصة في أول أمرهم، إذا كان الطابع البدوي، وسرعة الانفعال، واستعجال اتخاذ القرار، سماتٍ مميزة لهم، ويفسِّر موقفهم من علي

برمته، على أساس سرعة الانفعال، والتسرع في إعطاء الرأي واتخاذ القرار، لكن لا مكان لسوء النية أو فساد الطوية، ومما لا شك فيه أنهم تخلوا عن كثير من هذه الصفات، بعد نضجهم وخبرتهم وتمرسهم في الحروب.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بقيت نظرتهم قاصرة في كثير من أمور الدنيا والدين! فهم لا يحسنون التعامل مع مخالفيهم، كثيرو الخلاف على الرؤساء، بعيدون عن التطور الديني والعلمي والاجتماعي، يمثلون في تدينهم بساطة الإسلام الأولى، وفطرته قبل دخول شوائب الأمم الأخرى عليه، يؤمنون بقلوبهم لا بعقولهم.

ويخطر لسائل أن يسأل: مادامت هذه هي أخلاق الخوارج، ومنطلقاتهم النظرية والعملية، فكيف مارسوا الاغتيال الفردي وهو غدر أي غدر؟؟

حادثة اغتيال واحدة نسبت إلى الخوارج عبر تاريخهم الطويل كله، وقد ذكرنا ضعف تلك الرواية، وأنها واضحة الافتعال، مهندسة بشكل ينفي عنها المعقولية والمنطقية، وبخاصة الرواية القائلة: إن ثلاثة من الخوارج اتفقوا على اغتيال الزعماء الثلاثة: علي ومعاوية وعمرو بن العاص.

أما اغتيال عبد الرحمن بن ملجم لعلي بن أبي طالب، فقد ذكرنا فيما سبق من هذه الدراسة أن المقصود من تلك العملية، كان إزاحة علي عن مسرح الأحداث بيد خارجية، ولو كانت العملية من صنع الخوارج لتكررت ولو مرة واحدة أخرى للتخلص من ألدّ أعدائهم: كالحجاج والمهلب بن أبي صفرة أو أبنائه الذي أعملوا الفتك بالخوارج دون هوادة، بل وربما كانت يدهم طالت الخلفاء أنفسهم، ولكنهم لجؤوا إلى المواجهة دائماً. وسواء أكان ابن ملجم خارجيّاً أم غير خارجي، فقد كان فرداً، وفرداً مأجوراً: إما من قطام، أو من خصوم علي الحقيقيين في الشام، ولم يُعرف أن فرداً من الخوارج أو جماعةً منهم كانت وراء ذلك الاغتيال، أو تبنَّته أو حتى باركته[151]، بل على العكس تماماً فقد كان الأشعث بن قيس الكندي (أحد المدسوسين على علي) على علم وصلة بفتكة ابن ملجم، ولا أحب العودة إلى هذا الموضوع الشائك، وكل ما أبغيه هو أن يغسل التاريخ ــ تاريخ المستقبل ــ أيدي الخوارج من دم الاغتيال. وأن يعيد التحقيق في تهمة لم تثبت على من نسبت إليهم إلّا بالتقادم.

(١٥١) يرى المسعودي في كتاب التشبيه ص ٢٥٧، أن كثيراً من الخوارج لا يتولون ابن ملجم، وذلك لقتله عليّاً عيلة.

(٨)

نظريتهم السياسية

إذا صحت تسمية (حزب سياسي) على فريق من فرقاء النزاع في صدر الإسلام، فعلى الخوارج تصح، أما غيرهم ممن سُمّوا أحزاباً، فإن وضعهم لا يعدو أن يكون تجمعاً أسريّاً أو قبليّاً يطلب الخلافة.

فالأمويون والعلويون والزبيريون، يناضلون لتكون الخلافة في بني أمية أو في آل علي أو في آل الزبير، لم يزيدوا على ذلك شيئاً، لقد كان كلهم مزوداً في دعواه وطلبه للخلافة ببعض الحجج التي يمكن أن تكون عند بعضهم أقوى من البعض الآخر، وذلك تبعاً

لما لدى ذلك البعض من قدرة على إقناع الناس بأن الشعار الذي يرفعه، يمكنه تطبيقه، بما لديه من مؤهلات ومقدمات تدل على النتائج.

والشيء الوحيد الذي اقتنع الناس به هو أن فرقاء النزاع، يسعون لتحقيق هدف الحصول على الخلافة، مهما كانت الوسائل، ومهما غلا الثمن، وقد رأينا كيف آلت الخلافة إلى بني أمية، ثم كيف تحولت إلى ملكية وراثية، وابتعدت عن الممارسات الإسلامية.

ومن الطريف أن تكون أقوى حجة كان يتسلح بها طلاب الخلافة، هي الحديث المروي عن النبي (ﷺ) (الأئمة من قريش) يقدمونه بين يدي دعواهم، وكلهم من قريش، فمن للخلافة؟ ليس لديهم أهداف محددة يطرحونها في مطالبتهم بالخلافة، ولا منهاج عمل يقدمونه للناس، ولا مبادىء يدافعون عنها، ومن أجل تحقيقها يطلبون الوصول إلى الحكم! كل ما لديهم... أنهم من قريش.

أما الخوارج.. فليست الخلافة قضية ذات بال في مسيرتهم، ولم تكن في يوم من الأيام هدفاً يسعون لتحقيقه أو مطلباً

يتذرعون الذرائع للوصول إليه، وإذا كان لابد من خلافة، فلكي تكون وسيلة لتطبيق برنامج إسلامي متكامل، أو لإعطاء صيغة مقبولة لشكل الحكم كان المسلمون قد تعارفوا عليها من قبل، أيام الخلافة الراشدية، واعتبروها الصيغة المثلى للنظام الإسلامي.

أول شعار رفعه الخوارج في وجه الفئات الإسلامية الأخرى: رفضهم المطلق لما روي عن النبي (الأئمة من قريش) وذلك لمنافاته لروح الإسلام، فالأئمة من توفرت فيهم شروط الإمامة التي جاء بها الإسلام عن طريق الشورى، أما تسلّح الفئات الأخرى بحديث (الأئمة من قريش) فنوع من إحياء الأرستقراطية القرشية وتأكيد: خيارکم في الجاهلية خيارکم في الإسلام، وقد عمل الإسلام على طمسه وجهد في القضاء عليه، وهاهو ذا الآن يطل على الناس باسم الإسلام.

ولا يُعقل ــ في نظر الخوارج على الأقل ــ أن ديناً ساوى بين العربي والعجمي، وبين الأسود والأبيض، وبين العبد والسيد، أن يكون من مبادئه حصر الخلافة في قبيلة دون غيرها من سائر المسلمين! فالتقوى التي وردت في الحديث الشريف: (ليس لعربي

فضل على أعجمي إلا بالتقوى)[١٥٢] وفي الآية الكريمة ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[١٥٣] هي أهم شروط المفاضلة، وليس النَّسب القرشيّ أو غير القرشيّ.

لذا فإن ملخص نظرية الخوارج في الخلافة كان: أن يُختار القرشي وغير القرشي، والعربي وغير العربي، والرجل والمرأة، وسبيلهم إلى هذا الاختيار، الشورى التي وضعها الإسلام طريقاً لاختيار الخليفة.

وقد طبق الخوارج هذه الديموقراطية على أنفسهم، فاختاروا لخلافتهم أتقاهم وأشجعهم وأكفأهم، وبلغوا في تلك الديمقراطية حداً لم تبلغه أكثر الأمم المعاصرة رقيّاً، وذلك أنهم كانوا إذا أحسّوا أنهم أساؤوا الاختيار، كانوا يسحبون الثقة من الخليفة القائم ويختارون بديلاً عنه.[١٥٤]

من ذلك أن خوارج اليمامة اختاروا أبا طالوت قائداً لهم،

---

(١٥٢) من خطبة النبي (ﷺ) في حجة الوداع.

(١٥٣) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

(١٥٤) النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية ٥١٢/١ والخوارج والشيعة ٦٩.

على أن يظل كذلك حتى يجدوا خيراً منه ، كان ذلك سنة خمس وستين للهجرة ، وفي السنة التي تلتها أي سنة ست وستين هجرية خلعوا أبا طالوت وبايعوا نجدة بن عامر الحنفي ، وبايعه أبو طالوت نفسه ، فكان نجدة خليفةً ، وباسمه سميت فرقة النجدات من الخوارج ، ثم إنهم خلعوا نجدة بعد أن أنكروا عليه بعض الأمور وأخذوا عليه بعض المخالفات ، وولوا عليهم أحد الموالي وهو ثابت التمار ، وكلفوه أن يبحث لهم عن أمير يصلح لقيادتهم ، فاختار لهم : أبا فديك فنال البيعة ، ولم يكتفوا بخلع نجدة بل قتلوه سنة اثنتين وسبعين للهجرة .[١٥٥] ..

ومن أمثلة الديموقراطية المبكرة في تاريخهم ، أنهم منذ اعتزلوا معسكر علي في صفين ونزلوا في حروراء ، اعتمدوا نوعاً من القيادة الجماعية ، فجعلوا على حربهم : شبث بن ربيع التميمي ، وعلى صلاتهم : عبد الله بن الكوّاء اليشكري ، وكان أول من سمي عندهم أمير المؤمنين : عبد الله بن وهب الراسبي[١٥٦] وهم بذلك يوزعون المسؤوليات في عدد من المتميزين : كلٌّ فيما أوكل إليه .

---

(١٥٥) الخوارج والشيعة : ٦٩ ــ ٧٢ والطبري ٨٢٩/٢ .

(١٥٦) علي وبنوه : /٨٩ وغيره .

وقد قام على أمرهم في أيامهم الأولى نخبة من الرجال منهم عبد اللّه بن وهب الراسبي ، ونافع بن الأزرق ، وقطري بن الفجاءة وغيرهم ممن اتصفوا بأرفع الصفات ، والذي يمعن النظر في تركيبهم الاجتماعي والطبقي ، يجد أنهم مارسوا الديموقراطية الإسلامية كأفضل الممارسة ، فلم تغلب قبيلة من القبائل على تنظيمهم السياسي ، كما أنهم لم يمارسوا الشعور بالتفوق العربي ، فقد كان بين صفوفهم عدد كبير من الموالي والأعاجم ، لهم ما للعامة الخوارج وعليهم ما عليهم.[١٥٧]

وقد اجتذبوا إلى صفوفهم بهذه الديموقراطية ، الفقراء والمضطهدين والمتعطشين للثورة ، من كل القبائل العربية وغير العربية ، وأحلوا مبادئهم الإسلامية محل العصبية القبلية أو العرقية كأحسن ما يمكن ، ضمن معطيات تلك الأيام .

ومن هنا رأينا أن العراق وإيران وما وراءهما كانت بيئاتٍ مواتية لتمركز الخوارج ، لما فيها من فئات مضطهدة تحن إلى العدل والمساواة ، على عكس الشام التي كانت ذات نظام إقطاعي ،

---

(١٥٧) النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية ٥١٢/١ وعيون الأخبار لابن قتيبة ٣٣٧/١ .

وتركيب طبقي، مما لم يسمح لهم بإقامة قاعدة اجتماعية[١٥٨] بل حاربهم حكام الشام بأهل الشام.

ويمكن الإشارة إلى أهم مبادئهم الديموقراطية فيما يأتي:

١ ـــ الإمامة ليست حقاً مفروضاً، ويمكن تحميل مهمات الإمام إلى عدد الأكفاء[١٥٩] ولابن خلدون وحده قول مخالف في هذه القضية إذ يقول: إن الخوارج تقول بنصب الإمام[١٦٠].

٢ ـــ إذا كان لابد من إمام أو خليفة، فشرط اختياره هو: الكفاءة الإسلامية بأشمل معاني هذه الكلمة، ويقبل أن يكون اسمه: خليفة ـــ أو أمير المؤمنين، أسوة بالخلافة الراشدية.

٣ ـــ أما طريق الاختيار، فالشورى الإسلامية..

٤ ـــ رفض (الأئمة من قريش) أو كل ما في معناه من دعوات أرستقراطيـة أو عصبيـة، وكل ما ينـافي روح الإسلام وعدالته، وجواز أن يكون الخليفة عربياً أو غير عربي، أو

---

(١٥٨) النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية ٥١٣/١.

(١٥٩) النزعات المادية ٥١٢/١.

(١٦٠) تاريخ ابن خلدون ٣٣٩/١.

عبداً أسود أو امرأة، إذا اجتمعت فيه شروط الإمامة.

٥ ــ اعتبار الوراثة في الحكم أو الوصية أو الأسر الحاكمة، دعوات مشبوهة ودخيلة على الإسلام.

٦ ــ يمكن عزل الإمام أو قتله، إذا تخلى عن الأمانة، أو فرّط بحقوق المسلمين، أو أخلّ بأيٍّ من واجباته.

ولم تكن هذه المبادىء مجرد لافتات رفعوها، أو شعارات نادوا بها ثم تنكروا لها، بل إنهم أخذوا أنفسهم على تطبيقها، وحملوا بعضهم على السير بدقة صارمة على الطريق الذي رسموه بأنفسهم[١٦١] واختاروا السير عليه بمحض إرادتهم.

ولهذا عرف الخوارج بأنهم الحزب الجمهوري في الإسلام، وأنهم روّاد الديموقراطية الأوائل عند العرب. ويُلخص نظريَّتَهم في الحكم واختيار الخليفة قولُ شاعرهم: عمران بن حطان:[١٦٢]

فنحنُ بنو الإسلامِ واللّـهُ واحد وأولى عبادِ اللّه باللّه مَنْ شَكَرْ

وهو من روح الآية الكريمة ﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من

(١٦١) النزعات المادية في الفلسفة العربية ١/٥١١

(١٦٢) الكامل للمبرد /٢١، وتاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب /٦٧. وشعر الخوارج /٢٥.

ذكر وأنثى وجعلناكمْ شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّٰه أتقاكم إن اللّٰه عليمٌ خبير[163] ﴾

ولما كان الخوارج نبتة إسلامية عربية قمةً وقاعدةً، كان من الصعب على الباحث في أنسابهم وقبائلهم، أن يرى قبيلة بعينها تستأثر بأغلبية أو بقيادة، وإنما هم موزعون على كل القبائل بما يشبه التساوي، اجتذبوا الثوار والمتعطشين إلى العدالة، من كل قبيلة، بما قدموا من حسن القدوة، والانسجام بين القول والعمل، ولئن بدا في بعض مراحل حياتهم، غلبة لقبيلة على أخرى في تكوينهم، فليس ذلك إلا مصادفة لا تدوم طويلاً، ولا تلبث أن تعيد التوازنَ روافدُ من قبائل أخرى وربما كان للقبائل المستضعفة والموالي أوفر نصيب في صفوفهم.

وأكرر تسجيل رأيْ الخوارج القائل: إن المسلمين الذين تسلحوا بـ(الأئمة من قريش) إنما يريدون تكريس قيم قائمة، كانوا هم المستفيدين منها (خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام) فبنو هاشم وبنو أمية هم سادة قريش وسادة العرب في الجاهلية، كذلك وهم ضمن حظيرة الإسلام، يتابعون مسيرة خلافهم على

(١٦٣) سورة الحجرات: آية: ١٣.

الزعامة التي كانوا قد تقاسموها في الجاهلية حسماً للخلاف: السدانة وسقاية الحجيج وأمور الدين في بني هاشم وبني عبد المطلب، وأمور الدنيا، من تجارة وحرب وما إلى ذلك في بني أمية وبني عبد شمس، أما وقد جمع الإسلام بين الزعامتين: زعامة الدين والدنيا، فقد استمر الخلاف وأصبح أكثر ضراوة، يرى الخوارج — والحالة هذه — أن الإسلام يجب أن ينفض يده من تراث الجاهلية كله، وأن يصنع قيادات جديدة وزعامات جديدة، لا تدين في تكوينها ووجودها إلا لقيم الإسلام.

(٩)

عقيدتهم الدينية

يصعب الفصل بين صفات الخوارج وبين عقيدتهم الدينية، ذلك لأن أخلاقهم هي دينهم، ولأن العمل عندهم هو الإيمان، لا فاصل عندهم بين عقيدة وخلق، لذا فإن الانسجام والتوازي والتلازم بين الشعار والتطبيق جعل الباحث يرى التداخل والتشابك بين مفاهيمهم النظرية من دين وقيم روحية، وبين سلوكهم الحياتي من حرب وممارسة للحياة.

إن مايميز عقيدة الخوارج الدينية، ليس غرابتها ولا ماجاء فيها من نظريات بعيدة عن الإسلام، ابتدعوها وآراء أدخلوها على

الدين، فهم لم يبتدعوا شيئاً، ولم يأتوا بجديد، إنهم مسلمون بسطاء في تدينهم ببساطة الإسلام الأول، لكن الذي يميز عقيدتهم هو الطريقة التي تدينوا بها: التمسك بالعقيدة، والتفاني في سبيلها، والمراقبة الصارمة للنفس، وتكريسها في خدمة الآخرة، وأمور أخرى نلخصها فيما يلي من هذه الدراسة:

أسماهم الشهرستاني صاحب الملل والنحل (المارقة)، وكفَّرهم غيره من المؤلفين وهاكم ما قاله بعض مكفريهم:

قال الشهرستاني بالحرف الواحد بعد أن فصَّل فرقهم: «يجمعهم القولُ بالتّبري من عثمان وعلي ويقدّمون ذلك على كل طاعة، ولا يصحّحون المناكحات إلا على ذلك، ويكفّرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة، حقاً واجباً»(١٦٤).

وقال البغدادي صاحب الفرق بين الفرق: «إن الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها: إكفار عليّ وعثمان والحكمين وكل من رضي تحكيم الحكمين، وإكفار مرتكبي الذنوب، ووجوب

(١٦٤) الملل والنحل للشهرستاني ١/١١٥.

الخروج على الإمام الجائر»[165] ومثل ذلك تماماً ما قاله الأشعري، في مقالات الإسلاميين[166].

وهذا ليس هو عقيدة الخوارج الدينية، بل ما تفرد به الخوارج دون غيرهم من المسلمين:

آ ــ إكفار علي وعثمان.

ب ــ إكفار الحكمين وكل من رضي بالتحكيم.

ج ــ إكفار مرتكبي الكبائر.

د ــ وجوب الخروج على الإمام الجائر.

وفيما عدا ذلك فهم كبقية المسلمين يحيون الشعائر، ويقيمون أركان الإسلام كما جاءت في الشريعة دون اجتهاد أو تحوير..

وإن ما سبق ذكره من آراء اختص بها الخوارج، إنما هي أمور ميزتهم عن غيرهم وعرفوا بها دون سواهم، ويمكن إرجاع هذه الأمور وهذه الآراء إلى أصل واحد، ومنطلق فكري واحد، هو أصل المذهب الخارجي ذلك المنطلق هو (تكفير مرتكب الكبيرة)،

---

(١٦٥) عن ضحى الإسلام لأحمد أمين ٣٣٠/٣.

(١٦٦) مقالات الإسلاميين للأشعري /٥٥، ومروج الذهب للمسعودي ١٣٨/٣.

فهو نقطة البدء، فمنذ عرف الخوارج وظهروا كفئة لها شعاراتها وطروحاتها، كان تكفير علي أول ما جادلوا به، لقد اعترفوا بالكفر وبارتكاب الكبيرة، لأنهم قبلوا التحكيم لكنهم عادوا فاستغفروا الله، ورجعوا عن ارتكاب الكبيرة ــ أي قبول التحكيم ــ وجادلوا علياً في الأمر، وطلبوا إليه الاعتراف بالكفر، ثم الاستغفار، فلما أبى عدّوه كافراً ــ لأنه ارتكب الكبيرة ــ وهي قبول التحكيم في أمر من أمور الدين التي لا يجوز الجدل فيها، لذا فإن آراءهم السابقة كلها تجتمع حول محور واحد هو (ارتكاب الكبيرة). فعلي وعثمان والحكمان وكل من رضي بالتحكيم، إنما هم كفار ــ لارتكابهم الكبيرة ــ والإمام الجائر مرتكب الكبيرة ومن أجل ذلك فهو كافر ويجب الخروج عليه. وفي هذا السياق يأتي تكفيرهم لخصومهم من المسلمين، واستحلال أموالهم ودمائهم.

هذه هي كليات العقيدة الخارجية، أو كليات ما تفرد به الخوارج عن غيرهم كما جاء في أمهات كتب الفرق الإسلامية، وهي مبادىء اعتنقوها في مراحلهم الأولى، أما بعد تفرقهم إلى فرق فقد أدخل بعضهم تعديلات فزادوا وأنقصوا، وغيروا وبدلوا، تبعاً لما طرأ على حياتهم الجديدة وظروفهم الجديدة من تبديل وتعديل..

وبغضّ النظر عن آراء هؤلاء المؤلفين، ومذاهبهم في التأليف، ودوافعهم التي صدروا عنها، ونظرتهم للأمور، فإنا نرى أن أبرز ما يميز العقيدة الخارجية، الصفاء والتمسك بالدين وظاهر النصوص وعدم التفلسف والتعمق، فهم مسلمون بلا مذاهب، وليس لديهم أئمة يأخذ كل فريق منهم بتشريع إمام في القضية الواحدة، كما هي الحال عند المسلمين الآخرين الذين هم بين شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي وجعفري.

والملفت للنظر في دين الخوارج وتدينهم، هو ذلك الإخلاص للدين والتفاني في سبيله، وغنيٌّ عن البيان، أن الفرق بين معتنقي المذاهب يتجلى في مواقفهم منها، فمهما كان التمسك بالعقيدة والإيمان بها والتعصب لها والتعمق في فهمها، والدفاع عنها باللسان وبالقلب، مهما كانت هذه الأمور قوية، فإنها لا تساوي ركوب المخاطر والتعرض للموت والاستهانة بكل شيء في سبيلها.

إن كان المطلوب لصحة العقيدة الدينية، ممارسة الشعائر وإقامة الواجبات وتنفيذ التعاليم السماوية، فالخوارج عباد زهاد أنضاء عبادة، أكلت الأرض جباههم وأفنوا أعمارهم ورعاً وتقىً

وزهداً ، وإن كان المطلوب الدفاع عن العقيدة ، فهم الذي أفنوا رجاهم على تتابع أجيالهم دفاعاً عن الدين وانتصاراً للحق .

ولا مجال لمقارنتهم بأشد الفرق الإسلامية تطرفاً ، فليس في هذه الفرق من شهر سيفه في وجه حاكم ظالم انتصاراً لرأيه ، ودفاعاً عن دينه . وفرق كبير بين من يقوّم المنكر بسيفه ويده ، وبين من يقوّمه بقلبه ـــ وهو أضعف الإيمان . !

وقبل أن أوجز أهم ما يتعلق بعقيدتهم الدينية ، ربما كان من المفيد أن أشير إلى رأي زعيمهم السابق بهم ـــ أعني علياً ـــ لقد أثنى على حسن نيتهم في كل ما يفعلون ، وإن كان من خطأ في سلوكهم فإنهم يريدون غير ذلك ، قال عنهم في نهج البلاغة(١٦٧) : « لا تقاتلوا الخوارجَ بعدي ، فليسَ من طلَبَ الحقَّ فأخطأهُ ، كَمَنْ طَلَبَ الباطلَ فأدْرَكَهُ »

كذلك فقد وصفهم بالتقى والورع والفقه في الدين وعلم التأويل وقراءة القرآن ، قال للذين كانوا يوجهونه نحو حرب الخوارج ويصرفونه عن حرب أهل الشام : (١٦٨) « اتقوا الله وقاتلوا من حادَّ الله ورسوله ، وحاول أن يطفىء نور الله ، قاتلوا الخاطئين الضّالين

(١٦٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٥٩٣ .

١٦٨) الكامل لابن الأثير ٣/٣٣٩ .

القاسطين، الذين ليسوا بقراء القرآن ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، واللّه لو وُلُّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل، تيسروا لعدوكم من أهل المغرب».

وفي الموضوع نفسه في مناسبة مشابهة قال:[١٦٩] «بلغني أنكم قلتم: كيت وكيت، وإن غير هؤلاء الخارجين أهمّ إلينا، فدعوا ذكرهم، وسيروا إلى قومٍ يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً، ويتخذون عباد اللّه خولاً.»

وواضح من كلام علي أنه ينفي عنهم جملة من الصفات الذميمة، ويسند إليهم عكسها، من صفات الصدق في التدين وحب اللّه والعدل والخير، وعليّ أعرف الناس بالخوارج.

وعلى أني لا أدعي الإحاطة بكل جزئيات العقيدة الخارجية، فسأورد جملةً من الأمور والملاحظات تلقي ضوءاً كبيراً على تلك العقيدة:

١ ـ مسألة مرتكب الكبيرة وتكفيره، هي أمُّ المسائل ومبدأ المذهب الخارجي، وقد أشرت فيما سبق إلى أنها ملتقى فروع هذا

(١٦٩) نفس المرجع ٣٤١/٣.

المذهب، ولبعض فرقهم اجتهادات أخرى أقل تشدداً في هذه المسألة، كما هو الأمر عند الصفرية ــ إحدى فرقهم ــ إذ لا ترى تكفير القعدة بشرط العقيدة، ولا يرون قتل أطفال المشركين، لأنهم ليسوا كفاراً، وأصحاب الكبائر مشركون. الخ[170] كذلك النجدات لا يرون تكفير أصحاب الكبيرة.

وقد كانت مسألة تكفير مرتكب الكبيرة أو عدم تكفيره، محور الحركة الفكرية العربية الإسلامية في القرنين الأول والثاني للهجرة، وقد دخلت هذه المسألة في علم الكلام، بعد أن صار علماً، وكما أن هذه النظرية كانت منطلق المذهب الخارجي، فإن حركة المعتزلة في الأصل نشأت من الجدل في مرتكب الكبيرة[171]. ومن هنا تأتي أهمية الخوارج في ظهور حركة الاعتزال.

٢ ــ العمل جزء من الإيمان: لقد فهم الخوارج هذا المبدأ ببساطة وترجموه في واقع حياتهم وسلوكهم، وقد ذكرنا عن اقتران العقيدة

---

(١٧٠) المغرب الإسلامي: لقبال موسى ٢٠١ ــ ٢٤٦ وضحى الإسلام لأحمد أمين ٣/٣٣٠، والنزعات المادية ١/٥١٥.

(١٧١) النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية ١/٥١٦.

بالعمل عندهم، وبوحي من هذا الاعتقاد كان عليهم أن يحاربوا علياً ومعاوية وغيرهما ممن اعتقدوا بكفرهم[١٧٢]، قال عنهم فلهوزن: «العلامة المميزة لهم كل التمييز، هي الترجمة عن إيمانهم بالأفعال وامتشاق السيف»[١٧٣]، ولم يستطع الخوارج أن يفهموا الإيمان الصامت الكامن في الصدور، لا بد من تعبير عملي عن هذا الإيمان ـــ لا إيمان بلا عمل ـــ

يرى بعض الباحثين أن الخوارج تفردوا في تفسير مفهوم الإيمان، دون سائر المسلمين، فقد كان المسلمون قبل الخوارج يرون أن الإيمان يعني الاعتقاد الداخلي، ثم الإقرار به نطقاً باللسان، لكن الخوارج زادوا في هذا المفهوم عنصراً آخر هو العمل الخارجي العضوي، كل إنسان عندهم مؤمن أو كافر (من لم يعمل وفق اعتقاده، فهو كمن يخالف اعتقاده، وكمن لا اعتقاد صحيحاً له وبالتالي فهو كافر)[١٧٤] وعلى هذا حكموا على أنفسهم بالجهاد ـــ أي العمل ـــ، وهذا هو التلازم يبن النظرية والتطبيق.

---

(١٧٢) النزعات المادية ٥١٨/١.

(١٧٣) الخوارج والشيعة /٤٦.

(١٧٤) النزعات المادية ٥١٠/١ ـــ ٥١١.

٣ ــ الخوارج ظاهريون في كل معتقداتهم، ليس لديهم ما يخفونه عن الناس، وهذا منسجم مع نشأتهم، فقد كان أمرهم علنيّاً، ليس لهم تنظيمات سرية معقدة، وهم بذلك يختلفون اختلافاً كليّاً عن جماعات كالعباسيين والفاطميين[(١٧٥)]، وغيرُهم من الفرق الباطنية التي ظهرت فيما تلا عصور الإسلام الأولى.

وكما أن مبادئهم السياسية كانت معلنة، إذ لم يلجأوا إلى المؤامرات والدسائس وتكوين الأنصار المندسين، كذلك كانت معتقداتهم الدينية معلنة واضحة، لم يعمدوا إلى تأويلات للنصوص الدينية أو محاولة إعطائها معاني باطنية تذهب بها مذاهب أخرى، بل قنعوا بظاهرها وبفهمها كما تبدو من القراءة الأولى، كذلك لم يتعمقوا في الفقه والاجتهاد والتفسير والأخذ عن الأئمة، كان إسلامهم على بساطة الإسلام الأولى، وصفائه الأصلي، لا بتأويلات المؤولين واجتهاد المجتهدين، وليس فيهم خاصة وعامة، فهم جميعاً متقاربون في كل شيء.

ولم يخوضوا فيما خاضت فيه جماعات أخرى كالمعتزلة، من جدل ومنطق وفلسفة، بل التمسوا المعرفة من أقرب الطرق وأبسطها

---

(١٧٥) الخوارج والشيعة /٣٩.

وأبعدها عن التعقيد، وإن كانوا قد جادلوا في مسألة تخليد مرتكب الكبيرة بالنار، فإنما فعلوا ذلك عن غير قصد منهم، إنما كان مبدأ اعتنقوه دون تفلسف أو تعقيد، على عكس المعتزلة الذين حملوه وطاروا به وبغيره من الآراء وأوسعوها بحثاً وتقليباً على الوجوه.

ولكن للعفوية والسطحية من المساوىء مالا يقل عن مساوىء التقعر والتفلسف والتأول، وهذا ما وقع به الخوارج فعلاً في بعض مواقفهم النظرية، والخطورة تكمن في أن الخوارج يقرنون الإيمان بالعمل، فإذا اعتقدوا بصحة أمر من الأمور أو فساد أمر من الأمور، سارعوا لاتخاذ المواقف العملية وشهروا السيوف لتحقيق النظرية على أرض الواقع، لقد كانوا حرفيين ضيقين إلى الحد الذي ألحق الأذى بهم، وأساء إلى قضيتهم، وتحملوا جراء ذلك خصومات وانقسامات قصمت ظهورهم، قال أحد شعرائهم: زيد بن جندب[176]:

كنَّا أناساً على دينٍ فَفَرَّقنا
طولُ الجدالِ وخلطُ الجدِّ باللَّعِبِ

(١٧٦) البيان والتبيين ١/٤٢ وأدب السياسة للحوفي ٢٢٨ـ ٢٢٩، وشعر الخوارج: /٣٥.

ماكان أغنى أُناساً ضلَّ سعيُهـــمُ
عن الجدالِ وأغناهـــمْ عن الخطب
إني لأهونُكُـــمْ في الأرضِ مُضْطَرِبـــاً
مالي سوى فرسي والرُّمْـحِ مِنْ نَشَبِ

أدى إذاً تمسكهم بحرفية النصوص وظواهرها إلى سخافات وحماقات ارتكبوها(١٧٧) كان أحدهم يقول:

لو أن رجلاً أكل فلسين من مال يتيم وجبت له النار(١٧٨) لقول الله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً﴾(١٧٩) ولو قتل اليتيم أو بقر بطنه، لم تجب له النار لأن الله لم ينص على ذلك. كان أحدهم لا يستحل أكل تمْرةٍ بغير ثمنها، في حين استحل بعضهم دماء أطفال خصومهم من المسلمين(١٨٠) ومنهم من كان يقتل المسلم المخالف ويجير الذّميّ، وذلك لورود النص على استجارة الذمي وعدم

---

(١٧٧) مقالات الإسلاميين ١١٢ ــ ١١٣.
(١٧٨) ضحى الإسلام ٣/٣٣٤.
(١٧٩) سورة النساء: ١١.
(١٨٠) ضحى الإسلام ٣/٣٣٥.

وروده على المسلم، قال تعالى: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استَجَارَكَ فأَجِرْهُ، حتى يسمعَ كلام اللّه ثم أبلِغْهُ مَأمَنه﴾[181]

وقد طبقوا فهمهم لهذه النصوص على كثيرٍ من الناس، فمن قتل المسلم المخالف ما فعلوه مع الصحابي عبد اللّه بن خباب، إذ لقيهم وفي عنقه مصحف، ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا له: إن هذا الذي في عنقك يأمرنا أن نقتلك، فلما اختبروه وعلموا مخالفته لهم قتلوه[182]، وأقبل عليهم واصل بن عطاء في رفقة، فلما علموا أنهم الخوارج طلب واصل ــ وهو الإمام المعتزلي المعروف ــ من رفقته أن يتركوا له أمر محاورتهم، فخرج إليهم، فقالوا له: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام اللّه، ويفهموا حدوده. فقالوا: قد أجرناكم. قال فَعَلِّمونا، فجعلوا يعلّمونه أحكامهم وهو يقول: قبلت أنا ومن معي، قالوا: فامضوا مصاحَبين فإنكم إخواننا، وأبلغوهم مأمنهم[183]..

ومن المفارقات في هذا المجال ما جاء في الكامل

(١٨١) سورة التوبة: ٦.

(١٨٢) الكامل للمبرد: /٥٠.

(١٨٣) الكامل: /٨ ــ ٩.

للمبرد[١٨٤] من أن جماعة من الخوارج ساموا رجلاً نصرانياً بنخلة له، فقال: هي لكم، فقالوا: ما كنّا لنأخذها إلا بثمن، وكان هذا الرجل قد علم بقتلهم لعبد اللّه بن خباب، فقال: ما أعجب هذا!؟ أتقتلون رجلاً مثل عبد اللّه بن خباب، ولا تقبلون مني جنى نخلة؟.

وجملة القول في هذا الأمر: إن الخوارج ظاهريون سطحيون حرفيون، بعيدون عن الباطنية لا يدينون بالتقية، ولا ينافقون الحاكم الظالم، واضحون في معتقداتهم الدينية وضوحهم في نظريتهم السياسية، أركان الإسلام عندهم هي نفسها التي جاء بها القرآن الكريم والحديث الشريف، فحجهم إلى بيت اللّه الحرام، وصيامهم صيام رمضان، وصلاتهم هي الصلوات المفروضة، وإذا اختلفوا في شيء من ذلك عن غيرهم ففي المبالغة وتحميل أنفسهم أكثر مما فرض عليها، ففي الصلاة لا يكتفون بخمس صلوات مفروضة في أوقات محددة، بل ربما وصلوا الليل بالنهار تعبداً وتزهداً، كذلك في الجهاد فقد فهموه ضد أعدائهم الذين هم مسلمون فحملوا السيف في وجوههم، واستحلّوا دماءهم وأموالهم، وهذا ما طاب لي أن أسمّيه: الصّعْلكة الإسلامية.

---

(١٨٤) باب الخوارج /٥١ وشرح النهج ٦٠١/١.

٤ ـــ الخوارج متشددون في معتقداتهم وعباداتهم، صارمون في مراقبة أنفسهم، وصفهم كل الذين كتبوا عنهم بإدمان العبادة والتشدد فيها وإحياء الفرائض الدينية، قالوا عنهم: إنهم أنضاء عبادة، أكلت الأرض جباههم، وقد أسلفنا ذكر أنماط من رجالهم وعبَّادهم، منهم مرداس بن أدية، وعروة بن أدية، وعمران بن حطان، وأشرنا إلى تشابه الخوارج وجماعيتهم في كل شيء، وأن ليس لديهم خاصة وعامة، فهم مجتمع الطبقة الواحدة، بمعنى أنه ليس فيهم بعض المتعبدين، وبعض اللّاهين المترفين الفجّار، كلهم نمط واحد وطريقتهم واحدة في القول والعمل، وكانت الجنة هدفهم في كل ما يفعلون، قال عنهم فلهوزن[(١٨٥)] : «إنهم يبيعون حياتهم ويحملون أنفسهم إلى سوق ثمن أرواحهم فيه هو الجنة، والأساس الذي يستند إليه هذا التهور في التقوى، هو الإيمان الحق بأن الدنيا عبث، وأن بقاءها قصير، وأن يوم الساعة قريب، وهم يبذلون كل طاقة من أجل تحقيق سياسة خلو من كل سياسة، ابتغاء الفوز بالجنة» وكانت تسميتهم (الشراة) أي الذين باعوا أنفسهم للّه مقابل الجنة، ملائمة للأخلاقية الدينية التي مارسوها وطبقوها

---

(١٨٥) الخوارج والشيعة /٤٦ .

وأخذوا أنفسهم بها، لقد تواترت الأخبار عن روح الفداء والتضحية في تاريخ نضالهم مع خصومهم، كان ينفذ الرمح من ظهر أحدهم، فيسرع نحو الذي طعنه قائلاً: وعجلت إليك رب لترضى، وإن العودة إلى ما ذكرنا من أخلاقهم وصفاتهم تنفع في هذا المجال.

ومن الأمثلة الحية على مراقبتهم لأنفسهم وصدقهم معها ومثاليتهم، ما رواه الطبري(١٨٦): قال حيان بن ظبيان السلمي، وكان خليفتهم حوالي سنة ٥٩ هـ، قال لقومه: إنهم (أي أعداؤهم) لم يتركوا لكم الوقت بل يعاجلونكم، لهذا أرى أن أخرج معكم إلى جانب الكوفة والسبخة، أو زرارة والحيرة، ثم نقاتلهم حتى نلحق بربنا، فإني والله قد علمت أنكم لا تقدرون وأنتم دون المئة رجل، أن تهزموا عدوكم ولا أن تشتد نكايتكم فيهم. ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم، كان لكم به العذر، وخرجتم من الإثم.

هذه أعلى درجات الصدق مع النفس والقيام بالواجب دون إكراه أو وازع إلا من الذات والضمير.

---

(١٨٦) الطبري ١٨٢/٢ــ ١٨٣.

وهذا يقودنا إلى جانب آخر من تدينهم، وعدم تساهلهم في المسؤوليات، دون النظر إلى النتائج، وهو: أنهم يسعون إلى أهداف غير ممكنة التحقيق، فمن وجهة نظرهم كان لابد من افتداء هذه الأهداف بالأرواح، لأنها أهداف عادلة، ومن وجهة نظر بعض المؤلفين الأجانب[187] إن السعي إليها مناف للمدنية، لأنه سيكلفها غالياً دون قدرة على الانتصار، ولا يعنينا من تلك الأهداف قابليتها للتحقيق أو استحالتها عليه، بل الذي يعنينا هو نظرة الخوارج إلى هذه الأهداف وموقفهم منها، وهذا الموقف بحد ذاته قيمة أخلاقية ودينية سامية.

كذلك فقد رأينا فيما سلف من هذا البحث، أن الخوارج لا يساومون على معتقداتهم، وكثيرون منهم دفعوا أرواحهم لتصلب مواقفهم وعدم مرونتهم.

هل نسمي تشددهم وحرفيتهم تعصُّباً؟ أم نسميه تمسكاً ومحافظة على القيم الدينية كما فهموها؟

قال عنهم مؤلف النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية[188]: إنهم متحررون من عقد التعصب ضد الديانات

---

(١٨٧) فلهوزن، الخوارج والشيعة /٤٦.

(١٨٨) حسين مروة ٥١٢/١.

الأخرى وضد الأقوام الآخرين، فقد جمعت حركتهم أفراداً من قبائل عدة، ولم يكن تنظيمهم يثير الحساسيات القبلية، ومثل هذا القول جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة[189] ويندرج في هذا السياق، ماأسلفنا من تساهلهم مع المشركين وأنهم يجيرونهم ويبلغونهم مأمنهم.

وإذا كان هناك من مبالغة أو تعصب، فبقتلهم لمخالفيهم من المسلمين وقتل أطفالهم واستحلال أموالهم، وتحريم أكل ذبائحهم، وعدم تصحيح المناكحات منهم وغير ذلك، وليس كل الخوارج يرون ذلك.

والخوارج ـ فيما أرى ـ في إجارتهم للمشركين، وفي قتلهم لأطفال المسلمين المخالفين، وفي كل الآراء المتطرفة التي تصدر عنهم، إنما ينطلقون من مبادىء دينية ونصوص قرآنية، فهموها بهذا الشكل، وطبقوا ما فهموا دون مناقشة أو جدل، والتلازم بين النظرية والتطبيق، سمة مميزة للخوارج، غير أن ردة الفعل عندهم قد تكون عنيفة وتبدو وكأنها نوع من التعنت والمكابرة التي تفتقر

---

(١٨٩) عيون الأخبار ١/٣٣٧.

إلى التسويغ والمنطقية، جاء في أنساب الأشراف للبلاذري[١٩٠] أن الحسن البصري قال لأبي بلال، مرداس بن أدية: أخبرْني عن رجلين خرجا في أمر فغشيتهما ظلمة فوقف أحدهما حتى انجلت الظلمة فمضى، وتقحَّم الآخر الظلمة، أيهما أصوب رأياً؟ قال مرداس: أصوبهما عندي أخطأهما عندك.

ولا يخفى ما في هذا الجواب من قصد النكاية والمخالفة، إن هذا الخارجي يريد أن يقول: إن الخوارج يخالفون أفكار وآراء كل السائرين في ركاب السلطان دون مناقشة أو تبصر، وفيما عدا هذا الموقف وأمثاله، فإنهم يصدرون في آرائهم ومواقفهم المتطرفة عن أصول إسلامية ونصوص دينية بمقتضى فهمهم لها..

ففي إجارة المشركين يعتمدون على حرفية الآية الكريمة: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استَجَارَكَ فأجِرْهُ، حتى يسمعَ كلامَ اللّه، ثم أبْلِغهُ مأمنه﴾[١٩١]. وفي استحلالهم لقتل أطفال المشركين (أي خصومهم من المسلمين) يعتمدون على الآية الكريمة التي جاءت على لسان نبي اللّه نوح عليه السلام قالَ نوحٌ: «ربِّ

(١٩٠) أنساب الأشراف ١/١٨٠.

(١٩١) سورة التوبة (٦).

لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً، إنك إنْ تَذَرْهُمْ يُضلّوا عبادَكَ، ولا يَلِدُوا إلَّا فاجراً كَفَاراً»[١٩٢] فقد سمَّت الآية الكريمة أولادهم، قبل أن يولدوا كُفَّاراً فاجرين فحمل الخوارج ذلك وطبقوه.

وهذا هو عذر الخوارج فيما وُصف تعصباً أو تطرفاً أو سلوكاً لاإنسانياً، كما يبدو الأمر في قتل أطفال مخالفيهم من المسلمين.

هذه الآراء المتطرفة، وغيرها مما أوردنا من معتقدات الخوارج، إنما هي كليات العقيدة الخارجية، كما جاءت على ألسنة أعدائهم من المؤلفين، وتناقلتها أجيال هؤلاء المؤلفين والمصنفين، دون النظر إلى صحيح أو مكذوب، معقول أو غير معقول، فقد أراحوا أنفسهم بأن رددوا أقوال سابقيهم، دون إعمال للفكر والعقل ودون دراسة وتمحيص.

---

(١٩٢) سورة نوح / ٢٦ـ ٢٧ /.

(١٠)

جوانب أخرى

إنَّ الدارس المتبصّر ، يستطيع أن يرى أموراً غير التي تواترت في الكتب ، ويرى تفصيلات في آراء الخوارج غير التي ذكرناها ، فقد تفرق الخوارج إلى فرق كثيرة تباينت نظرتها وتفسيرها لمعظم الأمور التي أثارت جدلاً بينهم ، فقد اختلفت مواقفهم من أعدائهم إلى الحد الذي وصل عند بعض فرقهم ، إلى تكفير أولئك الأعداء ، واستحلال قتلهم وقتل نسائهم وأطفالهم ، بينما لا تصل عند بعض الفرق إلى هذا الحد المتطرف ، كذلك لم يكن موقفهم واحداً من القعدة (وهم فئة من الخوارج لا ترى امتشاق السيف والقتال دائماً هو أمثل الحلول) . ومن أكثر فرقهم تشدداً وتطرفاً

كانت فرقة الازارقة (أتباع نافع بن الأزرق)، ومن معتدليهم فرق النجدات والصفرية والإباضية.

وقد اختلفت هذه الفرق وغيرها، في أمور كثيرة أخرى، كالحلال والحرام، والجائز وغير الجائز. مما لا يتسع بحثنا لاستقصائه.

وقد طرأ على كثير من معتقداتهم وآرائهم، تطور كبير عبر عصور نضالهم الطويلة وتمرسهم بالحياة، واتصالهم بغيرهم من الأمم الأخرى، فقد عدّلوا من بعض الآراء، وزادوا وأنقصوا مما تقتضيه طبيعة التطور البشري.

وربما كان الاستقرار النسبي الذي عرفه الإباضيون والصّفريّون في شمالي افريقية قد أتاح لهم نوعاً من التفكير الهادىء، بعيداً عن ساحات المعارك وغبارها وقعقعة السلاح، فتفقهوا في دينهم، وتساهلوا فيما تشدد فيه خوارج المشرق، فهم لا يرون مثلاً تكفير القعدة، ولا يجيزون قتل أطفال المشركين (مخالفيهم من المسلمين)، وقد اعتمدوا نوعاً من التقية في نشر دعوتهم، وأرسلوا ما يشبه البعثات إلى المشرق العربيّ، للتعلّم والتفقّه على عالِمِيْهم

الكبيرَيْن (أبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة) . .

ولابد من التنبيه إلى أنَّ ماوصف به الخوارج، في مجال العقيدة الدينية من سطحية وسذاجة وغير ذلك، لم تكن صفات مطلقة ولا دائمة ولا لازمة، بل كانت في معظم الأحيان تابعة لوضعهم الاجتماعي والسياسي، متفاوتةً قوةً وضعفاً من فئة إلى فئة منهم.

وعندما تطاول بهم الزمن، واستقر منهم من استقر، بصورة ما من صور الاستقرار، أعملوا فكرهم وعقلهم وبحثوا في كل ما بحث غيرهم من المسلمين: من مأكل ومشرب، وحلال وحرام، وزواج وطلاق، ومواريث وتملّك، وقضاء وقدر، وجنة ونار، وغيرها، لكنهم لم يخوضوا فيها كما خاض غيرهم، فلم يستعملوا القياس والاجتهاد، ولا اعتمدوا التعمق والتفلسف، ثم إنهم خالفوا غيرهم في النظرة إلى المبادىء الدينية مخالفةً قوامها التشدد والبعد عن التيسير.

مما تفردّ به إباضيّو ليبيا في تشريعهم، أنهم حرَّموا الزَّواج بين من ربطت بينهما علاقة إثم، مرجعين ذلك إلى أصل إسلامي

وحديث شريف يقول: (أيّما رجل زنى بامرأة ثم تزوجها فهما زانيان إلى يوم القيامة)[١٩٣].

لقد رأوا في هذا التشريع رادعاً لهذه الظاهرة المخلّة بأخلاق المجتمع، بينما تسارع بعض المجتمعات الإسلامية إلى مكافأة الآثمين بالزواج والمباركة، وتتويج الخطأ بالتشجيع وتستير الإثم وتيسيره..

كما أصدروا حكماً بحرمان طالب الزكاة منها، قال (علي يحيى معمر) مؤلف كتاب الإباضية في موكب التاريخ: إنك لا تجد في المجتمع الإباضي شحّاذاً، ولا تجد غنياً ببابه جمهورٌ من الفقراء، يوزع عليهم الزكاة في زهوٍ وخُيَلاء، وإنما تصل الزكاة إلى مستحقّيها دون أن يكون لهم سابق علم بها، تنظّم ذلك هيئاتٌ إباضيةٌ، كل ذلك لتجنيب الفقير مذلة الطلب، وتفويت الفرصة على الغني أن يظهر بمظهر المتكبر المتعالي[١٩٤].

وإن تراخي الزمن، وضعف النوازع الأخلاقية والدينية، وفقدان المراقبة الدائبة، أدّى إلى تحلّي خوارج اليوم بما تحلّى به غيرهم من المفاسد الأخلاقية والاجتماعية، فقد ذكر مؤلف:

---

(١٩٣) الإباضية في موكب التاريخ ١١٢/١.

(١٩٤) نفس المصدر السابق ١١٧/١.

الإباضية في موكب التاريخ[195] ، أنه بعد دخول الاستعمار إلى شمالي افريقية ، أخذت تظهر بعض المفاسد في المجتمع الإباضي ، وأصبح ارتكاب المعاصي جهاراً ، أمراً معروفاً في إباضيي ليبيا .

أما إباضيو الجزائر ، فقد حافظوا على أخلاقهم ، ولم تستطع فرنسا بكل مغرياتها أن تفسدهم ، إذ استطاعوا أن يكون لهم وضع فريد في ظل الاستعمار ، فقد أرغموا فرنسا على أن تترك لهم الإشراف على أمورهم الدينية والأخلاقية ، وأمور الحكم والسيادة مقابل مبلغ من المال يدفعونه لها[196] . وكان نظام العزابة[197] يضبط أمورهم ويراقبها ويحافظ على قيمهم وأخلاقهم .

وإذا كانت مفاسد العصر الحديث قد أصابت شباب اليوم من كل فئة ، فلم يعد بمقدور أحد أو مجموعة من الناس ، مهما بلغت مراقبتها لنفسها ، أن تكون بنجوة من رياح العصر ، بما فيه من وسائل إعلام سريعة الحركة ، إذا كان الأمر كذلك في العصر الحديث ، فإن خوارج الأمس كانوا أشد انضباطاً وأكثر تقيداً

(١٩٥) علي يحيى معمر ١/١٢٧ .

(١٩٦) الإباضية في موكب التاريخ ١/١٣٠ .

(١٩٧) العزابة : هيئة من نخبة الرجال تختار بطريقة دقيقة لتقوم بالإشراف على الجماعة وتوجيه الأمور في المجتمع الإباضي .

والتزاماً بتعاليمهم الدينية والأخلاقية، كانوا يرفضون شيوع الفاحشة بينهم، يرفضون وجـود الأغنيـاء والفقـراء، روى صاحب الكامل[198] أن الخوارج في حروبهم مع المهلب، وفي إحدى معاركهم، أصابوا بعض السبايا، فلما نودي لشراء السبايا، بالغ أحدهم بأم حفص (إحدى السبايا) فبلغ بها سبعين ألفاً، وكان ذلك الرجل مجوسيّاً أسلم والتحق بالخوارج، فشق ذلك على قطري بن الفجاءة، وكان يومئذٍ على رأس الخوارج، فقال: ما ينبغي لمسلم أن يكون عنده سبعون ألفاً، إن هذه لفتنة، فقام رجل اسمه أبو الحديد العبدي إلى تلك السبيّة فقتلها، ورضي قطري عن ذلك، قال رجل من الخوارج:

كفانا فتنـةً عَظُـمتْ وجـلَّتْ
بحمـدِ اللّـهِ، سيـفُ أبي الحديـد
أهـاب المسلمـون بها وقالـوا
على فرط الهوى: هل من مزيـد؟؟
فزادَ أبـو الحديـد بنصل سيـفٍ
رقيـقِ الحـدِّ فعـل فتـىً رشيـد

(198) الكامل للمبرد ١٧٠ــ ١٧١ وشرح نهج البلاغة ١/٥٢٠. وشعر الخوارج /١٠٧.

إن قادة الخوارج الأوائل، كانوا يتمتعون بصفات تؤهلهم لهذه المهمة، فبالإضافة إلى ما روى التاريخ عنهم من مواقف الشجاعة والتضحية والإقدام، والفناء في العبادة، كانوا يحاولون، إذا سنحت لهم الفرصة، أن يتفقهوا في دينهم ويأخذوا من العلم ما يمكنهم أخذه، فقد روي عن نافع بن الأزرق (زعيم فرقة الأزارقة) أنه كان يلاحق فقيه الصحابة الأكبر، عبد اللّه بن عباس فيأخذ عنه ما وسعه الأخذ، من ذلك أنه جاءه يوماً، فجعل يسأله حتى أملَّه، فجعل ابن عباس يظهر الضجر، وطلع عمر بن أبي ربيعة، على ابن عباس وهو يومئذٍ غلام، فسلّم وجلس، فقال له ابن عباس: ألا تنشدنا شيئاً من شعرك؟ فأنشده:

أمن آل نعمٍ أنتَ غادٍ فمبكرُ

غداةَ غدٍ أمْ رائحٌ فمهجِّرُ!

حتى أتمّها وهي ثمانون بيتاً، فقال له ابن الأزرق: للّه أنت يا بن عباس! أنضربُ إليك أكبادَ الإبل نسألك عن الدين فتعرض، ويأتيك غلامٌ من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه! فقال: تاللّه ما سمعت سفهاً.. الخ[199].

(199) الكامل للمبرد /65 ــ 66.

إن ما سبق يؤكد توجه الخوارج نحو الدين، وشغفهم به دون سواه، فقد ملَّ ابن عباس من كثرة أسئلة ابن الأزرق.

وفي مكان آخر، سأل نافع بن الأزرق عبد اللّٰه بن عباس فقال: أرأيتَ نبيَّ اللّٰه سليمان صلى اللّٰه عليه، مع ما خوَّله اللّٰه وأعطاه، كيف عُني بالهدهد على قلته وضئولته؟ فقال له ابن عباس: إنه احتاج إلى الماء، والهدهد قنَّاء[٢٠٠] الأرض له كالزجاجة، يرى باطنها من ظاهرها، فسأل عنه لذلك، قال ابن الأزرق: قف ياوقافُ، كيف يبصر ما تحت الأرض والفخّ يُغطّى له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه! فقال ابن عباس: ويحك يابن الأزرق! أما علمت أنه إذا جاء القدر غشي البصر![٢٠١]، وغنيٌّ عن التوضيح ما سبّبه نافع بن الأزرق من الإحراج والإرباك للفقيه الكبير ابن عباس، وهذا يدل على ذكائه ونفاذ بصيرته ومحاولته فهم حقائق أمور الدين. وذكر فلهوزن[٢٠٢] أن نجدة بن عامر الحنفي أحد زعماء الخوارج، كتب إلى عبد اللّٰه ابن عمر يسأله عن أشياء في الفقه، ولكنها كانت أسئلة عويصة،

---

(٢٠٠) القنّاء: العالم بمواقع الماء من الأرض، مأخوذة من القناة.

(٢٠١) الكامل للمبرد: /٦٢.

(٢٠٢) الخوارج والشيعة /٨٠ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨.

فترك الإجابة عنها إلى عبد اللّٰه بن عباس، فسألوا ابن عباس فدهش كيف أن رجلاً لا يتورع عن سفك دماء المسلمين أنهاراً، يهتم ويدقق في الأمور الفرعية الفقهية.

أمْرُ الخوارج مع الرواة والمؤلفين أمر عجيب! فهم بالإجماع يكفِّرونهم ويخرجونهم من حظيرة الإسلام ويطلقون عليهم التسميات المهينة، فإذا شرع هؤلاء المؤلفون بتفنيد آرائهم ومعتقداتهم، وشرح مبادئهم ومواقفهم، ورووا الأحاديث عنهم في شتى مجالات الحياة، خرج القارىء بانطباع واحد هو: أن الخوارج هم صفوة النماذج البشرية سلوكاً وديناً وخلقاً.

وأشير إلى واحد من مشاهير هؤلاء المؤلفين، وهو الشهرستاني مؤلف كتاب: (الملل والنحل)، كمثال على تعامل المؤلفين مع الخوارج، إذ كلهم يتلاقون مع الشهرستاني في مجمل آرائه، وطريقته في العرض والتصنيف، وإصدار الأحكام.

أسماهم الشهرستاني (المارقة)[٢٠٣] ووصفهم بالكفر والمروق من الدين.

---

(٢٠٣) الملل والنحل ١/١١٤ـ ١١٥.

قسم المسلمين إلى اثنتين وسبعين فرقة، واحدة منها ناجية، وأكد بكل ما يملك من وسائل الإقناع والمنطق والحجة، أنه لا يجوز أن تكون هناك فرقتان ناجيتين، ولا أفراد من فرقة أخرى، ثم عرض آراء الفرق ومعتقداتها ومواقفها وسلوكها، بكثير من الإسهاب ــ بما في ذلك الخوارج ــ ومن يتابع رحلة الشهرستاني، يجد أنه برهن بالوقائع، أن الخوارج هم تلك الفرقة الناجية، بما قدم لهم من القدوة الحسنة، والمثل الأعلى في الأقوال والأعمال.

والتناقض الذي وقع فيه الشهرستاني، وقع فيه غيره من المؤلفين، فهم يكفّرون الخوارج في مقدماتهم، ثم يفصّلون القول عنهم فإذا هم خلاصة المسلمين في طروحاتهم وممارساتهم.

يكفّرونهم، ثم يقولون عنهم: إنهم جمهوريون، اشتراكيون، ثوار، عباد زهاد شجعان، صادقون.. الخ.

الخوارج إذاً، وبالإجماع والوراثة، كفرة فجرة، مارقون من الدين، خارجون على السلطان ــ والعياذ بالله ــ.

إنهم الثورة الملعونة المرفوضة من الجميع..!

وتعليقاً على ما جاء به الشهرستاني وغيره، من تقسيم

المسلمين إلى فرق، ومواقف تلك الفرق من معتقداتها، أرى أن الفرق بين أصحاب المعتقدات، لا يكمن في صحة تلك المعتقدات أو فسادها، بل في موقف معتنقيها منها: إذ يتساوى جميع معتنقي العقائد الدينية والسياسية، من حيث قناعتهم بصحتها وسلامتها، وأنها الأفضل والأصلح والأمثل، وإلا لما اعتنقوها.

بقي أمر الدفاع عنها هو الفارق، إلى أي حد يبلغ الدفاع عن العقائد؟ إنه يتراوح بين الدفاع بالقلب واللسان وبين تقديم الدماء والأرواح.

وإذا كان حكام المسلمين ــ فيما سلف ــ قد دافعوا عن حكمهم وملكهم، وقمعوا الثورات، وأجهضوا الانتفاضات الشعبية، تحت ستار الدين والشرعية، فإنها الدنيا تقنعت بالدين، والأولى لبست ثياب الآخرة.

قال مؤلف النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية(٢٠٤) عن الخوارج: (لم يحاربهم الأمويون والحجاج، بسبب نظريتهم الإيمانية، بل بسبب الخطر الذي كانوا يهددون به

(٢٠٤) حسين مروة ١/٥١٥.

الدولة الأموية، بينما هم كانوا يحاربون خصومهم لنصرة العقيدة، وتأييداً للحق المظلوم والدين المضطهد..).

إن أصحاب العقائد السامية، هم الذين يقفون من عقائدهم مواقف سامية، لأنه لا يخامرهم أدنى شك في صحتها، لذلك فهم يندفعون لنصرتها بكل عزيمة وتصميم.

لماذا كان الخوارج الثورة الملعونة المرفوضة؟

ثم لماذا كانوا هم الكفرة الفجرة بإجماع المؤلفين؟

الجواب على هذين السؤالين، اللذين هما في الحقيقة، سؤال واحد، لا يحتاج إلى كبير عناء، فمواقفهم من الفئات الإسلامية الأخرى موقف عداء،بدأ بتكفير تلك الفئات، وانتهى بحمل السلاح في وجهها لتقويم ما رأوه اعوجاجاً وخروجاً عن سواء السبيل:

١ ــ الخروج على الإمام الجائر[٢٠٥]، وهو أحد الأسس التي قام عليها المذهب الخارجي وهو حق مفروض وواجب مطلوب الأداء، وقد مارس الخوارج هذا الحق وقاموا بهذا الواجب طيلة حياتهم

---

(٢٠٥) الملل والنحل للشهرستاني ١/١١٥ ومقالات الإسلاميين /٥٥ ومروج الذهب للمسعودي ٣/١٣٨.

السياسية، فكانوا بذلك خطراً حقيقياً يتهدد الحكام وأنظمة الحكم التي تعاقبت عليهم.

٢ ــ إن الفكر الثوري الانقلابي الذي حمله الخوارج، وحاولوا تحقيقه وتطبيقه كان ناقوس الخطر الأكبر، الذي ما فتىء رنينه يقلق الخلفاء ويقض مضاجعهم.

٣ ــ نظرية الخوارج الجمهورية في الحكم، واستماتتهم من أجل تحقيقها في الواقع العربي الإسلامي، كانت بمثابة الإنذار المرعب والدائم لأنظمة الحكم الملكية الوراثية التي عرفها العالم الإسلامي طيلة قرون كثيرة، هذه النظرية التي تهدد الأساس الذي تقوم عليه أنظمة الحكم، وتنذره بالانهيار، وتطارده بشبح الشورى.

٤ ــ إن صراحة الخوارج وجرأتهم في قول الحق، كانت تسبب إحراجات وإرباكات للخلفاء والأمراء الذين عاصروهم، سواء أكان ذلك في لقائهم بهم، أو في غيابهم، فهم ينطقون بالحقيقة الموجعة، ويقولون بألسنتهم كل ما في قلوبهم.

٥ ــ إن تطرف الخوارج في آرائهم، وتشددهم في أمر تطبيق الشريعة، وحمل الناس على التقيد بحرفية النصوص الدينية، دون

تساهل ولا تيسير، كان عاملاً منفّراً في زمن مال الناس فيه إلى التساهل والتهاون، وتعطيل حدود الدين، والتمتع بما أتاحته ظروف الحياة من شتى المتع، وجمع للمال وإنفاقه كما تشاء الأهواء، شجعت على ذلك أنظمة الحكم القائمة، وأعانت على إفساد الناس وشراء الضمائر، وساهمت في تفشّي المعاصي والمنكرات.

هذه المنطلقات، وغيرها مما عرف به الخوارج، كانت أسباباً لازمة وكافية، لإلصاق أشنع التهم، ومنها تهمة الكفر والمروق من الدين، تلك التهمة الموجعة القاتلة، في عصر تعتبر القيم الدينية هي أصل التقييم، مما ينفر الناس منهم، ويجعل محاربتهم والتخلص منهم، واجباً دينيّاً، وخدمة للمجتمع والإنسانية والأجيال القادمة.

إن فكر الخوارج الثوري خطر على الأنظمة المزورة، التي تتستَّر بالشرعية والدين وحماية المصالح العامة، وتدّعي أنها تحمي وتسهر للحفاظ على قيم الأمة ومقدساتها، وتزعم أنها توزع الحق والعدل والخير على الناس كافة، دون تمييز أو محاباة، وهي لم توزع في واقع الأمر، إلَّا الأموال العامة على الأعوان والأنصار.

إنها الثورة التي تكشف الزيف، وتعرّي الواقع، وتسمّي

الأشياء بأسمائها، وتشير بإصبع الاتهام والإنذار إلى مواطن الخطأ والظلم، لذا فإنها كانت ومازالت مرفوضة من كل أنواع الحكام الظالمين، والمتسلطين بالقوة والهيمنة العاتية، سواء في ذلك عالم الأمس، أم عالم اليوم، عالمنا العربي أو العالم الأوسع، ممن يتزيًّا بالديموقراطية والعدالة والتقدمية والثورية.

لتكن عدالة ولو فني العالم[٢٠٦] هذا مبدأ الخوارج في سعيهم لتحقيق أهدافهم، والهدف الكبير يستحق التضحية وبذل الغالي والرخيص، هذا منطق الثوار، لا منطق الإصلاحيين الذين يتخلون عن المبادىء مقابل السلامة والأمان، ويرضون من الغنيمة بالإياب، ويتبنّون المواقف التي تدعي المحافظة على الحضارة القائمة، وعدم تعريض المجتمع لويلات التغيير والتبديل، ونسف القيم السائدة، التي هي في الحقيقة، غير ذات مضمون، أو أن مضمونها كاذب مزور، وهذا الموقف المتخاذل، هو الوجه المقابل للثورة، والمعاكس لها، والذي انعكست عليه صور معظم فئات المسلمين. جاء في كتاب الخوارج والشيعة لفلهوزن: الإسلام المحافظ يضع الجماعة فوق كل شيء، ويفرض الطاعة للحكومة

---

(٢٠٦) الخوارج والشيعة، فلهوزن /٤٥ قال: (لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها).

والتوافق معها . أما الإسلام الثائر ، فهو يضع فكرة حكم اللّٰه ضد الحكومة القائمة ، يدعو الناس إلى قتال أمية وعمالها في سبيل اللّٰه، وإلى قتال الشر والقوة ، في سبيل الحق والعدل .(٢٠٧)

هذه هي الأسباب الحقيقية، لاستبعاد فكر الخوارج ومنطلقاتهم ، وبالتالي تكفيرهم وتسفيه آرائهم .

وطبيعي أن يسارع المؤلفون والكتاب ، لتلبية رغبات الحكام ، ماداموا صنائع لهم وأدوات في أيديهم ، فيطلقون على الخوارج وغير الخوارج ، مايرضي أولئك الحكام ، من تسميات وألقاب ، وتاريخ العرب تاريخ حكام ، لا علاقة له بالشعوب .

كان طبيعياً والحالة هذه أن يكون الخوارج ظاهرة مرفوضة مذمومة ، وأن يكونوا كفرة فجرة مارقين من الدين .. ألم يقولوا : (لا) للسلطان !.

أما ما جاء من أسباب شكلية لتكفير الخوارج ، وروايات سلفية ، فما كانت لتؤخذ بعين الاعتبار والتقدير ، لو لم تلاق هوىً في الفؤاد ، واستعداداً لتقبلها وإشاعتها بين الناس ، كم من أصل

(٢٠٧) الخوارج والشيعة /٢٩ــ ٣٢.

من أصول الدين، تم تجاهله؟ وكم من آية كريمة وحديث شريف، مرَّ على المسامع كأن لم يكن؟ فما بال الناس تمسكوا بحديث مرويّ عن النبي (ﷺ) لا يدري أحد مدى صحته، وأغفلوا حدود الدين وآلاف الآيات والأحاديث التي تثبت صحتها، وصحة نسبتها.

الحديث المروي عن رسول اللّه (ﷺ) بشأن تكفير الخوارج، يتعلق برجل سمّته كتب السيرة والتاريخ (ذا الخويصرة مرة، ومرة أخرى ذا الخنيصرة، ومرة ثالثة ذا الثدية، وسمته المُخَدَج. كذلك سمي عمراً وسمي حرقوصاً.. الخ) وقالت الرواية: إنه عارض رسول الله (ﷺ) في تقسيم غنائم خيبر، واتّهم عدالته، فحاول كبار الصحابة قتله، فلما لم يفلحوا قال رسول الله (ﷺ): «سيكون لهذا ولأصحابه نبأ». وفي رواية أخرى وإسناد آخر أن النبي (ﷺ) قال: «لو قتل هذا، ما اختلف اثنان في دين اللّه».

وفي رواية ثالثة أن هذا الرجل لم يعترض على قسمة الرسول لغنائم خيبر، بل على قسمته لغنائم من اليمن أرسلها علي بن أبي طالب، إذ قام ــ وهو مضطرب الخَلق، غائر العينين، ناتىء

الجبهة، فقال: لقد رأيتُ قسمةً ما أُريدَ بها وجهُ اللّٰه، فغضب رسول اللّٰه حتى تورد خداه، فقام إليه عمر بن الخطاب فقال: ألا أقتله يارسول اللّٰه؟ فقال (ﷺ): «إنه سيكون من ضئضيء[208] هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، تنظر في النصل فلا ترى شيئاً، وتنظر في الرِّصاف[209] فلا ترى شيئاً، وتمارى في الفوق[210]» ويروي أنه زاد في وصفهم فقال: «سيماهم التحليق[211] يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، علامتهم رجلٌ مخدج اليد[212]»[213]. وقد ذكرنا قصة المخدج، فيما مضى من هذا الكتاب، وأنه قتل في النهروان.

وقد اختلفت رواية الحديث فنقله فلهوزن عن الطبري[214] بالنص التالي: قال عمر بن الخطاب: يارسول اللّٰه!

---

(٢٠٨) ضئضيء: جنس.

(٢٠٩) الرِّصاف: عصب يشد على النصل.

(٢١٠) الفوق: مشق رأس السهم.

(٢١١) التحليق: تقصير الشعر.

(٢١٢) مخدج اليد: ناقصها.

(٢١٣) وردت الروايات على اختلافها في الكامل للمبرد: ٣٠ــ ٣١ــ ٥٧ــ ٥٨ــ ٥٩، وفي غيره من كتب السير والتاريخ.

(٢١٤) الخوارج والشيعة /٣٤.

ألا نقتله؟ فقال: «لا! دعوه، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه، كما يخرج السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في الفوق فلا يوجد شيء، سبق الفرث والدم» لقد نقل فلهوزن القصة، وقال: إن النبي كان يقسم غنائم يوم حنين، ثم قال: «وطبيعي أن هذه القصة عن هذا السلف القديم للخوارج، قصة أسطورية»[(٢١٥)] كما قال مترجم كتاب الخوارج والشيعة، عبد الرحمن بدوي عن الرجل موضوع القصة: إنه شخص مجهول تماماً، وقال أيضاً عنه: فهذا الخارجي القديم المجهول الاسم، يبدو إذن إنه صورة قديمة التاريخ[(٢١٦)].

هذه القصة، وهذا الحديث، على ما فيهما من ضعف واضطراب وتناقض، وما يظهر فيهما من لا منطقية ولا معقولية، تناقلهما الرواة والمؤلفون دون مناقشة ولا تمحيص، وتَمَسَّكَ بالحديثِ المرويّ من تَمَسَّكَ، لما فيه من خدمة لمصلحته.

سُمّي الخوارج (المارقة) واستمرت التسمية لاستمرار

(٢١٥) الخوارج والشيعة /٣٥ـ ٣٦.

(٢١٦) حاشية المترجم من كتاب الخوارج والشيعة /٣٥ـ ٣٦.

المصلحة فيها، والعرب سلفيّون تأخذ الأجيال عمن سبقها من غير تفكير فيما تأخذ أو تدع.

وإذا تجاوزنا موقف جيل الخوارج الأول من عليّ، وما حصل فيه من مغالطات، ومن سوء فهم وتفاهم، وما تبع ذلك من تعنُّت، كان سببه ذلك الموقفُ الصَّعْبُ المُرْبكُ الذي وُضعوا فيه: من رفع للمصاحف، واكتشاف الخدعة، وما يقتضيه الوضع من تحركٍ سريع، واتخاذِ قرارات عاجلةٍ حاسمة، ثم تراجع عن تلك القراراتِ، وتمسك كل فريقٍ بما رآه حقاً.

إذا تجاوزنا ذلك، وجدنا أن الخوارج، كانوا ذوي منطق سليم، وسلوكية فذة، وأخلاقية عالية، ونظرة مثالية إلى الأمور، وكانوا مثلاً أعلى في تديُّنهم، في موقفهم من الحكام، في سلوكهم الشخصي، وصدقهم مع أنفسهم، ومراقبتهم لتصرفاتهم، وحبهم لله وللآخرة، وزهدهم في الدنيا، ونظريتهم الجمهورية في الحكم.

كل ذلك يجعلهم ينفذون عبر غبار التاريخ وتضليله، مثلاً أعلى للثورة النقية النظيفة، وقدوة حسنة للثوار ضد الظلم والتسلط والقهر والتفاوت الطبقي والاقتصادي في كل المجتمعات.

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال يقول: لو أن الخوارج استطاعوا

تأسيس دولة مترامية الأطراف، وامبراطورية شاسعة الأرض، كالدولة الأموية أو العباسية، ثم أرادوا أن يسيّروا هذه الدولة وتلك الأمبراطورية، بمقتضى ما يحملون من مبادىء، ويطبقون عليها ما لديهم من برنامج عمل، هل كانوا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً؟ هل ينجحون فيما يريدون؟

بتعبير آخر: لو أتيح لدولة الخوارج أن تظهر إلى الوجود، وتتسلم مقاليد ومقدرات العالم الإسلامي، أكانت قادرة على تطبيق نظرياتها المثالية، وتحقيق مبادئها المتشددة في عالم الواقع البشري؟ والتعامل اليومي المباشر المعقد مع الأفراد والجماعات؟ هل كان بمقدورها أن تملأ الأرض حقاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً؟... هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه، لأنه بقي سراً في ضمير الغيب، ولكنَّ الذي نستطيع قوله: إن الدلائل كانت تشير إليه، وإن القوم كانوا جادّين بتنفيذ كل ما يقولون، وإن لحظات الاستقرار التي نعموا بها، كانت مؤشراً حسناً في هذا الاتجاه.. إن دولتهم لم تبزغ إلى عالم الواقع، وبقيت حلماً جميلاً يداعب خيال المتعطشين للحق والعدل.. وأجمل الأحلام ما لم يتحقق..

إن توجه الخوارج نحو تطبيق قيم السماء على الأرض،

وانصرافهم إلى تحقيق المجتمع الإسلامي الأمثل، الذي نسجته مخيلتهم، إن ذلك شغلهم عن التوجه نحو أمور هي من صميم ما يهم الدولة والأمة، كالإصلاح الاجتماعي، والتنمية الاقتصادية وتنشيط حركات الثقافة والعلم والعمران وغير ذلك. فلم يُؤْثَر عنهم طرازٌ عمرانيّ خاص بهم، ولم يخلّفوا أوابد حضارية مشهورة، كالقصور والمساجد التي بقيت تدل على بناتها، والسبب في ذلك كله، أنه لم يتح لهم أن يمتلكوا الأرض ويقيموا عليها دولتهم الموعودة، بل كانوا أشبه بحكومة في المنفى، أو إنهم شعب بلا أرض، أو مجموعات من اللاجئين النازحين لا يعرفون طعم الاستقرار.

وعلى الرغم من ذلك، فإنهم سجلوا تفوقاً في بعض المجالات، وتقدماً مشهوداً في بعض نواحي الحياة الاجتماعية والحضارية.

١ ــ فالمرأة في الخوارج ذات شأن مرموق، ظهر ذلك على ألسنة المنظّرين الأوائل للسياسة الخارجية، إذ أجازوا أن تتقلد الخلافة، شأنها في ذلك شأن الرجل، إذا توافرت لديها شروط الكفاءة المطلوبة، وهذا وحده كافٍ لأن يعطي المرأة نَفَساً جديداً، لم تكن

المرأة العربية لتعرفه من قبل، فالخلافة منصب ديني كبير، يجب أن يضطلع به الرجال العظماء الفقهاء في أمور دينهم، الأكفاء في أمور الإدارة والحرب والقيادة بشتى أشكالها، ومادام الباب مفتوحاً أمام المرأة الخارجية، فلابد أنها ستعدّ نفسها لجلائل الأمور، فكان بين نساء الخوارج الخطيبات يصعدن المنابر، ويبدين ضروباً من الخطابة يعجز عنها الرجال، ومنهن من تنازل الشجعان من الرجال متحدية الموت، ومنهن الأم التي تقدر رسالة الأمومة ومسؤولياتها، تعلم أبناءها أفانين القتال وترضعهم حليب العقيدة الخارجية، وفيهن الزوجة التي تأخذ بيد زوجها نحو بلوغ المآرب السامية، ومن نساء الخوارج الشاعرة والفقيهة، وغير ذلك مما كان للرجال سواء بسواء، على تفاوت في النسبة.

فقد نفذ إلينا من ظلام التاريخ، الشيء الكثير عن تلك النماذج النسائية الفريدة.

من أشهر نساء الخوارج غزالة، زوج شبيب بن يزيد الشيباني، فقد هرب الحجاج منها ومن زوجها، وتحصن بدار الإمارة بالكوفة، فدخلت غزالة مسجد الكوفة وصلّت فيه ركعتين ــ كانت قد نذرتهما على نفسها ــ قال عنها

المسعودي[٢١٧] وصاحب الأغاني[٢١٨]: كانت غزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وأرسل عبد الملك، حين بلغه هرب الحجاج وتحصنه بدار الإمارة بعساكر كثيرة، عليها سفيان بن الأبرد، لما هرب الحجاج من غزالة عيَّره بعض شعراء الخوارج (عمران بن حطان أو أسامة بن سفيان البجيلي) بقوله:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ
ربداءُ تنفرُ من صفير الصّافر
هلَّا برزتَ إلى غزالة في الضحى
أم كان قلبك في جناحَيْ طائرَ

ومن نسائهم أم حكيم، زوج القائد الخارجي قطري بن الفجاءة، والتي قال فيها:

لَعَمْرُكَ إني في الحياةِ لزاهد
وفي العيش مالم ألقَ أم حكيم
من الخفراتِ البيض لم يُرَ مثلُها
شفاءً لذي بثٍّ ولا لسقيم

(٢١٧) مروج الذهب ١٣٩/٣.
(٢١٨) الأغاني ١٥٠/١٦ والبيان والتبيين ٣٦٥/١.

وقد وصفتها الروايات بأنها: كانت من أشجع الناس، وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بدينها تمسُّكاً، أخبرَ من شاهَدَها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز، والخوارج يفدُّونها بالآباء والأمهات:

أحملُ رأساً قد سئمتُ حملَه   وقد مللتُ دَهْنَهُ وغَسْلَه
ألا فتىً يحملُ عني ثقلَه[219]

كما ذكرت كتب التاريخ والأدب اسم البلجاء أو البجَّاء أو النَّجاء، وهي امرأة من يربوع كانت تحرّض على ابن زياد، وتذكر تجبُّره وسوء سيرته، وكانت من المتهجِّدات، فذكرها ابن زياد، فقيل لها أن تتخفَّى، فرفضت أن يلقى أحدٌ مكروهاً بسببها، فقطع ابن زياد يديها ورجليها بسوق البصرة[220].

ولا ننسى أن فيهن الشاعرة المبدعة، تتقدم في هذا المضمار (الفارعة) أخت القائد الخارجي الذي ثار على الرشيد سنة ١٧٨ هـ في الجزيرة السورية، وقتله القائد العباسي يزيد بن مزيد الشيباني، ومما رثته فيه الفارعة قولها:[221]

(٢١٩) الكامل للمبرد ١٢٣ — وشرح نهج البلاغة ٥١٨/١.
(٢٢٠) الكامل في التاريخ، لابن الأثير ٥١٨/٣ والخوارج والشيعة /٦٦.
(٢٢١) شرح النهج ٥٩١/١، والبيان والتبيين /٣٤٢.

أيا شجرَ الخابور مالك مورقاً
كأنك لم تجزعْ على ابنِ طريفِ
فتىً لا يحبُّ الزادَ إلَّا من التُّقى
ولا المالَ إلَّا من قنىً وسيوف

وسنذكر في أدب الخوارج مزيداً من الإيضاحات عن هذه القصيدة وغيرها من شعر الفارعة.

وجاء في كتاب البيان والتبيين، تحت عنوان: (في باب ذكر النُّسَّاك والزُّهَّاد من أهل البيان). ومن نساء الخوارج: البلجاء، وغزالة، وقطام، وحمادة، وكحيلة.[222]

وقال الحجاج لامرأة من الخوارج: واللّٰه لأعُدَّنَّكم عدّاً، ولأحصُدَنَّكم حَصْداً، فقالت: أنت تحصد واللّٰه يزرع، فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق[223] وأُتي الحجاج بامرأة من الخوارج، وبحضرته يزيد بن أبي مسلم مولاه، — وكان يستسرّ برأي الخوارج — فكلَّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه، فقال لها يزيد بن أبي مسلم: الأميرُ ويلَكِ يكلّمكِ! فقالت: بل الويلُ واللّٰه لك

(٢٢٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/٣٦٥.

(٢٢٣) البيان والتبيين ٢/٣١٦.

يا فاسقُ الرِّدِّيُّ. والرِّدِّيُّ من الخوارج: هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكتمه[٢٢٤].

وبلغ من خوف ولاة بني أمية من نساء الخوارج، أن زياداً كان يقتل المرأة الخارجية ويعرّيها، فكان ذلك ما منع الكثيرات من نسائهم من الخروج[٢٢٥]

هذه الطائفة من أخبار نساء الخوارج، تبين مدى تقدم المرأة عندهم في مختلف مجالات الحياة.

ولا نستطيع الادعاء بأن عامة نساء الخوارج كن بنفس منزلة غزالة وأم حكيم والفارعة، وأمثالهن، وإذاً فنحن نحمّل المجتمع الخارجي فوق طاقته، ونحمّل المرحلة التاريخية التي نتحدث ضمن إطارها، فوق طاقتها أيضاً، لكن الملفت للنظر تلك النسبة المرتفعة من المتفوقات في نساء الخوارج، مما يدل على الوضع الخاص الذي امتازت به المرأة الخارجية، بالنسبة لزمانها، نتيجة لروح المساواة والديموقراطية التي كانت تسود تعامل الخوارج مع نسائهم.

وتظهر المرأة في أدب الخوارج، وبخاصة في شعرهم، امرأة

---

(٢٢٤) الكامل للمبرد /٦٧.

(٢٢٥) الخوارج والشيعة /٦٤ والكامل للمبرد /٧٩.

صارمة الجد، آخذة نفسها بالحشمة والوقار والتطلع إلى جلائل الأعمال، لا تولي كبير عناية لزينتها وتبرجها وتلبية نداء شبابها، بل إن اهتمامها متجه نحو أمور مغايرة تماماً، فهي تعجب بالمقاتل المتفاني في سبيل عقيدته، وتحب ــ إن أحبت ــ الرجل الذي نذر نفسه لله وللدين، لا يغريها الشباب اللاهي ولا المال والجاه وما إليهما من مظاهر الدنيا ومغرياتها، وكان الرجل الخارجي يتقرب إليها بما يبديه من استبسال في الحرب وفناء في العقيدة، لا بما يتصف به من رشاقة قدّ وبهاء وجه وأسرة ومال، لنستمع إلى ذلك الشاعر المقاتل(٢٢٦):

ليتَ الحرائــرَ بالعــراق شهدْنَنَــا
ورأيْنَنَـا بالسّفْــحِ ذي الأجْبَــالِ
فنكحْــنَ أهـلَ الجـدّ منْ فُرْسانِنــا
والضاربين جماجــمَ الأبطــالِ

تتطلع بإعجاب إلى الرجل العظيم، يقول القائد الخارجي الكبير، قطري بن الفجاءة، في أم حكيم (يوم دولاب)(٢٢٧):

(٢٢٦) هو رجل من سدوس اسمه المعنق أو المعتق (الكامل ــ ٢٠٣). وشرح النهج ٥٣٣/١.

(٢٢٧) شرح النهج ٦٠٥/١ والكامل للمبرد ١٢٣/٢ وتاريخ الشعر العربي للكفراوي ١٥٠/٢.

ولـــو شهـدَتْنــــا يومَ دولابَ أبصرتْ
طعـانَ فتـــىً في الحربِ غير ذميم
ولـــو شهدتْنـــا يومَ ذاكَ وخيـلُنــــا
تُبيــحُ من الكفَّــارِ كلَّ حَريم(٢٢٨)
رأتْ فتيــةً باعـوا الإلـه نفوسَهـــــمْ
بجنـــاتِ عدنٍ عنـــــدَهُ ونـــــعيم

ولابد أن يكون هؤلاء الشعراء يتقربون إلى المرأة التي يهتمون بها أو يحبونها، بما هو محبب لها أثير عندها.

وحتى الأم التي فقدت ابنها، فهي رابطة الجأش راسخة العقيدة، تتأهب للثأر والدفاع عن الدين، ولا يعنيها من أمر موت ابنها إلا ما يعنيه ذلك الموت بالنسبة للقضية الخارجية، تأييداً لها وخذلاناً لأعدائها. وستكون تلك الأم أكثر رضىً وقبولاً إذا كان ابنها قد قضى في حرب عن حسن بلائه فيها، تقول أم عمران بن الحارث في رثاء ابنها:(٢٢٩)

(٢٢٨) المقصود (بالكفار) أعداء الخوارج من المسلمين.
(٢٢٩) الكامل: ١٢١/١ ــ وشرح النهج ٦٠٥/١ ــ وشعر الخوارج /٤٠.

اللّٰهُ أيَّـد عـمـرانـاً وطـهَّـرَهُ
وكان عمرانُ يدعو اللّٰهَ في السَّحَرِ
يدعوه سرّاً وإعلاناً ليرزقَهُ
شهادةً بيدَيْ ملحادةٍ غدر
ولّى صحابتُه في حرّ ملحمةٍ
وشدَّ عمرانُ كالضِّرغامةِ الهصر

وأذكر أخيراً، مريم (الجعيداء) زوج الزعيم الخارجي الذي اشتهر بالخطابة والشجاعة، وهو أبو حمزة الخارجي، كانت تقاتل مع زوجها، وقد قتلت معه وهي ترتجز وتقول:(٢٣٠)

أنا الجعيداءُ وبنتُ الأعلمْ   من سأل عن اسمي فاسمي مريمْ
بعتُ سواري بسيفٍ مخذمْ(٢٣١)

٢ ـ وإذا أردنا إضاءة بعض الجوانب التي تنفع في مجال الإحاطة بأحوال الخوارج، فإن المفيد إجراء بعض المقارنات العابرة، بينهم وبين بعض الفرق الإسلامية التي لعبت دوراً هاماً في تفكير الأمة العربية وثقافتها، وعلى الأخص فرقة المعتزلة، دون ما إضافة أو تعمق

(٢٣٠) الأغاني ٢٠/١٠٩.
(٢٣١) مخذم: أي قاطع.

يجعلان من المقارنة موضوعاً قائماً بذاته، لأن الإطالة في هذه المقارنات عملية عسيرة من جهة، وطويلة من جهة أخرى، وقد آثرت أن أشير إلى علاقتهم بالمعتزلة، تأثراً وتأثيراً، سلباً وإيجاباً، مما وقع تحت علمي وبغاية الاختصار.

فالمعتزلة، تلك الفرقة المثقفة التي لعبت دوراً هاماً في الفكر العربي الإسلامي، والتي حمّلت نفسها مسؤولية التنظير للأمة، في كل أمور دينها ودنياها، كانت ترى أن مهمتها تنتهي عند تبيان ما يصح ومالا يصح، ما يجوز ومالا يجوز، دون تحريك ساكن من أجل إحقاق حق، أو إبطال باطل، وبذلك ضمن المعتزلة بقاءهم، وضمنوا أكثر من ذلك، حماية الدولة لهم وتبنيها لآرائهم (كما كانت الحال في عهد المأمون العباسي).

لم يكن المعتزلة مصدر إقلاق أو إزعاج للحاكم الأموي أو العباسي، ما داموا لم يحملوا سلاحاً، ولم يعلنوا تمرداً بالقول أو بالفعل، ولاشك أن لديهم بعض الآراء التي لم ترق حكام بني أمية بشكل خاص، وبعض حكام بني العباس، ولكن أمور الخلاف لم تصل إلى الحد الذي فكر الحكام معه، بالقضاء عليهم أو بمقاطعة فكرهم وفلسفتهم.

وهكذا فقد نعم المعتزلة بالاستقرار والهدوء والتشجيع والحماية، ثم التبني من الدولة، مما لم يتح مثله ولا ما يقاربه، للخوارج..

آ ــ فمن حيث النشأة، لا بد أن يكون الخوارج أسبق في الظهور، على مسرح الحياة العامة، والواقع السياسي والاجتماعي والديني والفكري.

كانت نشأة الخوارج (الرسمية) في معركة صفين سنة سبع وثلاثين للهجرة، وولد معهم فكرهم السياسي والديني كشعارات نادوا بها (لا حكم إلا للهـ كفروا مرتكب الكبيرة) إلى غير ذلك من أفكار استقرت صورها في أذهانهم كمبادىء اتخذوها دليل عمل لهم.

بينما ظهر المعتزلة في أوائل القرن الهجري الثاني، ظهوراً أوليّاً، بَشَّرَ به شيخُهمْ الحسنُ البصريُّ، في حلقتِهِ بالبصرة (توفي سنة ١١٠ هـ)وقد اعتزل حلقَته، واصلُ بن عطاء، فأسَّسَ هو وعمرو بن عبيد مدرسة الاعتزال، فإذا علمنا أن مولد الرجلين ووفاتهما كانت على الشكل التالي (عمرو بن عبيد: ٨٠ هـ ــ ١٤٤ هـ) و (واصل بن عطاء

٨٠ هـ ــ ١٣١ هـ)[٢٣٢] وإذا كان ليس من الممكن أن يؤسسا مذهب الاعتزال قبل بلوغهما العشرين، فيصبح من المسلَّم به أن القرن الهجري الثاني كان بداية ظهور الاعتزال.

ثم إن الوجود القوي والحقيقي لمذهب الاعتزال، كان بين ١٠٠ هـ ــ ٢٥٥ هـ)[٢٣٣] بينما كان وجود الخوارج قبل هذا التاريخ وبعده.

ب ــ كان الحسن البصري يرى رأي الخوارج في تخطئة علي بقبوله التحكيم، «كان إذا جلس فتمكَّن من مجلسه، ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثاً، ولعن قتلته ثلاثاً، ويقول: لو لم نلعنْهم لَلُعِنّا، ثم يذكر عليّاً فيقول: لم يزل أمير المؤمنين علي ــ رحمه اللّه ــ يتعرف النصر ويساعده الظفر، حتى حكَّم، فلمَ تحكّم والحقُّ معك؟ ألا تمضي قدماً ــ لا أبالك ــ وأنت على الحق!»[٢٣٤]

ويروي المؤرخون هذه القصة عن ظهور المعتزلة[٢٣٥]:

---

(٢٣٢) المعتزلة لزهدي جار اللّه /١٢.

(٢٣٣) ضحى الإسلام ٩٠/٣.

(٢٣٤) الكامل للمبرد /٥٣ ــ ٥٤ وفجر الإسلام: ٢٦١.

(٢٣٥) المعتزلة: ١٧.

دخل أحدهم على الحسن البصري وهو يدرّس في مسجد البصرة فقال: ياإمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج عن الملّة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟.

ففكر الحسن وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لاأقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وترك حلقة الحسن البصري، فقال: اعتزلنا واصل.

جـ ــ لقد أشار المؤلفون إلى الصلة المبكرة بين الخوارج والمعتزلة، فقال فلهوزن[٢٣٦] ما معناه: كما أن الخوارج انفصلوا عن تربة الشيعة، فإن المعتزلة خرجوا من أحضان الخوارج، وذلك بأخذهم لمسألة مرتكب الكبيرة، التي بدأ الخوارج حياتهم بها وسجلوا

---

(٢٣٦) الخوارج والشيعة /٣٨ (مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨).

موقفهم في المجتمع الإسلامي على أساسها، فكفَّروا عثمان وعليّاً والحكمين ومَنْ قَبِلَ التحكيم.. الخ..

وتؤكد الكتب أن شيخَيْ المعتزلة الكبيرين: واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد كانا يوافقان الخوارج في كبرى مسائلهم النظرية، وهي مسألة تخليد مرتكب الكبيرة في النار، وكان الناس في تلك الأيام ينظرون لهما نظرتهم إلى الخوارج فيكفرونهما ويبرؤون منهما، كما يكفرون الخوارج ويبرؤون منهم سواء بسواء، قال اسحاق بن سويد العدوي الفقيه:(٢٣٧)

برئت من الخوارج لستُ منهمْ
من الغزَّال منهم وابن بابِ(٢٣٨)
ومن قومٍ إذا ذكروا عليّاً
يردّون السلامَ على السَّحابِ

د ـ أكد بعضهم نسبة المعتزلة إلى الخوارج، وأسموهم (مخانيث الخوارج)(٢٣٩) وواضح أن هذه التسمية تشير إلى الاعتدال

(٢٣٧) مروج الذهب ٢٢/٦ ـ والكامل /٢ ٣٢ والمعتزلة: ٩

(٢٣٨) الغزَّال: هو واصل بن عطاء، سمي بذلك لأنه كان يلترم الغزَّالين، ابن باب: عمرو بن عبيد.

(٢٣٩) كتاب المعتزلة /٩ .

والمسالمة والملاينة التي اتصف بها المعتزلة ، قياساً بالخشونة والقسوة والطبيعة القتالية المعارضة التي اتصف بها الخوارج ، أو أنها تشير إلى موقف كل من الفريقين من قضية بعينها ، كقضية مرتكب الكبيرة ، فبينما يجعله الخوارج خالداً في النار ، يخفف عليه المعتزلة قسوة الحكم فهو في منزلة وسط بين الكفر والإيمان ، أو أنها تشير إلى موقف الطرفين من مجموعة من القضايا ، حيث يأخذ الخوارج جانب التشدد والتضييق ، ويأخذ المعتزلة جانب التساهل والتيسير .

هـ ــ أشار بعض المؤلفين إلى أن أئمة الاعتزال الأوائل من علماء الكلام ، قد تأثروا بالخوارج ، وأن الخوارج شاركوا في وضع الزندقة النظرية ــ أي علم الكلام ــ[٢٤٠] وبهذا يكون المعتزلة مدينين للخوارج بكليّات مذهبهم ، بدءاً من المقولة الكبرى (مرتكب الكبيرة) وانتهاءً بأهم منهج استعمله المعتزلة في علومهم وهو علم الكلام ، وإذا كان الخوارج قد خلّدوا مرتكب الكبيرة في النار واستقرّوا على هذا القرار ، فإن المعتزلة حملوا الفكرة وقلّبوها على وجوهها وسلّطوا عليها أشعة العقل والمنطق وغيرهما من وسائلهم

(٢٤٠) الخوارج والشيعة /٣٨ــ ٤٦ .

المعروفة، فاكتفوا بتحييده آخر الأمر ووضعه في منزلة ثالثة، وفي هذا ممالأة وإرضاء للكثيرين من الحكام والمحكومين على السواء، وفيه انسجام مع الطبيعة المسالمة للمعتزلة[٢٤١].

و ــ كان أقصى تطرّف عند المعتزلة في موقفهم من السلطان الجائر، وخروجهم عليه، عند الإمكان والقدرة، أي إذا أمكنهم ذلك وقدروا عليه[٢٤٢] وكانت نظرتهم إلى خلفاء بني أمية، كنظرة الخوارج، وهي أنهم ليسوا ولاة حق، والذي أقعدهم عن الخروج زمن معاوية ويزيد وغيرهما، كما أقعد الصحابة والتابعين، عجزهم عن إزالتهم ولقهر بني أمية لهم بطعام أهل الشام[٢٤٣] و ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، وهكذا فإن مذهبهم، أنه لا يصح الخروج إلا عند غلبة الظن بنجاح الثورة.

بينما كان الخوارج خارجين ثائرين على السلطان الجائر، قدروا على ذلك أم لم يقدروا، ويضيفون إلى ذلك أن الخروج على

---

(٢٤١) الكبائر (مع بعض الاختلاف): هي: الشرك ــ قتل النفس ــ الزنا ــ عقوق الوالدين ــ شهادة الزور ــ السحر ــ أكل مال اليتيم ــ أكل الربا ــ التولّي عن الزحف ــ قذف المحصنات.

(٢٤٢) مقالات الإسلاميين ٢/٤٦٦ وضحى الإسلام ٣/٦٦.

(٢٤٣) ضحى الإسلام ٣/٨٠ وشرح النهج.

السلطان الجائر، واجب فرديّ، وفرض عين، لا ينوب فيه أحد عن أحد، كما أنهم لم يحكّموا العقل ـــ شأن المعتزلة ـــ في هذا الخروج وهذا القتال، وهل يوصلان إلى الهدف المنشود أم لا يوصلان، المهم أنهم خرجوا على الظلم وقالوا: (لا) للطغيان، ولتكن بعد ذلك ما تكون النتيجة..![244]

ز ـــ يرى عامة المعتزلة أنه لا بد للمسلمين من إمام ينفّذ أحكامهم، ويقيم حدودهم ويعبّىء جيوشهم، ويقسّم غنائمهم.. الخ ويرى القليل منهم الاستغناء عن الإمام (كأبي بكر الأصم، وهشام القوطي)[245].

بينما يرى الخوارج أن الإمامة غير واجبة فإذا استطاع جمهور المسلمين أن يتعادل ويتناصر ويتعاون على البر والتقوى، وينشغل كل مكلف بواجبه استغنوا عن الإمام.

ح ـــ حديث (الأئمة من قريش) قبل به بعض المعتزلة، ورفضه بعضهم الآخر إذ أخضعوه لمقاييس المنطق والعقل فلم يثبت أمامها، كما أنهم قالوا: إنه غير متواتر، ولو كان متواتراً صحيحاً لما

---

(٢٤٤) ضحى الإسلام ٦٧/٣.

(٢٤٥) ضحى الإسلام ٧٦/٣.

ادعت الأنصار مشاركة المهاجرين في الخلافة، وقد بالغ بعض المعتزلة في ذلك حتى قالوا: «إذا استوى الحال في القرشي والعجميّ، فالعجميّ أولى بها، والمولى أولى بها من الصميم»[٢٤٦] وربما قصدوا بذلك ألا يكون للخليفة عشيرة تنصره وتدافع عنه، إذا أريد استبداله أو عزله، في حال فساده أو خروجه عن جادة الصواب.

ولئن أنكر الخوارج بعض الأحاديث غير المتواترة كحديث (الأئمة من قريش)، فإن المعتزلة كانوا أكثر إنكاراً، إذ كانوا يعرضون الأحاديث على العقل، فما أجازه أثبتوه، وما لم يجز نفوه.

ومما أنكروا من الأحاديث: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، لا تُضامون في رؤيته» وأنكروا حديث «لا تسبّوا الريح فإنها من نَفَس الرحمن»..الخ[٢٤٧]

ط ــ كان اهتمام المعتزلة بأمر الخوارج كبيراً، يتسقَّطون أخبارهم، ويتعرفون منطلقاتهم النظرية ويناقشونها فيما يناقشون، وقد أفادوا منها الكثير وكانوا على علم بسلوكهم ومجمل آرائهم، فلما وقع شيخ

(٢٤٦، ٢٤٧) ضحى الإسلام ٣/٨٥ ــ ٨٦.

المعتزلة الأكبر واصل بن عطاء بأيديهم في رفقة له، تولى محاورتهم نيابةً عن رفقته، فادَّعى أنهم مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام اللّه ويفهموا حدوده، وذلك لعلم واصل أن الخوارج يجيرون المشرك المستجير ويبلغونه مأمنه، بينما يقتلون المسلم المخالف لهم[248] وكان لواصل ماأراد من النجاة.

ي ــ بالغ المعتزلة في استعمال العقل، وأخضعوا كل شيء لأحكامه وسلطانه، كما استعملوا الجدل والمنطق سبيلاً للمعرفة، فأصبح الدين عندهم مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية، مما أفقده البساطة والحرارة، وجعله كالمسائل الرياضية، بعيداً عن الشعور الحسي، والعاطفة الموحية..

أما الخوارج فقد أبقوا الدين على فطرته وأخذوا بظاهر نصوصه دون تفلسف أو جدل، كانوا يؤمنون بقلوبهم لا بعقولهم فحافظ بذلك الدين والتّدَيُّنُ عندهم على روحانيتهما وحميميَّتهما، وحرارةُ الإيمان وحيويتُه، أمران لازمان لعلاقة العبد بربه. وعلى هذا أمكن القول: إن نظام المعتزلة جيد التفكير ضعيف الروح، غلا في تقدير العقل، وقصر في تقدير العاطفة، وكان نظام الخوارج على

---

(٢٤٨) الكامل للمبرد /٨.

عكس ذلك تماماً، أولى العاطفة وحرارة الإيمان أكثر مما أولى العقل والمنطق.

ك ــ حتى إذا وصلنا إلى رأي الفرقتين ببعضهما ونظرة كل منهما إلى الأخرى، وجدنا أن التّكفير المتبادل هو ناظم العلاقة بينهما، وذلك على الرغم من نقاط الالتقاء وأخذهما الواحدة عن الأخرى بعضاً من آرائها ومعتقداتها.

فالخوارج يكفّرون مخالفيهم من المسلمين، ويعتبرون الدار دار كفر ولابد من تجريد السلاح لإعادة الدين الغائب، وكان طبيعياً أن يكون المعتزلة ممن يكفّرهم الخوارج، ويعتبرونهم من قَعَد المسلمين يتكلمون كثيراً ويعرفون كثيراً، ولكنهم قاعدون ساكتون قابلون بالواقع الذي يعتقدون فساده، فهم أشد كفراً لأنهم لا يقرنون العقيدة بالعمل والكفاح.

وكذلك فإن المعتزلة يكفّرون الخوارج، نأخذ هذا الرأي عن لسان أحد كبار مؤلفي المعتزلة وهو عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد، شارح نهج البلاغة، قال:[٢٤٩] «وأما الخوارج فإنهم

---

(٢٤٩) شرح نهج البلاغة ٤/١.

مرقوا عن الدين بالخبر النبوي المجمع عليه، ولا يختلف أصحابنا[٢٥٠] في أنهم من أهل النار. وجملة الأمر أن أصحابنا يحكمون بالنار لكل فاسق مات على فسقه، ولا ريب في أن الباغي على الإمام الحق، والخارج عليه بشبهة أو بغير شبهة فاسق، وليس هذا مما يخصون به عليّاً عليه السلام، فلو خرج قوم من المسلمين على غيره من أئمة العدل لكان حكمهم حكم من خرج على عليّ عليه السلام».

وقد ورد تكفير المعتزلة للخوارج في كثير من الكتب، منها ما جاء على لسان الشاعر بشار بن برد في هجائه لواصل بن عطاء وتحميل أصحابه المعتزلة تبعة تكفير الخوارج لأنهم كفَّروا علي بن أبي طالب يقول بشار في واصل[٢٥١]:

مالي أشايع غزَّالاً له عُنُقٌ
كنقنق الدَّوِّ إن ولّى وإنْ مثلا[٢٥٢]
عنق الزرافة ما بالي وبالكمُ
أتكفرون رجالاً كفَّروا رجلا؟

---

(٢٥٠) أصحابنا: يقصد المعتزلة.

(٢٥١) البيان والتبيين ١/٢٤ والكامل للمبرد /٣٣.

(٢٥٢) الغزّال: لقب واصل بن عطاء ـ النقنق: ذكر النعام ـ الدّوّ: البرية، الفلاة.

وإنَّ بشاراً لا يقصد في الحقيقة الدفاع عن الخوارج، ولكنه يقصد الإساءة إلى واصل بن عطاء والحط من شأنه.

ل ــ وكما أفاد أئمة المعتزلة الأوائل من آراء الخوارج وطوروا بعضها بما يلائم طبائعهم، فإن الخوارج، بعد أن تراخى بهم الزمن، واستقر منهم منْ استقر، أخذوا عن المعتزلة بعض الأمور، وكان دلك للإباضية، وقد عاشت هذه الفرقة واستقرت في شمالي افريقية، وفي عمان وحضرموت وزنجبار، فكان من الطبيعي أن يكون لهم أصول اعتقادية، وتعاليم فقهية، وكذلك فقد تعدَّل مذهبهم مع الزمان، فلهم أصول كلامية متأثرة إلى حد كبير بمذهب المعتزلة في القول بخلق القرآن وأن الله لا يُرى في الجنة وأنه لا يغفر الكبائر[٢٥٣].

وتروي بعض الكتب عن بعض فرق الخوارج، أنهم بحثوا في القدر، خيره وشره، وإثبات الفعل للعبد، وإثبات الاستطاعة قبل الفعل، ونحو ذلك ولكن هذه المباحث لم تكن من عندهم، وإنما استعاروها من المعتزلة[٢٥٤].

---

(٢٥٣) ضحى الإسلام ٣/٣٣٦ــ ٣٣٧.

(٢٥٤) ضحى الإسلام ٣/٣٣٤.

م ــ على أن مسألة خلق القرآن ــ وهي من كبريات مقولات المعتزلة ــ لا يبدو واضحاً مَنْ مِن الطرفين أخذها عن الآخر، الخوارج أم المعتزلة؟ والخوارج ــ كالمعتزلة ــ يقولون بخلق القرآن بكل طوائفهم[٢٥٥] وإن كان المرجح أن يكون الأسبق في النشأة، أسبق إلى تبلور الآراء، وتكوين المذاهب والمعتقدات.

ن ــ بقيت كلمة لا بد من قولها في هذا المجال: لقد أُتيح للمعتزلة من الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية، ما بوَّأهم مكانةً عالية في تاريخ الفكر العربي، فقد وجهوا دفة الثقافة العربية والفلسفة العربية، مدة تزيد على قرنٍ ونصف من الزمن، أعملوا خلالها العقل والمنطق في مختلف مجالات العلم المعروف آنذاك، فكانوا فكراً نافذاً وعقلاً حرّاً، وظاهرة حيوية في جسم الأمة.

ولم يُتحْ للخوارج من الاستقرار والتشجيع والحماية التي وصلت حد التّبني، ــ تبنّي الدولة لآرائهم ــ ما سمح لهم بتناول الموضوعات الفكرية والأخذ بدفة الثقافة وتحريكها بأي اتجاه، والإلمام بالفلسفة وأمور الدين وعلم الكلام وغير ذلك، فالخوارج المشرّدون الملاحقون الخارجون على القانون، ليس لديهم متسع

---

(٢٥٥) مقالات الإسلاميين للأشعري ١٨٩/١.

للبحث في الأمور الكبرى، كخلق القرآن، والقضاء والقدر وفي صفات الله، هل هي عين الذات أو غيرها، وأن الله يُرى بالأبصار أو لا يُرى، إلى آخر هذه المسائل، التي هي نظرات فلسفية، أبعد ما تكون عن طبيعة الخوارج البسيطة البدوية، والتي تتطلب ترفاً فكريّاً واسترخاءً ذهنيّاً وأمناً واستقراراً، لهذا لم يخلّف الخوارج تراثاً فكرياً غنياً ومؤلفاتٍ في أنواع العلوم المختلفة كما فعل المعتزلة. أو غيرهم ممن سمحت لهم ظروفهم في البحث والتأليف.

ومع ذلك كله فإن أقلام المعتزلة لاتبدو ــ لدى المقارنة ــ أطول من سيوف الخوارج، وان فكرهم النافذ وآراءهم النظرية، ليست أعظم من ثورات الخوراج العملية وحملهم السلاح في وجه الظلم والطغيان، وجميل هنا أن أسجل هذه العبارة التي ختم بها قطري بن الفجاءة، كتاباً أرسله إلى الحجاج: «فوالذي نفس قطريٍّ بيده، لعلمت أن مقارعة الأبطال، ليست كتصدير المقال»[٢٥٦].

٣ ــ إن علاقة الخوارج ببقية الفرق الإسلامية، لا تثير نفس الاهتمام الذي تثيره علاقتهم بالمعتزلة، فقد رأينا ما كان بين الفرقتين

---

(٢٥٦) البيان والتبيين ٢/٣١٠ ــ ٣١١.

من لقاء مبكر وأخذ متبادل، الواحدة عن الأخرى، ــ وبخاصة في مسألة مرتكب الكبيرة ــ فإذا وضعنا رأي المرجئة مثلاً موضوع مقايسة في هذه المسألة، بدا لنا البون شاسعاً بين الفريقين، فبينما يقف الخوارج على أقصى اليسار من كل الفرق يقع المرجئة على يمين المعتزلة، فهم لا يكفّرون أحداً ولا يحمّلون أنفسهم مسؤولية شيء من قضايا الأمة، بل يرجئون ذلك كله، ويوكلون أمره إلى الله. الخوارج والمعتزلة يشترطان الإتيان بالطاعات، ويعتبران الأعمال جزءاً من الإيمان، جعلت الخوارج مرتكب الكبيرة كافراً، وجعلته المعتزلة لا مؤمناً ولا كافراً (منزلة بين المنزلتين)، بينما جعلته المرجئة مؤمناً، لأن المرجئة تعتبر الإيمان تصديقاً بالقلب ــ وهذا أساس الإرجاء ــ[٢٥٧] فالمصدّق بقلبه مؤمن، ولو أظهر أي معتقد.

لقد عدَّ المرجئة كل الفرق الأخرى، من شيعة وخوارج ومعتزلة، مؤمنين ما داموا قد صدّقوا بقلوبهم[٢٥٨]، وهم بذلك بعيدون عن الخوارج كل البعد مسالمون مهادنون أكثر من المعتزلة، وبالتالي فإن مقارنتهم التفصيلية بالخوارج لا تأتي بكبير فائدة.

---

(٢٥٧) ضحى الإسلام ٣/٣١٦.

(٢٥٨) ضحى الإسلام ٣/٣١٦.

كذلك فإن مقارنة الخوارج بالشيعة أو غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، فضلاً عن أنها متاهة يصعب الخروج منها، طويلة لا يدرك آخرها، فإنها ليست ذات غَناء في مجال بحثنا.

٤ ـ وأمّا عن علاقة الخوارج بآل المهلب بن أبي صفرة، فإنها علاقة من نوع آخر، فريدة من نوعها في دنيا العلاقات بين الأفراد والجماعات، كتبت صفحاتها بالدم والنار والحديد طيلة قرنين من الزمن، فقد توارث آل المهلب حرب الخوارج، وطاردوهم فوق كل أرض وتحت كل سماء، في أطراف المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً، وألجؤوهم إلى شعاب الجبال وأطراف الصحراء، وكتب التاريخ مليئة بأخبارهم معهم.

لقد أنجبت أسرة المهلب عدداً من القادة البارزين في مجال الحرب والسياسة، وبلغ بعضهم من الجاه والمنزلة، أن الشعراء وقفوا على أبوابهم، ومدحوهم ونالوا جوائزهم، ووصل بعضهم إلى منصب الإمارة.

ولكن شهرة آل المهلب، ومكانتهم في التاريخ العربي، ومجدهم السياسي والعسكري، قامت كلها على محاربتهم للخوارج والدور الذي لعبوه في ردّ سيوفهم عن وجوه بني أمية وبني العباس،

فقد كانوا أداة قمع استعملها عبد اللّه بن الزبير، طيلة حكمه في الحجاز، ولما سقط ابن الزبير على يد بني أمية، نقل آل المهلب ولاءهم إلى الحاكم الجديد ــ عدو ابن الزبير وقاتله ــ فقاموا بنفس الدور القمعي ضد الخوارج، لصالح بني أمية وولاتهم في العراق. والمتتبع لهذا الجانب من التاريخ يجد أن بعض قادة آل المهلب قاموا بملاحقة الخوارج لصالح بني العباس في شمال افريقية، فكأنما أصبح لديهم نوع من التخصص في حربهم، عرفه الحكام فوظّفوهم لهذه المهمة الصعبة، أو كأنهم قَدرُهُمْ الذي لاحَقَهم هذه الحقبة الطويلة من الزمن.

فلماذا حارب آل المهلب؟ ولماذا حارب الخوارج؟ وماذا قال التاريخ؟

أجَّر آل المهلب سيوفَهم لأنواع من الحكم مختلفة ومتعادية، تقرُّباً وتكسُّباً، فلم ينظروا إلى وجه الحاكم، بل نظروا إلى ما في يده، فحاربوا بنوع من الارتزاق أو الاحتراف، لمصلحة من يدفع الأجر، دونما قضية يدافعون عنها، أو هدف يرمون إليه، وحارب الخوارج دفاعاً عمَّا رأوه حقاً ضائعاً ونصرة لأكبر قضية تهم الأمة وهي الشورى والديموقراطية والعدالة وغيرها، وتكسَّرت

سيوف الطرفين وإنها لملاحم رهيبة دارت بينهما ملأت أخبارها صفحات التاريخ، وقيل فيها الشعر والخطب وتزيَّد فيها المتزيِّدون خدمةً للحاكم القائم، فكان نصيب آل المهلب من التاريخ، أن ذكرهم بمزيد من التمجيد والإعزاز والإعجاب وحسن الثناء، واعتبرهم مفخرة من مفاخر هذه الأمة، وباء الخوارج بالخزي والمذلة والعار.

أي تاريخ هذا الذي يمجّد سيوف آل المهلب المأجورة إلى كل أنواع الحكّام؟ والتي حاربت بلا هدف ولا قضية؟ ويلعن سيوف الخوارج، التي أشهرت في وجه الظلم والطغيان، ووقفت إلى جانب الحق والعدل والديموقراطية؟.

والقصة الطريفة التالية، توضح الجانب الذي أردنا إيضاحه من علاقة الخوارج بآل المهلب:

روى الطبري [٢٥٩] وابن الأثير [٢٦٠] وفلهوزن [٢٦١]: أنه لما قتل مصعب بن الزبير من قبل عبد الملك بن مروان، في معركة

---

(٢٥٩) الطبري ٢/٧٥٣ – ٨٢١.

(٢٦٠) ابن الأثير ٤/٢٧٣.

(٢٦١) الخوارج والشيعة /٩٦ – ٩٧.

مسكن، علم الخوارج بمقتله قبل أهل البصرة والمهلب بن أبي صفرة وأصحابه، الذين كانوا يحاربون الخوارج آنذاك لصالح ابن الزبير، فاستغل الخوارج هذه الفرصة ليفضحوا انعدام الرأي السياسي الملتزم عند المهلب وأصحابه وأهل البصرة، فتواقف الخوارج على الخندق، ونادوا أهل البصرة: «ما تقولون في مصعب؟» قالوا: «إمام هدى وهو ولينا في الدنيا والآخرة، ونحن أولياؤه». قالوا: «فما قولكم في عبد الملك؟» قالوا: «ذاك ابن اللعين، نحن إلى الله منه براءة، هو عندنا أحلُّ دماً منكم» قالوا: «فإن عبد الملك قتل مصعباً ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك إمامكم وأنتم الآن تتبرؤون منه وتلعنون أباه» قالوا: «كذبتم ياأعداء الله!» فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب. فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان، وقد صدق الأزارقة في تقديرهم لحقيقة خصومهم.

٥ ــ ولدى الإشارة إلى موقفهم من العصبية القبلية وتركيبهم القبلي والطبقي، فلابد من تأكيد ماذكرناه سابقاً في تضاعيف هذه الدراسة، من أنهم كانوا أقلَّ اهتماماً بقرابات الدم والأنساب، وقد استطاعوا ــ كما لم يستطع غيرهم من المسلمين ــ إحلال العقيدة محل القرابة، فانتزعوا أنفسهم من أسرهم وقبائلهم، وقبلوا في

صفوفهم كل منتسب إلى مذهبهم دون النظر إلى عشيرته، ولم يكونوا في جملتهم ينتسبون إلى أمهات القبائل العربية كقريش وثقيف[٢٦٢] وغيرهما، وغالبية انتسابهم كانت إلى قبائل أقل أهمية وشهرة، وهذا يؤكد الجاذبية الثورية التي حملت إليهم المظلومين والمتعطشين إلى العدل من كل القبائل..

ليس لدينا معلومات دقيقة إلا عن قبائل بعض زعمائهم فمنهم من تميم: حرقوص بن زهير ـــ عروة بن أدية وأخوه بلال ـــ مسعر بن فدكي ـــ شبث بن ربيعي والمستورد وهلال بن علفة.

ومن المضريين: فروة بن نوفل الأشجعي ـــ شريح بن أبيّ ـــ وعبد الله بن شجرة السلمي ـــ وحمزة بن سنان الأسدي...

ومن الطائيين: زيد بن الحسين ـــ معاذ بن جوين ـــ طرفة ابن عدي بن حاتم.

ومن اليمانيين: يزيد بن قيس الأرحبي ـــ وابن وهب الراسبي ـــ وابن ملجم المرادي[٢٦٣] ومن الملفت للنظر أن يتخلى

---

(٢٦٢) فلهوزن: ١٨ ـــ و ٣٤.

(٢٦٣) نفس المرجع والصفحة.

الخوارج في ذلك التاريخ المبكر، عن عصبياتهم القبلية في وقت كانت تلك العصبيات هي الناظم لعلاقات المجتمع العربي.

يقول الدكتور إحسان النص[٢٦٤]: «أفلحت المذاهب الدينية إذن في تصديع كثير من القبائل وفي إيجاد عقيدة روحية جديدة يستوحيها العربي في سلوكه، وكثيراً ما كان التعارض يقع بينها وبين عصبيته لجماعته، وحينئذٍ تغدو نفس العربي مسرحاً لصراع عنيف بين هاتين النزعتين تكون الغلبة فيه للنزعة التي لها السلطان الأقوى في نفسه. فالخوارج مثلاً كان مسلكهم مستوحى في المرتبة الأولى من عقيدتهم لا من عصبيتهم» واستشهد على ذلك بأمثلة منها[٢٦٥]:

حين استنصر مالك بن مسمع، نافع بن الأزرق الحنفي إبان فتنة مسعود علي بني تميم، أبى نافع أن ينصره تلبية لداعي العصبية، إذ إن أهل البصرة كانوا في نظره سواء، وكلهم له أعداء لمخالفتهم مذهبه.

وحاول عتّاب بن ورقاء صرف الزبير بن علي الخارجي عن

(٢٦٤) العصبية القبلية /٣٥٤.

(٢٦٥) العصبية القبلية /٣٥٥.

مقاتلته عن طريق تذكيره بما بينها من الوشائج القبلية، إذ كلاهما من بني يربوع، فكان جواب الزبير: إن أدنى الفاسقين وأبعدهم من الحق سواء.

وإذا كنا قد رأينا بعض مظاهر العصبية القبلية عند بعضهم، فإنها مواقف تحتاج إلى تفسير صحيح لتصب في المصب الصحيح:

عندما بايع سليمان بن هشام وعبد اللّه بن عمر، الضَّحاكَ ابنَ قيسٍ الشيباني الخارجي، وصليا خلفه، صاح شاعر الخوارج شبيل بن عذرة الضبعي:

أَلَم تر أنَّ اللّـــهَ أظهــرَ دينَـــــهُ
وصلَّت قريشٌ خَلْفَ بكرِ بنِ وائِلِ(٢٦٦)

وليس هذا تعصُّباً لبكر بن وائل، بل هو انتصار للنظرية المتحررة من العصبية والولاء لقريش، وتأييد لرأي الخوارج القائل: إن الخلافة يمكن أن تكون في غير قريش كبكر بن وائل أو غيرها

---

(٢٦٦) الطبري: ٥/٦٢٠ والعصبية القبلية لاحسان النص /٣٩٠ـ وشعر الخوارج/٧٤.

من القبائل. ومثل ذلك قول مصقلة بن عتبة الشيباني (الخارجي) مخاطباً الخليفة الأموي:(٢٦٧)

وأبلـغْ أميـرَ المؤمـنين رسالـةً
وذو النُّصحِ إن لم يُرْعَ منك قريبُ

فإنَّـكَ إنْ لاتُرضِ بكـرَ بنَ وائـلٍ
يكـنْ لك يومٌ بالعـراقِ عصيـبُ

فإنْ يـكُ منكـمْ كانَ مروانُ وابنُـه
وعمـروٌ ومنكـم هاشمٌ وحبيـبُ

فمنَّـا سويـدٌ والبُطيـنُ وقعنـبٌ
ومنَّـا أميـرُ المؤمـنين شبيـبُ

ولاصلـحَ مادامـتْ منابـرُ أرضنا
يقـومُ عليها من ثقيـفَ خطيـبُ

وعلى الرغم مما يبدو تعصباً لبكر بن وائل، وتفاخراً قبليّاً في هذه الأبيات فإن حقيقة الأمر ليست كذلك، إنه التحدي للنظام القائم، والتفاخر بشخصيات خارجية ليست كلها من بكر بن وائل، ثم إن بكر بن وائل هذه ليست أم القبائل التي ينتسب إليها

(٢٦٧) العصبية القبلية /٣٩٠. وشعر الخوارج /٦٣ وقد ورد اسم الشاعر عتبان بن أصيلة.

غالبية الخوارج، بل هي كغيرها من القبائل العربية، يكثر انتساب الخوارج إليها حيناً من الزمن ويقل حيناً آخر، بل لقد حارب الخوارج ــ فيمن حاربوا ــ بكر بن وائل وأوقعوا بهم أفدح الضحايا البشرية عندما وقفت هذه القبيلة في الصف المعادي للخوارج في معركة (دولاب) الشهيرة، وكذلك قبيلة تميم التي يزعم المؤلفون أن الكثير من الخوارج يرجعون إليها.

يقول الشاعر والزعيم قطري بن الفجاءة الذي شارك في معركة (دولاب) ذاكراً أمَّ حكيم زوجته:[٢٦٨]

ولو شهدَتْني يومَ (دولاب) أبصرتْ
طعانَ فتىً في الحرب غير ذميمِ
غداة طَفَتْ في الماء (بكرُ بنُ وائلٍ)
وعجنا صدور الخيل نحو (تميمِ)
وكان (لعبدِ القيس) أول جَدّها
وأحلافِها من (يحصبٍ وسليمِ)
وظلَّت شيوخُ (الأزد) في حومة الوغى
تعوم وظلنا فى الجلاد تعومُ[٢٦٩]

---

(٢٦٨) الكامل: ١٢٣ ــ الأغاني: الكفراوي / ١٥٠ / وشعر الخوارج /٤٤.

(٢٦٩) في البيت إقواء.

والأمر في هذه الأبيات واضح، فمدح قبيلة أو هجاء قبيلة يتعلق بموقف هذه القبيلة من الخوارج، وليس الأمر كما ذكرت الدكتورة سهير القلماوي[٢٧٠] من أنه تعصب للقبيلة لم يستطع الخوارج التخلص منه لأن معظمهم من الأعراب.

وإذا نُسب إلى الخوارج تعصب قبلي، فإنه يصح أن ينسب إلى الشاعر الطِّرِمّاح (الذي نسبه التاريخ إلى الخوارج وحسبه عليهم، وسيكون لنا معه شأن خاص). وملخص موقفهم من هذه القضية يأتي في قول شاعرهم عمران بن حطان:[٢٧١]

فنحنُ بنو الإسلام واللّهُ واحدٌ   وأولى عبادِ اللّهِ باللّهِ مَنْ شَكَرْ

وقول الآخر[٢٧٢]:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواهُ   إذا فخروا ببكرٍ أو تميم
كِلَا الحيين ينصرُ مُدَّعيه   ليُلحقَهُ بذي النَّسبِ الصَّميم
وما حسبٌ ولو كرمتْ عروقٌ   ولكنَّ التقيَّ هو الكريم

وقد أكد فلهوزن[٢٧٣] حقيقة انسلاخهم من قبائلهم وانتمائهم إلى حزبهم الديني وعقيدتهم السياسية.

---

(٢٧٠) أدب الخوارج في العصر الأموي / ٤٩ /.

(٢٧١) شعر الخوارج /٢٥.

(٢٧٢) الأبيات لعيسى بن عاتك الخطي، شعر الخوارج /١٣.

(٢٧٣) الخوارج والشيعة /٤٢.

٦ ـــ وعن حالتهم الاقتصادية، ووضعهم المادي، فقد كان متغيراً تبعاً لأوضاعهم الأخرى، من قلق واستقرار نسبي، أو من هزيمة أو انتصار، لكن الأمر المسلّم به أن الخوارج لم يكونوا يعيشون عيشة رخاء أو رفاه، بل كانت حياتهم المادية حياة شظف وضيق، وذلك لضآلة مواردهم وقلة ما في أيديهم، وانعدام الحيوية الاقتصادية التي تتمتع بها الأمم المستقرة من تجارة وصناعة وزراعة. فالتجارة تقوم على علاقات حسن الجوار والثقة بين الأمم المتجاورة أو القبائل المتجاورة، والصناعة تحتاج إلى استقرار واكتساب الخبرات من الشعوب الصديقة، ولم نسمع أنه كان للخوارج صناعة إلا ما كان من صناعة السلاح، و بعض اللباس وأوّليّات الحياة، وكذلك الزراعة التي لا يمكن ممارستها إلا في ظل استقرار طويل.

لم يكن خليفة الخوارج أو زعيمهم امر صرف يتربع على بيت المال ينفق منه كيف شاء، على الهبات والمباذل واللذات، ـــ شأن الخلفاء والأمراء في عصرهم ـــ بل لقد كان إنفاقهم مقيداً بالمبادىء الإسلامية للإنفاق، لا يتعداها إلى بزخ أو تبذير، أو وضع للمال في غير مكانه، أو إعطائه لغير مستحقيه، كذلك فإن الإنفاق لم يكن ـــ في أحسن حالات اليسر المادي ـــ يتجاوز تعزيز القوة القتالية، وتمويل الحروب المقدسة التي كانت تُشنّ

على الأعداء لتحرير بعض البلدان من الطغيان الحاكم، ولم يصل في يوم من الأيام إلى حد رفع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه، أو تشييد الدور والقصور، مما لم يخطر للخوارج على بال، فهو ليس من سياستهم العامة، كما أنهم كانوا ضيوفاً عابرين في الأماكن التي هم فيها، لا يلبثون أن ينزحوا عنها ليحلوا ضيوفاً في غيرها، ومن يكن هذا شأنهم، فإنهم أبعد ما يكونون عن العمران والإنشاء والتشييد، ولم نسمع من أخبار عمرانهم إلا ما اقتضته ظروف الحرب أو الدفاع أو العبادة، من ذلك ما روته كتب التاريخ أن القائد الخارجي شبيب الشيباني عندما دخل الكوفة بنى فيها مسجداً عرف باسمه مدة طويلة، ونبش رأس زوجته غزالة، ودفنه فيه تحدياً للحجاج[٢٧٤].

كان الخوارج يعيشون عيشة الاكتفاء الذاتي، مقتنعين بما بين أيديهم من وسائل بسيطة وإمكانات محدودة، ويمكن تحديد مصادر دخلهم بما يلي:

آ ــ الغنائم: وهي ما كانوا يغنمونه عند انتصارهم على أعدائهم من مال وسلاح وعتاد[٢٧٥]

(٢٧٤) فلهوزن /١٢٠.

(٢٧٥) ابن الأثير ١٦٧/٤ وفلهوزن / ٧٩ /.

ب ـــ الخراج والصدقات التي كانوا يجنونها من البلدان التي كانت تقع تحت أيديهم، ويمكثون فيها وقتاً يطول أو يقصر، أو المناطق التي كانوا يخلّفون عليها بعض ولاتهم، ويأمرونهم بالعدل وحسن السيرة، وأخذ الصدقات كما سمح الإسلام. من ذلك مافعلوه عندما احتلوا اليمامة واليمن بما فيها صنعاء وحضرموت، سنة ثمانٍ وستين للهجرة وأقاموا فيها، وجبوا صدقاتها[٢٧٦].

ج ـــ كانوا عندما ينالون حظّاً معقولاً من الاستقرار، يستصلحون الأراضي ويزرعونها بما يمكن أن يُغلّ لهم، ويحسّن دخلهم، وكانوا يجندون لذلك كل من لا يصلح للحرب من الرجال والنساء فيقومون بالزراعة ورعي المواشي خدمة للجيش المقاتل وتدعيماً لموقفه، وأهم من كان يقوم بهذه المهمات السلمية الأسرى، وكانت هذه الصورة

---

(٢٧٦) فلهوزن /٨٠.

(٢٧٧) فلهوزن /٧٧.

أوضح في أيام حكم الزعيم الخارجي نجدة الذي جاء بعد أبي طالوت سنة ٧٧ هـ.[٢٧٧]

ولاشك أن ضعف حكم ابن الزبير كان خير معين للخوارج على تسهيل مهماتهم الاقتصادية ، إذ كانوا طيلة حكمه في الحجاز ، يمارسون أنواعاً من الحكم الذاتي على بعض أطراف المملكة ، يقطعون الخراج عن ابن الزبير ويأخذونه لأنفسهم . .

وهم — في كل ذلك — كانوا يتقيدون بحدود الشريعة في الأخذ والعطاء ، يتورعون عن أكل المال الحرام ، كما يتورعون عن إنفاق المال في غير محله ، وإن قوماً يمتنعون عن أكل تمرة بغير ثمنها ، لا يُتوقع منهم أن يرتكبوا مخالفات اقتصادية شرعية ، فالمال مال الله، والخلق عيال الله، والهدف هو نصرة الحق ، وفي هذا الإطار كان الإنفاق .

٧ — وعن موقع الخوارج من الثقافة العربية ، والفكر العربي : فإنهم لم يلعبوا دوراً كبيراً في هذا المضمار ، ولم يُغنوا المكتبة العربية بالمؤلفات والمصنفات ، ولم يبحثوا في فنون متنوعة من المعارف والعلوم ، وليس لدينا تفسير لتقصيرهم في ميدان البحث العلمي والتفلسف والتعمق في التعرض للقضايا الفقهية أو الفلسفية التي غاص فيها المعتزلة وأوسعوها بحثاً وتدقيقاً ، إلا هذه التفسيرات :

آ ــ كان العصر العباسي هو عصر الازدهار العربي في كل مجالات المعرفة، من تأليف وترجمة ونقل عن الأمم الأخرى، واحتكاك بالثقافات العالمية، وكانت قصور الخلفاء مراكز لتشجيع العلوم والآداب، مضافاً إليها بعض المساجد، وبعض الشيوخ المشهورين.

ولم يكن للخوارج علاقة بقصور الخلفاء ولا بمجالسهم ومساجدهم ولا بما يمت بأية صلة للدولة، ثم إن الخوارج في العصر العباسي كانوا قد أنهكوا في حروبهم مع الأمويين، وصاروا بحالة تشبه الاحتضار، ومن المؤكد لو أنهم عاصروا ازدهار العصر العباسي، وهم على شيء منَ القوة، لما فاتهم أن يدلوا بدلوهم في بحر ثقافته، وأن يلعبوا دوراً غير الذي لعبوه.

ب ــ لقد ضاع ما لديهم من آثار ثقافية وأدبية، بقصد أو بغير قصد، قال أحمد أمين[٢٧٨]: «ولقد أنتجوا إنتاجاً ضاع كثيره، وبقي قليله، وقد دلنا هذا القليل الباقي على الكثير الضائع»، وطبيعي أن يضيع أكثر آثارهم الأدبية والفكرية، لأن الأقلام التي تدون ليست بأيديهم، ولا بأيدي أصدقائهم، أوْ الحياديين من المؤلفين، فالمؤلفون والمؤرخون صنائع السلطان، والسلطان حرب

(٢٧٨) ضحى الإسلام ٣/٣٤٤.

على الخوارج، فيجب طمس كل أثر طيب يؤثر عنهم، ومنع انتشاره والترويج له.

ج ــ إن الوضع القلق وحالة عدم الاستقرار التي طبعت حياتهم بطابعها في كل مراحلها. لم تتح لهم فرصة مهما كانت قصيرة ــ ينصرفون فيها للعمل الفكري المبدع، إن التأليف والترجمة والجدل والمناظرات والمناقشات وغيرها من أمور الثقافة، لا تعطي ثمارها الطيبة إلا في جوّ من الاستقرار السياسي والأمني، وحماية الدولة والتشجيع المادي، كما كانت الحال في العصر العباسي الأول، إذ تبنت الدولة العلماء وأخذت بأيديهم وأحاطتهم بالعناية والرعاية بكل الوسائل، فحمت ورعت بعض الفرق الدينية وتبنت آراءها في جملةٍ من النظريات، وطبيعي ألا تهدد تلك الفرق الكيان السياسي للدولة، فموقف المأمون مشهور من المعتزلة، وكذلك موقف الواثق والمعتصم، وكان الخوارج يفتقدون ذلك كله.

لقد استمرت عزلة الخوارج عن العالم الخارجي، فكانوا في أحسن حالاتهم محاصرين لا يسمح لهم بالاتصال بأحد، ليس لديهم مراحل ترجمة ونقل وتمازج ثقافات، مما كان متاحاً لغيرهم.

د ــ كان ازدهار الخوارج السياسي في أواخر عهد بني أمية، وقد

بقي لنا شيء من خطبهم وأشعارهم في هذه الفترة، ولكن المرحلة التاريخية بحد ذاتها لم تكن مرحلة ازدهار ثقافي وتمازج فكري بين الأمة العربية وغيرها من الأمم، ولم يكن الاتصال بالثقافات الأجنبية قد تم، ولم تكن الثقافة العربية نفسها قد آتت أكلها في ذلك العصر.

هـ ـ الخوارج بطبيعة تكوينهم السياسي والديني، هم جماعة من المحاربين انشغلوا في أمر تقويم ما رأوه اعوجاجاً، وفي إعادة الحق إلى نصابه، وأغفلوا كل ماعدا ذلك، فهمُّهم الأول وشغلهم الشاغل هو دحر الظلم، وتحقيق المدينة الفاضلة التي اختاروها، وإقامة دولة الإسلام على الأسس التي رسموها، فامتشقوا السيوف وأرجأوا الأقلام ريثما يتحقق الهدف الأول، ويمكن القول بعبارة مختصرة: إن العمل شغل الخوراج عن العلم.

و ـ لقد انصبَّ فكرهم النظري على بعض أمور تتعلق بالدين وأمر الخلافة، وغير ذلك مما ذكرناه في معرض مقارنتهم بالمعتزلة، كنظريتهم في مرتكب الكبيرة، والإمامة والشورى وغيرها من الأمور التي شغلتهم، وكان لها صلة وثيقة بسلوكهم العملي، وقلما تعدّوها إلى مجالات أخرى في الفكر والثقافة.

وجدير بالملاحظة أن ما خلفه الخوارج من نتاج فكري سواء في مجال الأدب أو مناحي الثقافة الأخرى، لم يتصف بالتعمق والتفلسف واستعمال المنطق والجدل، إنما كان من جنس أدب العرب القدماء، رواية شعر وأخبار، لا تصنيف كتب ومناقشة موضوعات فكرية أو مسائل فقهية عميقة، قال أحمد أمين[٢٧٩]: «ثقافتهم ثقافة عربية خالصة، لا أثر فيها لفلسفةٍ من أي نوع، ثقافة لغوية أدبية على نمط العرب في ثقافتهم، وثقافة إسلامية على النمط المعروف في عصرهم من تفهم للكتاب والسنة في سهولة ويسر، فإن جادلوا في الدين، فاحتجاجٌ بظواهر النصوص وتمسكٌ بحرفيتها».

وقد ذكرت الكتب نتفاً من علومهم وعلمائهم، وكلها في حدود ما ذكرنا تنحصر في علوم اللغة والأدب والرواية والأخبار والخطابة.

ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين جملةً صالحةً من الأسماء اللامعة في مجالات الثقافة المختلفة التي اشتهروا بها، كما ذكر

(٢٧٩) ضحى الإسلام: ٣٤٤/٣.

غيره كالطبري والمسعودي وابن الأثير والمبرد وغيرهم شيئاً من علمهم وعلمائهم.

ذكر الجاحظ زيد بن جندب الإيادي. وأسماه: خطيب الأزارقة[٢٨٠]، وقال: إنه قد ضرب به المثل في الخطابة والفصاحة، قال الشاعر في مرثيةٍ لأبي دؤاد بن مرير الإيادي حيث وصفه بالخطابة:

كقسّ إيادٍ أو لقيط بن معبدٍ ... وعذرة والمنطيق زيد بن جندب

وزيد بن جندب هذا هو القائل في خلاف الأزارقة:

قُلْ للمحلين قد قرتْ عيونكمُ
بفرقةِ القوم والبغضاءِ والهربِ
كنا أناساً على دينٍ ففرقنا
طول الجدال وخلط الجد باللعبِ
ما كان أغنى أناساً ضل سعيهمُ
عن الجدال وأغناهم عن الخطبِ
إني لَأهونكمْ في الأرض مُضْطَرباً
مالي سوى فرسي والرمح من نشبِ

(٢٨٠) البيان والتبيين ١/٢٣.

وقال عن عمران بن حطّان[٢٨١] : من الخطباء والعلماء والشعراء، عمران بن حطّان رئيس القعد من الصفرية، وصاحب فتياهم ومفزعهم عند اختلافهم.

وكذلك فقد ذكر الطّرمّاح الشاعر الخطيب (وقد خصصت الطرماح بدراسة منفصلة ووقفت طويلاً عند خارجيته)

ومن خطبائهم قطري بن الفجاءة، وله خطب كثيرة مشهورة وكلام كثير محفوظ، ومن علماء الخوارج الضحاك بن قيس الشيباني وهو الذي ملك العراق، وسار في خمسين ألفاً وبايعه عبد اللّه عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن هشام وصلّيا خلفه وقال شاعرهم وهو شبيل عن عزرة الضبعي:[٢٨٢]

ألم تر أن اللّــــه أظهـــر دينـــــه

وصلت قريشٌ خلف بكـر بن وائـل

وقال الجاحظ:[٢٨٣] ومن خطباء الخوارج ابن صديقة، وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة، وكان صفريّاً وكان خطيباً

---

(٢٨١) البيان والتبيين ١/٤٧.

(٢٨٢) البيان والتبيين ١/٣٤٣.

(٢٨٣) البيان والتبيين ١/٣٤٣.

ويشوب ذلك ببعض الظرف والهزل (وهذا أول ما سمعته عن ظرف وهزل عند الخوارج، إذ عرفوا بالجد والصرامة).

ومن علماء الخوارج: شبيل بن عزرة الضبعي، صاحب الغريب، وكان راوية خطيباً وشاعراً ناسباً، وكان سبعين سنة رافضيّاً ثم انتقل خارجيّاً صفريّاً[284]

ومن خطباء الخوارج وعلمائهم وشعرائهم: حبيب بن خدرة الهلالي[285] وكان ممن يرى رأي الخوارج: أبو عبيدة النحوي: مَعْمَر بن المثنى مولى تيم بن مرة، ووصفه الجاحظ بقوله: «ولم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه[286] وذكره ابن خلكان[287] بأنه كان من علمائهم وكان يرى رأيهم، وروي أن أبا حاتم السجستاني قال: كان أبو عبيدة يكرمني على أني من خوارج سجستان، وقال الثوري: دخلت المسجد على أبي عبيدة وهو ينكت الأرض جالساً وحده، وقال: من القائل؟:

---

(٢٨٤) البيان والتبيين ٣٤٣/١.

(٢٨٥) البيان والتبيين ٣٤٦/١.

(٢٨٦) البيان والتبيين ٣٤٧/١.

(٢٨٧) وفيات الأعيان ١٥٧/٢.

أقول لها متى جشأتْ وجاشتْ
مكانَكِ تُحمدي أو تستريحي

فقلت له: قطري بن الفجاءة، قال: فضَّ اللّٰه فاك، هلّا قلت: هو لأمير المؤمنين أبي نعامة؟ــ ثم قال لي: اجلس واكتم عني ما سمعت مني، وقد ألف فيما ألف كتاب (خوارج البحرين)، ولكنه لم يكن فيلسوفاً ولا من أهل الكلام ــ فيفلسف المذهب الخارجي، وإنما كان عالماً واسع المعرفة في الغريب وأيام العرب، هذا مجمل ما رواه عنه ابن خلكان وسجل له قائمة بأسماء الكتب التي ألفها وهي كثيرة ومتنوعة المواضيع، وقد مر معنا قول الجاحظ عنه: إنه لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه.

ومن جملة ما سبق وعرفناه عن الرجل نستطيع الجزم بأنه كان يتمذهب بمذهب الخوارج لنفسه، فإن جلوسه في المسجد وخوفه من إعلان رأيه وتنوع موضوعاته التي ألف بها ثم عيشه عيشاً هادئاً منصرفاً للتأليف، كل هذه العلامات تخرجه من دائرة الخوارج وما عرف عنهم من مجاهرة في الرأي وخروج في سبيله.

ومثله الهيثم بن عدي، قال عنه ابن خلكان: إنه كان يرى

رأي الخوارج، وألف فيهم كتاباً اسمه (كتاب الخوارج) وكان كأبي عبيدة أخبارياً لا فيلسوفاً، وقال: إنه كان متصلاً بالمنصور والمهدي والهادي والرشيد، وهذا لا يقبله الخوارج، بل الذي يزكي خارجيته أن يخرج خروجاً مسلحاً على الخلفاء السالفي الذكر بدلاً من أن يتصل بهم، فهذا النوع الخارجي على طريقته هو أسوأ أنواع الخوارج في نظر قادتهم وأئمتهم الأوائل.

ومن علماء الخوارج ورؤسائهم: مسلم بن كورين، وكان إباضياً[٢٨٨] ومن علمائهم وخطبائهم وفقهائهم: المقعطل قاضي عسكر الأزارقة أيام قطري بن الفجاءة[٢٨٩].

ومن شعرائهم وخطبائهم ورؤسائهم: عبيدة بن هلال اليشكري[٢٩٠] وقد ذكر المسعودي[٢٩١] أن من علمائهم: اليمان ابن رباب وله كتب مصنفة في مذاهبهم، وعبد الله بن يزيد الإباضي، وأبو مالك الحضرمي وقعنب وغيرهم، وقد كان اليمان من علية علماء الخوارج، وأخوه علي بن رباب من علية علماء

(٢٨٨) البيان والتبيين ٣٤٧/١.

(٢٨٩) نفس المرجع والصفحة.

(٢٩٠) نفس المرجع.

(٢٩١) مروج الذهب للمسعودي ١٩٤/٣.

الرافضة، هذا مقدّم في أصحابه، وهذا مقـدّم في أصحابـه، يجتمعان في كل سنة ثلاثة أيام يتناظران ثم يفترقان، ولا يسلّم أحدهما على الآخر ولا يخاطبه.

ومهما حاول الباحثون أن يوجدوا للخوارج علوماً برعوا فيها وأبواباً من المعرفة سلكوها دون غيرهم، فإنهم لن يستطيعوا، وحسبنا أن نوجد لهم الأعذار والمسوِّغات عن هذا التقصير، وربما كان أهم هذه المسوِّغات: بزوغهم في فترة تاريخية مبكرة من عمر الثقافة العربية، وانشغالهم بأمور الحرب وقلق حياتهم، وموقف الحاكمين والمؤلفين وكل الفئات الأخرى، مما دعا إلى طمس ما أمكن طمسه مما لديهم من تراث فكري.

ولكن الباحث بين الخوارج عن الملتزمين بالعقيدة المتفانين في سبيل نصرتها الآخذين أنفسهم بالسلوك والعمل، سيجد أنهم أكثر بكثير ممن ألّفوا وصنفوا وتفلسفوا.

(١١)

أدب الخوارج

كنت قد قطعت شوطاً بعيداً في إعداد دراسة مفصلة ومنفصلة عن أدب الخوارج (شعراً وخطابة)، وهو ــ لاشك ــ أدب جدير بالعناية والاهتمام، يستحق أن يُفرد له بحث قائم بذاته، يبرز خصائصه المميزة والفريدة، ففيه الكثير من الخصائص التي لم يشاركه فيها نوع من أدب الأحزاب الأخرى في زمنه، لكنني رأيت ألا أفصل بين أدب الخوارج وبين جوانب حياتهم الأخرى فذكرت تلك الميزات الفنية لأدبهم بشيء من الإيجاز والتكثيف، نظراً لطبيعة هذه الدراسة، دون إخلال أو إهمال لمهمٍّ رأيت أن يُذكر.

إن لدى الخوارج كل العناصر المكونة للأدب الرفيع، فهم ينطوون على عقيدة راسخة، وتصميم أكيد على بذل النفس والنفيس في سبيل نصرتها، كما أنهم يمتازون بصراحة في الأقوال والأعمال، وقد مارسوا في كل مراحل حياتهم ديموقراطية أصيلة، وكانت لديهم رؤية واضحة للطريق، ومعرفة لما يريدون ومالا يريدون، ومما امتازت به حياتهم كذلك: التشرد ونزيف الدم المستمر، وتحديد الجراح، ومصارع الأحباب وفراق الخلان، فإذا أضفنا إلى ذلك ثقافتهم العربية الخالصة، وفصاحتهم وبداوتهم، وسرعة الانفعال وحضور البديهة وبساطة الحياة وحرارة العاطفة، وجدنا أن الخوارج يمتلكون العوامل القوية التي بنوا عليها صرح أدبهم.

وعلى قلة الذين تصدوا لدراسة أدب الخوارج، فإنهم متفقون على جملة من السمات اتصف بها هذا الأدب ــ شعره ونثره ــ لا يكاد يخطىء من يجيد القراءة معرفة هذه السمات، من الصدق والقوة والبساطة والفصاحة وغيرها، مما سنفصل القول فيه فيما يأتي من هذا البحث.

فأحمد أمين مثلاً[٢٩٢] يذكر في صدد مقارنة أدبهم بأدب

---

(٢٩٢) ضحى الإسلام ٣/٣٤١.

الشيعة والمعتزلة: أن أدبَ الشيعة أدبٌ باكٍ حزين على فقدان الحق، أو أدب غضبان على أن الخلافة لم توضع في موضعها، وأدب المعتزلة أدب فلسفي يغلب فيه عنصر المعاني، أما أدب الخوارج فهو أدب القوة والاستماتة في طلب الحق ونشره، وأدب التضحية، فلا تستحق الحياة البقاء بجانب العقيدة، وأدب التعبير البدوي الذي لا يتفلسف ولا يشتق المعاني ويولدها، ومما قاله أحمد أمين(٢٩٣) «الخوارج يغضبون للعقيدة والإسلام بعامة، بقطع النظر عن الأشخاص، وإن نظروا للأشخاص ففي ضوء العقيدة، قد يرثون ويبكون ولكنهم حتى في رثائهم وبكائهم أقوياء، يذرفون الدمع ليسفكوا الدم، ويبكون الميت لتشجيع الحي، ويؤبِّنون المفقود ليرسموا المثل الأعلى للموجود، لا يعرفون هزلاً في الأدب، ولا يعرفون خمراً ولا مجوناً، فلا نجد في أدبهم خمراً ولا مجوناً، إنما يعرفون الجهاد والقتال والتربية المتزمتة القاسية التي تخرج رجالاً أقوياء، لا يحرصون على الحياة، وكذلك أدبهم» ومما قاله عن أدب الخوارج(٢٩٤): «أدب الخوارج أدب لسانيّ، لا أدب مكتوب، فكان يتطلب لحفظه أن يذهب رواة الأدب كالأصمعي إليهم

---

(٢٩٣) ضحى الإسلام ٣/٣٤١ـ ٣٤٢.

(٢٩٤) ضحى الإسلام ٣/٣٤٥.

ليأخذ عنهم، وأكثر هؤلاء الرواة كانوا صنائع الدولة العباسية يتقربون إليها برواية ما يرضيها».

إن أكثر ما وصلنا من أدب الخوارج كان من نتاج العصر الأموي، وذلك لأن اشتداد أمرهم وقوة شكيمتهم كانت في ذلك العصر، أما العصر العباسي، فبالإضافة إلى ضعفهم وضعف أدبهم فيه، فلم يكن مسموحاً برواية شيء من أدبهم المتعلق بالعباسيين، وإذا كان العباسيون قد تساهلوا في رواية أدب الخوراج المتعلق بخصومهم الأمويين، فلأن ذلك يلائمهم، ويرضي نزعة عدائهم لهم.

والأدب الخارجي العباسي كان معظمه إباضيّاً، وقد حفظت مكاتب الإباضية في المغرب العربي وعمان بعض آثارهم التي ترجع إلى العصر العباسي الأول.

من ذلك حادثة الوليد بن طريف (الخارجي) الشيباني، الذي حاربه القائد العباسي يزيد بن مزيد الشيباني، وكان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) متصلاً به، فأشاد به وبحربه للخوارج في قصيدته المشهورة[٢٩٥]:

(٢٩٥) البيان والتبيين ٣٤٢/٢ وشرح النهج ٥٩١/١ وضحى الإسلام ٣٤٦/٣.

أجررتُ حبل خليعٍ في الصبا غزِلِ
وشمَّرتْ هممُ العذّال في العذلِ

ومنها قوله:

ويوسف البرم قد صبَّحت عَسْكَرَهُ
بعسكرٍ يلفُظُ الأقدارَ ذي زَجَلِ[٢٩٦]
والمارق ابن طريف قد دلفتَ له
بعسكرٍ للمنايا مُسْبِلٍ هَطِلِ
لما رآك مجداً في منيته
وأن دفعك لا يُستطاع بالحِيَلِ
شامَ النزّالَ فأبرقتَ اللقاءَ لَهُ
مقدّم الْخَطْوِ فيه غير متَّكِلِ

وقد سبق وذكرنا ما جاء على ألسنة بعض خصومهم من قادة بني أمية ووصفهم لأقوالهم بشدة وقعها في النفوس وتأثيرها في القلوب، كالذي قاله عبيد الله بن زياد[٢٩٧] «لَكلام هؤلاء أسرعُ إلى القلوب من النار إلى اليراع»[٢٩٨] وأدب الخوراج ـ كما

(٢٩٦) الزجل: الضجة.

(٢٩٧) الكامل ٨٢.

(٢٩٨) اليراع: نوع من القصب سريع الاشتعال.

هو معروف ـــ قسمان : شعر ونثر ، وهما أسلوبان عبر بهما الخوارج عن مضمون واحد ، هو جملة آرائهم السياسية والدينية والاجتماعية ، فاتصف الأسلوبان بصفات مشتركة من الصدق والقوة والوضوح والتحمس للعقيدة ، وغير ذلك مما سيأتي تفصيله من صفات أدبهم عامة .

النثر

وهو مجموعة الخطب التي أثرت عنهم وتناقلتها الكتب ، وبعض الرسائل التي كتبوها للولاة ممن حاوروهم أو تحدوهم أو كتبوها لبعضهم البعض في مناسبات معينة ..

آ ـــ أما القسم الأول وهو الخطابة ، فربما كان اشتهارهم به أكبر من اشتهارهم بالشعر ، ذلك لأن فترة نهوضهم كانت فترة ازدهار الخطابة العربية ، وظهور خطباء العرب البارزين : علي والحجاج وزياد وغيرهم ، وقد سمعوا من بعضهم ، ورأوا بعضهم على المنابر ، وكان الخوارج بحاجةٍ ماسةٍ إلى فنٍّ أدبي مؤثر في النفوس ، في محاجَّاتهم السياسية وحروبهم ومخاصماتهم وإفحام أعدائهم بالحجة المقنعة ، والعبارة القوية .

ولعل اتصالهم بعلي ، ووتتلمذهم عليه في كل شيء ، وفي الخطابة

بشكل أخص، أسهم في بروز خطباء مصاقع من بين صفوفهم، حتى لقد تداخلت بعض خطبهم بخطبه، والتبس ذلك على الرواة والمؤلفين، من ذلك خطبة منسوبة للزعيم الخارجي قطري بن الفجاءة، في كلٍّ من البيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وصبح الأعشى للقلقشندي، ثم يجيء ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة فيثبتها في النهج على أنها لعلي[299] ويقول: «هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، ورواها لقطري بن الفجاءة، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام، وقد رأيتها في كتاب المؤنق لأبي عبد الله المرزباني مروية لأمير المؤمنين عليه السلام، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه، وليس ببعيد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن يكون قد أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فإن الخوارج كانوا أنصاره وأصحابه وقد لقي قطريٌّ أكثرهم»[300] جاء في هذ الخطبة:

«أما بعد فإنّي أحذرُكم الدُّنيا فإنَّها حلوةٌ خَضِرةٌ، حُفَّتْ بالشَّهوات، وراقتْ بالقليل، وتَحَبَّبَتْ بالعاجلة، وحليتْ بالآمال،

(٢٩٩) نهج البلاغة ٢/٢٣٨ ـ ٢٤٠ و ٣٥٣.

(٣٠٠) شرح النهج ٢/٢٤٢.

وتَزينتْ بالغرور، لا تدوم حبرتُها، ولا تُؤْمَنُ فجعتُها، غرَّارةٌ ضرَّارة، خوَّانة غدارة، وحائلةٌ زائلة، ونافدةٌ بائدة، أكَّالةٌ غوَّالة، بذَّالة نقّالة، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنيَّةِ أهل الرَّغبة فيها والرضاء بها، أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿كماءٍ أنزلناهُ من السَّماءِ فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾. لم يكنْ امرؤٌ منها في حَبرةٍ، إلا أعْقَبَتْهُ بعدها عَبْرَةً، ولم يَلْقَ من سرَّائها بطناً، إلا منحتْهُ من ضرَّائها ظهراً، ولم تطلَّهُ فيها دِيمةُ رَخاء، إلا هَتَنَتْ عليه مزنةُ بَلاء، وحريٌّ إذا أصبحت له منتصرةً أن تمسيَ له متنكرةً، وإنْ جانبٌ منها اعذوذب واحلولى أمرَّ منها جانبٌ فأوبى، لا ينالُ امرؤٌ من غضارتها رَغباً، إلا أرهقته من نوائبها تعباً، و لا يمسي منها في جناح أمْنٍ، إلا أصبح على قوادمِ خوفٍ، غرَّارة غرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ من عليها، لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى، من أقلَّ منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عما قليل عنه، كم من واثقٍ بها قد فَجَعَتْه، وذي طمأنينةٍ قد صرَعَتْه، وذي أُبَّهةٍ قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردَّتْهُ ذليلاً، سلطانُها دولٌ، وعيشُها رَنِقٌ وعذبُها أُجاجٌ، وحلوُها صَبِرٌ، وغذاؤها سِمامٌ، وأسبابها رِمامٌ، حيُّها بعُرضِ موتٍ، وصحيحُها بُعْرضِ سُقمٍ، ملكُها مسلوبٌ

وعزيزُها مغلوبٌ، وموفورها منكوبٌ، وجارها محروبٌ. ألستم فى مساكن من كان قبلكم أطولَ أعماراً وأبقى آثاراً، وأبعد آمالاً، وأعدّ عديداً، وأكثف جنوداً، تعبدوا للدنيا أي تعبُّد، وآثروها أيّ إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلِّغ، ولا ظهر قاطع، فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفديةٍ، أو أعانتهم، بمعونةٍ، أو أحسنت لهم صحبةً؟ بل أرهقتهم بالفوادح، وأوهنتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ريبَ المنون، فقد رأيتمُ تنكرُّها لمن دانَ لها، وآثَرَها وأخْلَدَ إليها، حين ظعنوا عنها لفراقَ الأبد، وهل زوَّدتهم إلا السَّغَب، أو أحلَّتهم إلّا الضَّنْك، أو نورت لهم إلَّا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة؟؟. أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون أم عليها تحرصون؟؟. فبئستِ الدارُ لمنْ لمْ يتّهمْها، ولم يكن فيها على وجلٍ منها.

فاعملوا وأنتم تعلمون بأنكم تاركوها، وظاعنون عنها، واتَّعظوا فيها بالذين قالوا: (مَنْ أشدُّ مِنَّا قوَّةً)، حُملوا إلى قبورهم فلا يُدعون رُكباناً، وأُنْزِلوا بالأجداثِ فلا يُدعَون ضيفاناً، وجُعل لهم من الصَّفيح أجنانٌ، ومن التُرابِ أكفانٌ، ومن الرُّفات جيرانٌ، فهم جيرةٌ لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، ولا يبالون مَنْدَبة، إن

جيدوا لم يفرحوا، وإن قُحطوا لم يقنطوا، جميعٌ وهم آحادٌ، وجيرةٌ وهم أبعادٌ، متدانونَ لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون، حلماءُ قد ذهبتْ أضغانُهُمْ، وجهلاءُ قد ماتت أحقادُهُمْ، لا يُخشى فجعُهم ولا يُرجى دفعُهُمْ، استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربةً، وبالنور ظلمةً، فجاؤوها كما فارقوها، حفاةً عراةً، قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، والدار الباقية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كما بدأنا أوَّلَ خلقٍ نُعيدُهُ وعْداً علينا إنَّا كنَّا فاعلين﴾.

ولاأريد أن أخوض في موضوع نسبة هذه الخطبة لقطري أو لعلي، وعلى أنها شبيهة بكلام عليّ وخطبه — كما قال ابن أبي الحديد — فإن الذين نسبوها لقطري، وهم من مشاهير المؤلفين، لم يستغربوا أنها له، ولم يستكثروا بلاغتها وفصاحتها عليه، وهذا يعني أن هذا المستوى من الكلام هو مستوى قطري وأمثاله من الجيل الذي عاش تلك المرحلة الزمنية، وهذا بدوره يعني أن هؤلاء الخطباء يرقون إلى منزلة تقترب من منزلة عليّ في الخطابة والفصاحة.

وهناك خطب أخرى لخطباء آخرين من الخوارج، تبوأت

مكانة عالية في دنيا الخطابة العربية، منها خطبة أبي حمزة الخارجي[٣٠١] في المدينة، وأجتزىء منها ما جاء على لسانه في وصف أصحابه، قال:

ياأهل الحجاز، أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب ؟! وهل كان أصحاب رسول الله (ﷺ) إلّا شباباً، أما والله إني لعالمٌ بتتابعكم فيما يضركم في معادكم، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ماتركت الأخذ فوق أيديكم. شبابٌ والله مكتهلون في شبابهم، غضيضةٌ عن الشر أعينُهم، ثقيلةٌ عن الباطل أرجلُهم، أنضاء عبادة[٣٠٢] وأطلاح سهر[٣٠٣] ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابُهم على أجزاء القرآن، كلَّما مرَّ أحدُهُم بآيةٍ من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرَّ بآيةٍ من ذكر النار شهق شهقةً كأن زفير جهنم بين أذنيه. موصولٌ كلالُهم بكلالهم![٣٠٤] كلالُ الليل بكلال النهار، قد أكلتِ الأرضُ

(٣٠١) هو المختار بن عوف الازدي احد زعماء الإباضية، غلب على مكة والمدينة سنة ١٣٠ هـ.

(٣٠٢) أنضاء: مهزولون.

(٣٠٣) أطلاح: مهزولون أيضاً.

(٣٠٤) الكلال: الجهد والتعب.

ركَبَهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم، مصفرةٌ ألوانُهم، ناحلةٌ أجسامُهم من طول القيام، واستقلوا ذلك في جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله ، حتى إذا السهام قد فوقت[(٣٠٥)] والرماحُ قد أشرعت، والسيوف قد انتضيتْ[(٣٠٦)] ، وبرقت الكتيبةُ ورعدت بعواصف الموت، استخفّوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ولقوا شبا الأسنة[(٣٠٧)] وشائك السهام وظبات السيوف[(٣٠٨)] بنحورهم ووجوههم وصدورهم، فمضى الشابُّ منهم قُدُماً حتى اختلفت رجلاهُ على عنق فرسه، وتخضَّبتْ بالدماء محاسنُ وجهه، وعفّر جبينه بالثرى، فأسرعت إليه سباعُ الأرض، وانحطت عليه طير السماء، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكى صاحبُها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفٍّ زالتْ عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً، وكم من وجه رقيق وجبين عتيق[(٣٠٩)] قد فُلق بعمد الحديد، ثم بكى

---

(٣٠٥) فوقت: أعدت للرمي.

(٣٠٦) انتضيت: أخرجت من أغمادها.

(٣٠٧) رؤوس الرماح.

(٣٠٨) حد السيوف.

(٣٠٩) عتيق: كريم.

وقال: آه آه على فراق الإخوان، رحمة اللّه على تلك الأبدان، وأدخل روحهم الجنان.[٣١٠]

وخطب حيان بن ظبيان[٣١١] في الحض على الجهاد في جمع من الخوارج سنة ٨٥ هـ فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:[٣١٢]

أما بعد فإن اللّه عزَّ وجلّ كتبَ علينا الجهاد، فمنا من قضى نحبه، ومنا من ينتظر، وأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلهم. ومن يكنْ منا ينتظر فهو من سَلَفنا القاضين نحبَهم، السابقين بإحسان. فمن كان منكم يريد اللّه وثوابَه، فليسلكْ سبيلَ أصحابه وإخوانه، يؤته ثوابَ الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة، واللّهُ مع المحسنين.

وخطب عبد اللّه بن يحيى زعيم الإباضية لما استولى على اليمن سنة ١٢٩ هـ فحمد اللّه وأثنى عليه، وصلّى على نبيه، ووعظ وذكَّر وحذَّر، ثم قال:[٣١٣]

(٣١٠) الأغاني ١٠٤/٢٠ والبيان والتبيين ٦١/٢ وشرح النهج ٤٥٩/١.
(٣١١) السُّلَمي ممن سلم من النهروان، ولم يكف عن إثارة الحماسة للخروج وذم الدنيا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(٣١٢) أدب السياسة للحوفي ص ٣٢٥.
(٣١٣) أدب السياسة ص ٣٢٩.

إنَّا ندعوكم إلى كتاب اللّٰه تعالى وسنَّة نبيّه وإجابة من دعا إليهما. الإسلامُ دينُنا، ومحمدُ نبيُّنا، والكعبةُ قبلتُنا، والقرآن إمامُنا. رضينا بالحلالِ حلالاً لا نبغي بديلاً، ولا نشتري به ثمناً قليلاً وحرَّمنا الحرامَ، ونبذناهُ وراءَ ظهورِنا. ولا حول ولا قوة إلا باللّٰهِ، وإلى اللّٰهِ المشتكى، وعليه المعوَّل.. من زنى فهو كافرٌ، ومَنْ سرقَ فهو كافرٌ. ومن شرب الخمرَ فهو كافرٌ، ومن شكَّ في أنه كافرٌ فهو كافرٌ.

ندعوكم إلى فرائضَ بيّناتٍ، وآياتٍ محكماتٍ، وآثارٍ مُقْتَدى بها، ونشهدُ أنَّ اللّٰهَ صادقٌ فيما وعد، عدلٌ فيما حكَم، وندعو إلى توحيد الرب، واليقين بالوعيدِ والوعدِ، وأداءِ الفرائضِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنهي عن المنكرِ، والولايةِ لأهل ولايةِ اللهِ، والعداوة لأعداءِ اللهِ.

أيها الناس.. إن مِنْ رحمةِ اللّٰه، أنْ جَعَلَ في كلِّ فترة بقايا من أهلِ العلم، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون على الألم في جنب اللّٰه تعالى، يُقتلون على الحق في سالف الدهور شهداء، فما نسيهم ربُّهم وما كان ربُّك نسيّاً. أوصيكم بِتقوى اللّٰه، وحسن

القيام على ما وكلكم الله بالقيام به، فأبلوا للهِ بلاءً حسناً في أمره وذكره.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ب ـــ والقسم الثاني من نثر الخوارج وهو الرسائل، هذه أمثلة منه:

١ ـــ من رسائلهم إلى خصومهم

كتب قطري بن الفجاءة جواباً على رسالة تعريض وتهديد تلقّاها من الحجاج[٣١٤].

من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف. سلامٌ على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نقَمَه. فالحمد لله على ما أظهر من دينه وأظلع[٣١٥] به أهل السِّفال وهدى به من الضّلال، ونصَرَ به عند استخفافك بحقّه. كتبتَ إليّ تذكر أنّي أعرابيٌّ حلفٌ أُمّيٌّ استطعِمُ الكِسرة، وأستشفِي بالتّمرة، ولَعمري يا بنَ أمِّ الحجاج، إنّك لَمتيَّهٌ في جِبلّتِك، مُطْلَخِمٌّ[٣١٦] في

(٣١٤) البيان والتبيين ٢/٣١٠ وأدب السياسة ٤٠٦.

(٣١٥) أظلع: اتهم وعاب.

(٣١٦) المتيّه والمطلخم: المتكبر.

طريقتِك ، واهٍ في وثيقتِك ، لا تعرفُ اللّهُ ، ولا تجزعُ من خطيئتكَ ، يئستَ واستيأستَ من ربّك ، فالشيطان قرينُك ، لا تجاذبُه وثاقَك ولا تنازعُه خناقَك ، فالحمدُ للّه الذي لو شاء لأبْرَزَ لي صفحتَك ، وأوْضَحَ لي صلعتَك ، فوالّذي نفسُ قطريٍّ بيده ، لعرفت أنَّ مقارعةَ الأبطال ، ليستْ كتصدير المقال ، مع أني أرجو أن يدحضَ اللّه حجتك ، وأن يمنحني مهجتك..

وكتب نافع بن الأزرق إلى عبد اللّه بن الزبير يدعوه إلى أمره :(٣١٧)

أما بعدُ فإني أحذُرك من اللّه (يوم تجد كلُّ نفسٍ ما عملتْ من خير مُحضراً ، وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم اللّه نفسه)(٣١٨) فاتَّقِ اللّهَ ربَّك ، ولا تتولَّ الظّالمين ، فإن اللّه يقول : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من اللّه في شيء)(٣١٩) وقد حضرتَ عثمانَ يومَ قُتل ، فلعمري لئن كان قُتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه ، ولئن كان قاتلوه مهتدين ــ وإنهم لمهتدون ــ لقد كفر من يتولاّ

(٣١٧) الكامل للمبرد /١١٦ .
(٣١٨) سورة آل عمران / ٣٠ /.
(٣١٩) سورة آل عمران / ٢٨ /.

وينصره ويعْضدُه. ولقدَ علمتَ أن أباكَ وطلحةَ وعليّاً كانوا أشدَّ الناس عليه، وكانوا في أمره من بين قاتلٍ وخاذل، وأنت تتولّى أباك وطلحة وعثمان، فكيف ولاية قاتلٍ معتدٍ ومقتولٍ في دين واحد؟! ولقد ملك عليٌّ بعده فنفى الشُّبُهات، وأقام الحدود، وأجرى الأحكام مَجاريَها، وأعطى الأمور حقائقها، فيما عليه وله، فبايعه أبوك وطلحةُ، ثم خلعاه ظالِمَيْنِ له، وإن القول فيك وفيهما لكما قال ابن عباس: إن يكنْ عليّ في وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمناً، أما لقد كفرتم بقتال المؤمنين، وأئمة العدل، ولئن كان كافراً كما زعمتم، وفي الحكم جائراً، لقد بؤتم بغضبٍ من اللّه لفراركم من الزحف.

ولقد كنتَ له عدواً، ولسيرته عائباً، فكيف تولَّيتَه بعد موته! فاتَّقِ اللّه، فإنه يقول: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ (٣٢٠).

٢ ـ من رسائلهم إلى بعضهم البعض

كتب نجدة بن عامر (الخارجي) إلى نافع بن الأزرق (الخارجي)(٣٢١) لما سار الخوارج إلى الأهواز بعد أن نصروا ابن الزبير،

---

(٣٢٠) سورة المائدة / ٥١ /.

(٣٢١) الكامل للمبرد ٢/١١٤ والعقد الفريد ١١٤ وأدب السياسة ٤٠٣.

وقد أمَّروا عليهم نافع بن الأزرق الحنفي، ثم شجر بينهم الخلاف، فانفصل جماعة منهم بزعامة نجدة، ومضوا إلى اليمامة بنجد:

بسم الله الرحمن الرحيم ــ أما بعد، فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرَّحيم، وللضعيف كالأخ البرّ، لا تأخذك في الله لومة لائم، ولا ترى معونة ظالم. كذلك كنتَ أنتَ وأصحابك. أما تذكر قولك: «لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثلَ أجرِ جميع رعيّته، ما توليتُ أمرَ رجلين من المسلمين؟» فلمّا شريتَ[(٣٢٢)] نفسَك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه، وأصبتَ من الحق فصّه[(٣٢٣)]، وركبتَ مُرّه، تجرّدَ لك الشيطانُ، ولم يكنْ أحدٌ أثقلَ عليه منك ومن أصحابك، فاستمالك واستهواك، واستغواك وأغواك، فغويت، فأكفرتَ الذين عذرهم الله في كتابه من قَعَدِ المسلمين[(٣٢٤)] وضَعَفَتِهِمْ، فقال جل ثناؤه، وقوله الحق، ووعدُه الصدق: ﴿ليس على الضُّعفاء ولا على المرضى ولا على الذين

(٣٢٢) شريت: بعت نفسك لله، ومنه اسم الشراة للخوارج.

(٣٢٣) فصهّ: مفصله.

(٣٢٤) القَعَد: هم الذين يرون رأي الخوارج، دون حمل السلاح.

لا يجدون ماينفقون حَرَجٌ إذا نصحوا لله ورسوله﴾ ثم سمَّاهم أحسن الأسماء، فقال: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾[٣٢٥].

ثم استحللتَ قتلَ الأطفال، وقد نهى رسول الله (ﷺ) عن قتلهم، وقال الله عزَّ ذكرُهُ: ﴿ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى﴾[٣٢٦] وقال سبحانه في القَعَد خيراً، وفضل اللهُ من جاهد عليهم، ولا تدفع منزلةُ أكثر الناس عملاً منزلةَ من هو دونه، أو ما سمعتَ قوله عزَّ وجلّ: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾[٣٢٧]. فجعلهم الله من المؤمنين، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم.

ورأيتَ ألَّا تؤدّيَ الأمانةَ إلى من خالفك، واللّهُ يأمرُ أن تُؤَدَّى الأماناتُ إلى أهلها، فاتق اللّهَ وانظر لنفسك، واتق يوماً لا يُجزى والدٌ عن ولده، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً، فإن الله عزَّ ذكره بالمرصاد، وحكمُه العدلُ وقوله الفصلُ، والسلام.

فردّ نافع على نجدة:[٣٢٨]

---

(٣٢٥) سورة التوبة / ٩١ /.

(٣٢٦) سورة فاطر ١٨.

(٣٢٧) سورة النساء ٩٥.

(٣٢٨) الكامل للمبرد ١١٥ ـــ العقد الفريد ٢١٤ وأدب السياسة: ٤٠٥.

بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعدُ، فقد أتاني كتابُك تعظني فيه وتذكّرني وتنصح لي وتزجرني، وتصفُ ما كنتُ عليه من الحق، وما كنتُ أوثره من الصواب، وأنا أسأل اللّه عزَّ وجلَّ أن يجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وعبتَ عليَّ ما دنتُ به من إكفار القعد، وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة، فسأفسر لك لم ذلك إن شاء اللّه.

أما هؤلاء القَعَد، فليسوا كما ذكرت، ممن كانوا بعهد رسول اللّه (ﷺ)، لأنهم كانوا بمكة مقهورين، لا يجدون إلى الهرب سبيلاً ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً، وهؤلاء قد فُقِّهوا في الدين، وقرأوا القرآن، والطريق لهم نهجٌ واضح، وقد عرفتَ ما قال اللّه عزَّ وجل فيمن كان مثلهم، إذ قالوا: ﴿كنّا مستضْعَفينَ في الأرض﴾[٣٢٩] فقيل لهم: ﴿ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها﴾[٣٣٠]. وقال: ﴿فرِحَ المخلّفون بمقعدهم خِلافَ رسولِ اللّه﴾[٣٣١]. وقال: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذَنَ

---

(٣٢٩) سورة النساء ٩٧.

(٣٣٠) سورة النساء ٩٧.

(٣٣١) سورة التوبة ٨١.

لهم﴾[332] فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا اللّٰه ورسوله. وقال: ﴿سيصيبُ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم﴾[333]. فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأمَّا أمرُ الأطفال فإن نبيَّ اللّٰه نوحاً عليه السلام كان أعلم باللّٰه يانجدة مني ومنك، فقال: ﴿رب لا تذرْ على الأرض من الكافرين دَيَّاراً، إنَّكَ إنْ تذرْهُمْ يُضلُّوا عبادَكَ، ولا يلدوا إلَّا فَاجراً كفَّاراً﴾[334]. فسماهم بالكفر وهم أطفال قبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك في قوم نوح، ولا نكونُ نقوله في قومنا؟ واللّٰه يقول: ﴿أكُفَّارُكُمْ خير من أولئكم، أمْ لكم براءةٌ في الزُّبُر﴾[335]. وهؤلاء كمشركي العرب، لا تقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استحلالُ أماناتِ مَن خالَفنا، فإن اللّٰه عزَّ وجلّ أحلّ لنا أموالهم، كما أحلّ لنا دماءهم، فدماؤهم حلالٌ طِلْقٌ[336]،

(٣٣٢) سورة التوبة ٩٠.

(٣٣٣) سورة التوبة ٩٠.

(٣٣٤) سورة نوح ٢٦، ٢٧.

(٣٣٥) سورة القمر / ٤٣ / الزبر جمع زبور وهو الكتاب.

(٣٣٦) طِلق: حلال.

وأموالُهم فيءٌ للمسلمين. فاتَّق اللَّهَ وراجعْ نفسَك، فإنَّه لا عذرَ لك إلا بالتَّوبة، ولن يَسَعَك خذلانُنا والقعودُ عنا، وتركُ ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا.

والسلام على من أقرَّ بالحق وعمل به.

وكتب نافع بن الأزرق إلى من بالبصرة من المحكّمة:(٣٣٧)

بسم الله الرحمن الرحيم ــ أما بعدُ، فإن اللَّهَ اصطفى لكمُ الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ــ واللّهِ إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدةٌ، والدين واحدٌ، ففيمَ المقام بين أظهر الكفار؟ ترون الظلم ليلاً ونهاراً، وقد ندبكم اللَّهُ إلى الجهاد فقال: ﴿فقاتلوا المشركين كافَّة﴾(٣٣٨) ولم يجعل لكم في التخلّف عذراً في حال فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾(٣٣٩)، وإنما عذر الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون، ومن كانت إقامته لعلّةٍ ثم فضَّلَ عليهم مع ذلك المجاهدين، فقال: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير

(٣٣٧) المحكمة: الخوارج، لقولهم: لا حكم إلا للّه ــ الكامل للمبرد ١١٧ وأدب السياسة: ٤٠٨.

(٣٣٨) سورة التوبة ٣٦.

(٣٣٩) سورة التوبة ٤١.

أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله ﴾[٣٤٠] فلا تغترُّوا ولا تطمئنوا إلى الدنيا، فإنها غرارةٌ مكَّارة، لَذَّتُها نافدة، ونعمتُها بائدة، حُفَّتْ بالشهوات اغتراراً، وأظهرت حَبْرةً[٣٤١] وأضمرت عَبْرة، فليس آكلٌ منها أكلةً تسره، ولا شاربٌ شربة تؤنقه[٣٤٢] إلا دنا بها درجةً إلى أجله، وتباعد بها مسافةً من أمله، وإنما جعلها الله داراً لمن تزوَّد منها إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، فلن يرضى بها حازمٌ داراً، ولا حليمٌ بها قراراً. فاتقوا الله ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[٣٤٣]. والسلام على من اتبع الهدى.

جـ ـ وهناك نوع ثالث من نثر الخوارج، لنسمِّه: الحوار أو الجدل أو المناظرة، وهو نثر شفهي كثر في العصر الأموي، اقتضته الحياة العامة في ذلك العصر، ويشبه المفاخرات والمنافرات التي كانت في الجاهلية، من حيث قيامها على الحرية والجرأة وبراعة البيان.

وهذا النوع من النثر يعتمد على مواتاة البديهة، وإسعاف

(٣٤٠) سورة النساء ٩٥.

(٣٤١) الحبرة: النعمة وسعة العيش.

(١٤٢) تؤنقه: تعجبه.

(٣٤٣) سورة البقرة ١٩٧.

الخاطر وذلاقة اللسان، أكثر مما يعتمد على الروية والتأنق، لأنه وليد الساعة، فلا فرصة فيه للتجويد والتنميق، وهو أدلّ على الفصاحة من الرسائل المسطرة، والخطب المصنوعة.

وقد روت كتب الأدب كثيراً من هذه المحاورات، منها ما جرى بين معاوية وخصومه، وبين الحجاج وخصومه وبين عبد الله ابن الزبير وخصومه.

أما الخوارج، فقد تحاوروا مع عليّ قبل التحكيم، وكذلك مع عبد الله بن عباس رسولاً لعلي، وحاوروا جند المهلب وحاوروا غيرهم.

جاء في حوارهم لابن عباس نيابة عن علي: (٣٤٤)

ابن عباس: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟

الخوارج: قد كان للمؤمنين أميراً، فلما حكَّم في دين الله خرج من الإيمان، فليتبْ بعد إقراره بالكفر نعُدْ إليه.

ابن عباس: لا ينبغي لمؤمنٍ لم يشبْ إيمانَهُ شكٌّ أن يقرَّ على نفسه بالكفر.

الخوارج: إنه قد حكَّم.

---

(٣٤٤) الكامل للمبرد / ٩ / وأدب السياسة للحوفي ٣٦٩.

ابن عباس : إن اللّٰه عز وجلّ قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال عزّ وجلّ : ﴿يحكم به ذوا عدلٍ منكم﴾[345] فكيف في إمامةٍ قد أشكلت على المسلمين ؟.

الخوارج : إنه قد حُكم عليه فلم يرض.

ابن عباس : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيتُه ، وكذلك الحكمان ، لما خالفا نبذت أقاويلهما.

الخوارج بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال اللّٰه عزَّ وجل فيهم : ﴿بل هو قومٌ خصمون﴾[346] وقال اللّٰه عزَّ وجلّ : ﴿وتنذر به قوماً لُدّاً﴾[347].

وقد أوردنا فيما سبق من هذا الكتاب محاورة جرت بين الخوارج وبين جند المهلب ، يوم كان يحارب لمصعب بن الزبير ضد الملك بن مروان.

فإذا أردنا بعد ذلك أن نوضح بعض خصائص النثر

---

(٣٤٥) سورة المائدة ٩٥.

(٣٤٦) سورة الزخرف / ٥٨ /.

(٣٤٧) سورة مريم / ٩٧ /.

الخارجي، رأينا أن هذا النثر يشترك مع غيره من نثر العصر الأموي بكثير من الصفات وينفرد بصفات أخرى تبرز ما فيه من خصوصية، ونَفَس خارجي نافذ يفرض تفرده على القارىء.

ففي الخطابة:

آ ــ كان خطباؤهم يُعِدّون ما يلقون من خطب قبل إلقائها، إلا إذا اقتضى الموقف الارتجال، فقد روي أن الخوارج الأوائل طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبي ــ أول خلفائهم ــ يوم ولوه رئاستهم أن يخطب فيهم فقال: وما أنا والرأي الفطير، والكلام القضيب(٣٤٨).

ب ــ كانوا يفتتحون الخطبة بحمد الله والثناء عليه والصلاة والتسليم على النبي.

ج ــ كانوا يستعملون العنف والتهديد: فقد بالغ أبو حمزة في شتم معاوية ويزيد ومن وليهما من خلفاء بني أمية، وهدد أهل المدينة يوم دخلها فاتحاً فمما قاله: والله لولا انشغالي بغيركم عنكم ما تركتُ الأُخذ فوق أيديكم.. الخ..

د ــ استعمال التخييل والتصور: من استعارات وكنايات

(٣٤٨) البيان والتبيين ٢٠٥/١ الكلام القضيب: المرتجل.

وتشبيهات: برقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم.. الخ..

هـ ــ قوة العبارة، وقصر الجمل، وغلبة الايجاز، والعناية بالوقع والرنين.

و ــ التأثر بالقرآن الكريم، وهذه سمة ظاهرة فلا تخلو خطبة خارجية طويلة كانت أم قصيرة، من القرآن الكريم إمَّا أخذاً بالحرف وإمَّا تأثراً بالمعنى، من ذلك قول أبي حمزة في تزكية القتلى من أصحابه: فطوبى لهم وحسن مآب(٣٤٩) وقول حيان بن ظبيان: فمنا من قضى نحبه ومنا من ينتظر، من قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً﴾(٣٥٠). وغير ذلك كثير.

ونستطيع أن نجمل صفات الخطب الخارجية بأنها:

١ ــ تصوُّرُ الخارجي، شابّاً كان أم كهلاً بأنه: زاهد في الدنيا مقبل على الآخرة، مَنَحَ نفسه وبدنه للّه، مُسارعٌ إلى الجهاد

(٣٤٩) مأخوذ من الآية الكريمة: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، طوبى لهم وحسن مآب. سورة الرعد / ٢٩ /.

(٣٥٠) سورة الأحزاب ٢٣.

مستهينٌ بالحياة، يُبدي من فنون البسالة والبراعة الحربية ما يعجز عنه الوصف.

٢ ــ تبدو الخطابة الخارجية بأمثل خواصها الفنية: فصاحة ما بعدها فصاحة، وقوة وجزالة، ووضوح في التعبير والكلمات، وإيجاز في العبارات، واعتماد على السجع والازدواج والخيال المثير والكناية المشخصة للمعاني، والتصوير البارع، والقدرة على الاستمالة، يضاف إلى ذلك تأثر واضح بالقرآن الكريم في المعاني والعبارات، ثم هي خطب متدفقة بالعواطف الحارة، يُحس من يقرأها أن قلوب قائليها على ألسنتهم.

وهكذا فإنه عندما يذكر خطباء العرب المبرزون وفصحاؤهم المشهورون، يقفز خطباء الخوارج ليقفوا في الصف الأول إلى جانب علي والحجاج وزياد، أمثال: قطري بن الفجاءة، وأبي حمزة الخارجي، وعبيدة بن هلال، وحيان بن ظبيان، وعبد الله بن يحيى، وغيرهم.

وأما رسائل الخوارج فإنها:

آ ــ تعتمد على قوة الحجة، وتجويد العبارة، وانتقاء الكلمات المناسبة، والإيجاز، والاقتباس من القرآن الكريم، وقد تأثرت بالشعر استفتاحاً واستشهاداً، حتى إن بعضها

كان شعراً لا نثر فيه ، كتلك الرسالة الشعرية التي أرسلها قطري بن الفجاءة إلى سبرة بن الجعد الخارجي يدعوه فيها إلى الخروج(٣٥١) :

جاء في هذه الرسالة :(٣٥٢)

لَشَتَّانَ ما بين ابن جعدٍ وبيننا
إذا نحنُ رحنا في الحديد المظاهَرِ(٣٥٣)

نجاهدُ فرسانَ المهلب كلّنا
صبورٌ على وقع السيوف البواترِ

أبا الجعد ، أين العلمُ والحلمُ والنُّهى
وميراثُ آباءٍ كرامِ العناصرِ

ألم تر أنَّ الموتَ لاشكَّ نازلٌ
ولا بدَّ مِنْ بَعْثِ الأُلى في المقابرِ

فراجعْ أبا جعدٍ ولا تكُ مغضباً
على ظلمةٍ أعشتْ جميعَ النَّواظرِ

---

(٣٥١) مروج الذهب ١٣٨/٢ .

(٣٥٢) المصدر السابق وأدب السياسة ٤٢٣ وتاريخ الشعر العربي للكفراوي ١٥٢/٢ .

(٣٥٣) الحديد المظاهر : الدرع المزدوجة .

وتبْ توبــةً تُهـدي إليكَ شهــادةً
فإنَّكَ ذو ذَنْــبٍ، ولستَ بكافــرِ

وسِرْ نَحوَنـا تلـقَ الجهــادَ غنيمـــةً
تفـدْك ابتياعـاً رابحاً غيــرَ خاســرِ

هي الغايـةُ الـقصوى الرغـيبُ ثوابُهـا
إذا نال في الدنيا الغنـى كلُّ تاجــرِ

فلما قرأ سبرة كتاب قطري بكى، وركب فرسه وأخذ سلاحه، ولحق به.

ب ــ وقد اتصفت رسائل الخوارج بسعة الخيال: إذ كثر فيها المجاز والتمثيل والتصوير والخيال كقول نجدة لنافع: إن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البرّ... أو.. فلما أصبتَ من الحق فصّه، وركبت مرّه، تجرد لك الشيطان..

جــ ــ ومن صفاتها: السجع غير المستكره في بعض مقاطعها، مثال ذلك ما جاء في رسالة نجدة لنافع: لا تأخذك في الله لومة لائم، ولا ترى معونةً لظالم، استمالك الشيطان واستهواك، واستغواك وأغواك.. الخ..

د ــ وهم يستفتحون رسائلهم بالبسملة و.. أمّا بعد.. ثم يدخلون في صلب الموضوع.

هـ ــ وكان مرسل الرسالة منهم يكتفي بقوله في أول الرسالة: من فلان إلى فلان، فيذكر اسمه واسم المرسل إليه دون أي زيادة أو تبجيل أو تملق فهم لم يكاتبوا من يعترفون بتفوقهم عليهم، لقد كان غيرهم يكتب من فلان إلى أمير المؤمنين أو إلى مولانا أو غير ذلك مما لم يدخل في قاموس الخوارج الكتابي..

ومعروف أن تجويد الرسائل في العصر الأموي بلغ حداً كبيراً من العناية حتى لقد تخصص بها نفر من الكتاب وظّفتهم الدولة وسمّتهم كتاباً للرسائل كعبد الحميد وغيره، أما الخوارج فكان قادتهم هم الكتّاب وهم الأدباء.

أما الحوار.. فيتصف بصفات الرسائل والخطب، من اعتماد على الإيجاز، وقوة الحجة، وبراعة المحاجّة، وقلب حجة الخصم عليه وغير ذلك.

ومادمنا في دائرة أدب الخوارج، فلابد من الإشارة إلى الحركة الفكرية والثقافية عندهم، ونُحيل القارىء إلى ما كتبناه آنفاً

في صفحات سابقة من هذا الكتاب عن وضعهم الفكري وحركة التأليف عندهم.

حتى إذ انتقلنا للحديث عن **الشعر**:

وجدنا أنه يشترك مع النثر في مجموعة من الصفات، إذ إن المشارب واحدة، والنوازع واحدة، والأشخاص هم أنفسهم الشعراء والخطباء والكتاب، وإذا انفرد الشعر بصفات لا توجد في النثر، فإن ذلك ما تقتضيه طبيعة كل منهما كفنين مختلفين من فنون القول.

إن لشعر الخوارج من الميزات والخواص ما يجعله فريداً بين أنواع الشعر، فهو كالخوارج أنفسهم نبتة إسلامية جديدة بأكثر صفاتها، وقبل تفصيل هذه الصفات، نشير إلى جملة من آراء بعض النقاد المحدثين في هذا الشعر:

قال الأستاذ أحمد الشايب[٣٥٤]: «أمّا عن شعر الخوارج فالقول الفصل فيه: إنه كان أصدق صورة أدبية لمذهب ديني سياسي، لا يشاركه في هذا الوصف شعر آخر».

---

(٣٥٤) تاريخ الشعر السياسي ١٦٥ ــ ١٨٣ ــ ٣٠١.

كما أشار في كتابه (الأسلوب) إلى أن الخوارج لم تفسدهم الحضارة، بل حافظوا على صفاء الطبع، وسلامة الخلق والجرأة والصراحة، وصدق الشعور، وقوة العقيدة، وإن سلامة الخلق والطبع هي الأساس الأول لقوة الشعر وجماله ووضوحه، وهذه هي الصفات المثالية لكل فن أدبي، والخوارج جيل إسلامي قرآني بخلقه وثقافته وأدبه ومنهجه السياسي، فكان شعرهم إسلامياً قوياً جديداً.

وجاء على لسان حنا فاخوري[٣٥٥] قوله: «كان شعرهم شعر العقيدة التي تفنى فيها الشخصيات، وأسلوبه خطابياً احتجاجياً ثورياً. وامتاز شعرهم بالجدة لأنه ابتعد عن تقليد الأقدمين واتخاذ أسلوبهم في تركيب القصيدة، فكان موضوعه مذهباً حديثاً تدعمه آراء وحجج إسلامية متخذة من القرآن والسنة، وكانت غايته الجهاد في سبيل العمل الصالح، وقد أُجري على أسلوبٍ هو مزيجٌ من الجزالة والسلاسة والرقة، إلّا أن هذا الشعر لم يكن إلا مقطوعات وقصائد قصيرة».

---

(٣٥٥) تاريخ الشعر العربي ٢٦٧ ــ ٢٦٨.

وشبيه بهذا ماأشار إليه الدكتور عبد القادر القط[٣٥٦] من أن شعرهم يعكس حياتهم السياسية بجانبيها الفكري والعسكري، ويمتزج فيه التأمل والزهد بالفداء والتضحية والاستشهاد في ميادين القتال، مع مسحةٍ غالبةٍ من الحزن الشجي لمصارع إخوانهم في كل حين وفي كل أرض.

كذلك فإن الدكتور أحمد الحوفي[٣٥٧] أتى بآراء قيمة في شعر الخوارج.

وملخص القول في شعرهم: إنه شعر جديدٌ في معانيه وموضوعاته وغاياته، فهو جهادٌ في سبيل الحكم الأفضل، والنظام السليم من الفساد، جديدٌ في خلق رجاله، وعواطفهم المهذبة الرقيقة، وهو مقطعاتٌ قصيرة لا قصائد طويلة، وهو تصويرٌ حقيقيٌّ لواقعهم من صدق في العقيدة، وسرعةٍ في الانفعال، وعفويةٍ في القول، فصاحةٌ بدوية، قوةٌ واستشهاد، وحضّ على الثورة، إيجازٌ وقوة في اللفظ، وحرارةٌ في العواطف، يتشابه الشعر

(٣٥٦) في الشعر الإسلامي والأموي: ٣٧٦.

(٣٥٧) أدب السياسة في العصر الأموي: ٢٢٠ ــ ٢٣٩.

والشعراء، وتقلّ الموضوعات، ويخلو من العصبيات، ويبرز فيه الصدق والصراحة والوضوح.

وسأضع بعض ما سَبَق إجمالُه، في عناوين مستقلة وأتحدث عنه بشيء من التفصيل:

١ ـ إنه شعرٌ قليل

فلم يكثر الخوارج من نظم الشعر، وليس لشعرائهم دواوين مطبوعة تتصدر واجهات المكتبات، وحتى قصائدهم، فهي من نوع المقطعات لا المطولات، خواطر تعبر مخيلاتهم، فتنسجها مواهبهم أبياتاً ليست بالكثيرة، أو أراجيز اقتضتها المبارزات والمنازلات في ساحات الحروب.

وفي مجال المقارنة بين شعرائهم وشعراء الأحزاب الأخرى، لابد من الأخذ بعين الاعتبار أنه ليس للخوارج (شعراء) متفرغون ينطقون باسمهم، وينصرون قضيتهم بألسنتهم وحدها، ليس عندهم من (يحترف) الشعر وينصرف له، فالشاعر هو القائد العسكري والزعيم الديني، هو المحارب والعابد، ليس لديهم زعماء وشعراء،

إلا ما قيل عن الطرماح ـــ والطرماح ليس شاعراً خارجياً كما سنرى في القسم الثاني من هذه الدراسة[٣٥٨].

ومن أسباب قلة شعر الخوارج، أنهم قصروا موضوعاته على عقيدتهم الدينية والسياسية، فلا هجاء إلا نفثات الغضب التي كانت تصب على الخصم المبارز أثناء الحرب، ولا فخر إلا ما كان بأخلاق مقاتليهم وحسن بلائهم وعفتهم وزهدهم، ولا مدح على طريقة غيرهم تملُّقاً وارتزاقاً، ولا وصف لأيٍّ من الموصوفات المعروفة كالصحراء والطريق والناقة، ومشاهد الصيد ومجالس الانس، مما أغنى ديوان الشعر العربي وزاد من إنتاجه، كذلك لم يقفوا على أطلال ولا مهدوا لأغراضهم بمقدمات غزلية أو غير غزلية، كما أن رثاءهم كان قليلاً ...

آ ـــ فإذا ورد عندهم شيء من الغزل، فقد جاء غزلاً فريداً من نوعه، تقرب للحبيبة بحب الله وحب الموت في سبيل العقيدة، وقد جاء تباهياً بالبلاء الحسن والسير في طريق الشهادة.

شاعر في ساحة الوغى يود لو شاهدته الحبيبة، وهو يجود بنفسه، ويبذل حشاشته في سبيل الله، إذاً لزاد إعجابها به وتقربها منه.

---

(٣٥٨) أقصد بالقسم الثاني، كتاباً خاصاً عن الطرماح.

كان ذلك للقائد الشاعر الخارجي قطري بن الفجاءة ــ في معركة دولاب ــ[359]

لَعَمرُك إني في الحياةِ لزاهدٌ
وفي العيشِ مالمْ ألْقَ أمَّ حكيمِ
من الخفراتِ البيض لم يُرَ مثْلُها
شفاءً لِذي بثٍّ ولا لِسَقيمِ
لَعَمرُك إني يومَ ألطمُ وَجْهَهَا
على نائباتِ الدهرِ جدُّ لئيمِ
ولو شَهِدَتْني يومَ (دولابَ) أبصرتْ
طعانَ فتىً في الحربِ غيرِ ذميمِ
ولو شهدتنا يومَ ذاك وخيلُنا
تُبيحُ من الكفّارِ كلَّ حريمِ
رأتْ فتيةً باعُوا الإلهَ نفوسَهُمْ
بجناتِ عَدْنٍ عندهُ ونعيمِ

وأم حكيم هذه امرأة خارجية فائقة الجمال، فائقة

---

(٣٥٩) شعر الخوارج / ٤٤ / والكامل ١٢٣، وشرح النهج ١/٦٠٥.

الشجاعة، قيل: إنها كانت زوجة قطري، ـــ وفي الأبيات ما يدل على ذلك ـــ (لعمرك إني يوم ألطم وجهها) وسواءً أكانت زوجته أم لم تكن، فقد كانت خارجيةً تثير الإعجاب بكل صفاتها تنازل فرسان الأعداء، والخوارج يفدُّونها بالآباء والأمهات وتقول مرتجزة: (٣٦٠)

أحملُ رأساً قد سئمتُ حملَهْ　　وقد مللتُ دَهْنَهُ وغَسْلَهْ

ألَا فتىً يحملُ عني ثقلَهْ

والمرأة عند الخوارج لم تكن موضوع غزل، فهي ليست جاريةً ولا عشيقة ممشوقة القدّ كحيلة العينين، تتزيَّنُ للرجال، بل كانت الأمّ المثالية والزوجة الوفية، والمقاتلة التي يحسب لها الشجعان ألف حساب، كانت ترى أن رسالتها أسمى من أن تظفر بزوج، قالت أم حكيم السالفة الذكر وقد خطبها جماعة من أشراف الخوارج فردَّتهم: (٣٦١)

ألَا إنَّ وجهاً حَسَّنَ اللّٰهُ خَلْقَهُ
لَأجْدَرُ أن يُلْفَى به الحسنُ جامعا

---

(٣٦٠) شرح نهج البلاغة ٥١٨/١ وشعر الخوارج ٤١ والكامل ١٢٣.

(٣٦١) شعر الخوارج /٤١.

وأكــــرمُ هذا الجرمَ عن أن ينـالَــــهْ
تورُّكُ فحــلٍ هـمُّــهُ أن يُجـامعــــا

وقد سبق أن ذكرنا بعض نساء الخوارج، كغزالة الشيبانية التي هرب منها الحجاج، وعيّره بذلك أسامة بن سفيان البجلي أو عمران بن حطان:(٣٦٢)

أسدٌ علــيَّ وفي الحروب نعامــــةٌ
رَبْــداءُ تنفــرُ من صفير الصَّافــــر
هلَّا برزتَ إلى (غزالـة) في الوغــى
بل كانَ قلبُكَ في جناحَيْ طائـــر

ومن نسائهم (الفارعة) أخت القائد الخارجي الوليد بن طريف الشيباني الذي خرج بالجزيرة السورية على الرشيد، فأرسل إليه القائد العباسي يزيد بن مزيد الشيباني فقتله، وكانت الفارعة شاعرة بارعة فرثته(٣٦٣)

لم يكن غزل الخوارج وصفاً لمفاتن المرأة، ولا تصويراً لحال العاشق المتيم الذي جافاه النوم لفراق الحبيب، ولم يكن ترغيباً

---

(٣٦٢) البيان والتبيين ١/١٢٨.

(٣٦٣) البيان والتبيين ٣٤٢ وشرح النهج ١/٥٩١ وضحى الإسلام ٣/٣٤٦.

للمرأة بالمال والجاه والنسب الشريف، بل كان تقرُّباً لها بحب اللّٰه وطاعته، والشجاعة وحسن البلاء في الحروب، يقول المعتَّق أحد رجالهم[٣٦٤]:

ليت الحرائرَ بالعراقِ شَهِدْنَنَا ... ورأيْنَنا بالسَّفْح ذي الأجبال
لَنَكَحْنَ أهلَ الجدِّ من فرسانِنا ... والضاربين جماجمَ الأبطال

وإغناءً لهذا الموضوع أورد رأياً للدكتور عبد القادر القط[٣٦٥] في هذا المجال، جاء فيه، أن للمرأة عند الخوارج وضعاً جديداً يختلف عن وضعها التقليدي، فهي ليست موضوعاً للغزل العاطفي بل هي رفيق سلاح أو كفاح للشاعر، تخوض معه المعارك أحياناً، وتبلي بلاءً لا يكاد يقل عن بلاء الرجال، (فجمرة) زوجة عمران بن حطان، شدَّته نحو المذهب الخارجي، فأصبح من أئمته، وهو إذ يتحدث عنها ــ على جمالها ــ لا يصف محاسنها كما اعتاد الشعراء، بل يطري ما يعلم من كريم خلقها فيقول[٣٦٦]:

---

(٣٦٤) شرح النهج /٥٣٣.

(٣٦٥) في الشعر الإسلامي والأموي ٣٧٨ ــ ٣٧٩.

(٣٦٦) في الشعر الإسلامي والأموي ٣٨ وشعر الخوارج / ١٧ / حيث للدكتور إحسان عباس رأي مشابه.

يا جمر إني على ما كان من خلقي
مثنٍ بخلات صدقٍ كلُّها فيكِ
اللّهُ يعلمُ أني لم أقلْ كَذِباً
فيما علمت وأني لَأُزكّيكِ

غير أن للمرأة صورة أخرى في شعر الخوارج، تشبه صورتها في شعر غيرهم ممن تقدموهم، كأن تحاول ثنيَ زوجها عن الحرب حفاظاً عليه، أو تلومه لطول غيابه، أو تعاتبه إذا لم يحضر لها هدية بعد غياب طويل، من أمثلة ذلك ما قاله زياد الأعسم عند خروجه(٣٦٧) :

تعاتبني عِرْسي على أن أطيعها
وقبل سُليمى ما عصيتُ الغوانيا
فكُفّي سُليمى واتركي اللومَ إنني
أرى فتنةً صمّاء تبدي المخازيا
فكيف قعودي والشراةُ كما أرى
عِزين(٣٦٨) يلاقُونَ البلايا الدّواهيا؟

---

(٣٦٧) شعر الخوارج ٦٥.

(٣٦٨) عزين: جماعات.

وقال الآخر[٣٦٩] :

تعيرني بالحرب عِرسي وما دَرَتْ
بأني لها في كلّ ما أمرتْ ضدُّ

لحا اللّٰه قوماً يقعدون وعندهم
سيوفٌ ولم يُعصبْ بأيديهمُ قدُّ[٣٧٠]

وقال ثالث[٣٧١] :

وسائلةٍ بالغيب عني ولو دَرَتْ
مقارعتي الأبطالَ طال نحيبُها

إذا ما التقينا كنتُ أولَ فارسٍ
يجودُ بنفسٍ أثْقَلَتْها ذنوبُها

ومما قاله يزيد بن حبناء، وقد كتبت إليه زوجته تطلب هدايا وألطافاً[٣٧٢] :

دعي اللوم إن العيشَ ليس بدائم
ولا تعجلي باللَّوْم يا أمَّ عاصم

(٣٦٩) شعر الخوارج ١١٧.

(٣٧٠) القدّ: سير من جلد ــ القيد.

(٣٧١) شعر الخوارج ١١٦.

(٣٧٢) شعر الخوارج ٣٦.

فإن عجلتْ منك الملامة فاسمعي
مقالةَ معنيٍّ بحقكِ عالم
ولا تَعذُلينا في الهديَّة إنَّما
تكونُ الهدايا من فضولِ المغانم
فليس بمهدٍ من يكون نهارُه
جلاداً، ويمسي ليله غيرَ نائم

غير أن الصورة الحقيقية للمرأة الخارجية، هي ما أسلفنا من أنها رفيقة سلاح وكفاح، لا غانية متبرجة، أو زوجة جازعة، وتلك هي عواطف الغزل عندهم، وهذه هي لهجتهم في هذا الفن، ثم إن هذه هي دوافعهم إليه، وهذه هي المرأة التي يتطلعون إليها بغزلهم.

ب ــ أما رثاء الخوارج: فلم يكن آهاتِ حزنٍ ولا دموع أسى عقيمة، بل كان ــ على قلته ــ حزن المؤمن الصابر الصامت المعتز بالشهادة، المتشوق إلى الظفر بها، أو كان نوعاً من الفخر بمناقب الفقيد، فخر المتطلّع إلى ميتةٍ تكسبه حسن الأحدوثة في الدنيا وجوار الله والإخوان في الآخرة، قال أحمد أمين(٣٧٣) عن رثائهم: «قد يرثون ويبكون، ولكنهم حتى في رثائهم وبكائهم أقوياء، يذرفون

---

(٣٧٣) ضحى الإسلام ٣/٣٤١ ــ ٣٤٢.

الدمع ليسفكوا الدم، ويبكون الميت ليتشجع الحي، ويندبون المفقود ليرسموا المثل الأعلى للموجود» فعندما قتل مرداس بن أديَّة ــ أحد فرسان الخوارج وشعرائهم ــ صاح شاعرهم(٣٧٤):

يا عين بكّي لمرداسٍ وصحبتِهِ
يا رب مرداس اجعلني كمرداس(٣٧٥)

وقد كان مرداس يتمنى أن يظفر بالميتة التي حصل عليها، يخرج في سبيل الله فيُقتل، إذْ ما قيمة الحياة بعد أن يرى الإنسان أصحابه صرعى في ساحات القتال، قال(٣٧٦):

أبعد ابن وهبٍ ذي النَّزاهةِ والتُّقى
ومن خاض في تلك الحروب المهالكا(٣٧٧)
أحبُّ بقاءً أو أرجِّي سلامةً
وقد قَتَلُوا زيدَ بن حصنٍ ومالكا

(٣٧٤) عمران بن حطان.

(٣٧٥) جاء البيت في شعر الخوارج ص ١٥ على الشكل التالي:

ياعينُ بكّي لمرداسٍ ومصرعه — يارب مرادس الحقنــي بمرادس

(٣٧٦) شعر الخوارج / ١٠ / وأدب السياسة / ٢٢٤ /.

(٣٧٧) عبد الله بن وهب الراسبي أول خلفاء الخوارج.

فيــا ربّ سلّــمْ نيّتــــي وبصيرتي
وهبْ لي التُّقى حتى ألاقي أولئكـا

فلم يطل انتظاره حتى استجاب الله له ورزقه الشهادة التي طلب، ثم رثاه الكثيرون: رثاه عمران بن حطّان ــ أحد زعماء القعدة ــ (الذين لا يرون الخروج المسلح واجباً) رثى مرداساً ــ أبا بلال ــ هذا بمثل اللهجة التي سمعناها، حبٌّ للخروج، وطلبٌ للموت وزهدٌ في الدنيا[378]:

لقـد زادَ الحيـاةَ إلـيَّ بُغْضاً وحبـاً للخـروج أبـــو بلال
أحاذرُ أن أموتَ على فراشي وأرجو الموتَ تحتَ ذرا العوالي
ولو أنّي علمتُ بأنَّ حتفي كحتـفِ أبي بلالٍ لم أُبـال
فَمَنْ يَكُ همُّـهُ الدُّنيـا فإني لها، واللّهِ ربِّ البيـتِ، قالِ

وعندما قتل القائد الخارجي الوليد بن طريف لدى خروجه على الرشيد في الجزيرة سنة ١٧٩ هـ وقفت أخته (الفارعة) رافعةً صوتها بالرثاء، على طريقة الخوارج لا على طريقة الخنساء، قالت في أخيها[379]:

(٣٧٨) شعر الخوارج ١٦.
(٣٧٩) البيان والتبيين ٣٤٢ وشرح النهج ٥٩١/١.

بِتَـلٍّ نهاكـــى رسْمُ قبـــرٍ كأنَّـــهُ
علي جبـلٍ فوقَ الـجبـــالِ مُنيـــفِ
تضمَّـــنَ مجـداً عـدمليّـاً وســـؤدداً
وهمةَ مقـدامٍ ورأيَ حصيـــفِ[380]
فتـىً لايُـحبُّ الـزاد إلَّا مِنَ التُّـقـى
ولا الـمـالَ إلَّا مِنْ قنـىً وسيـــوفِ
ولا الـذُّخـر إلَّا كِلَّ جرداءَ صلـــدمٍ
معـاودةٍ للكـــرّ بين صفـــوف[381]
حليف النَّـدى ما عاش يرضي به النَّـدى
فإن مات لا يَرضى النَّـدى بـحليـفِ
وما زال ـــ حتى أزهقَ الموتُ نَـفْـسَـهُ ـــ
شجـاً لعـدوٍّ أو لـجـــاً لضعيـــفِ
فيـا شجـرَ الـخابـورِ مالك مورقـــاً
كأنك لـــم تجزعْ على ابـنِ طريـفِ

إلى أن تقول :

---

(٣٨٠) عدمليّاً : تليداً .

(٣٨١) جرداء صلدم : صفة للفرس القوية .

فإن يك أرداه يزيدُ بنُ مزيدٍ
فربّ زحوفٍ لفَّها بزحوفِ

عليه سلام اللهِ وقفاً فإنني
أرى الموتَ وقَّاعاً بكلِّ شريفِ

ويزيد بن مزيد، هو القائد الذي وجهه الرشيد لقتال الوليد ابن طريف (وكلاهما من شيبان). وقد سنحت الفرصة لإجراء مقارنةٍ حية بين شعراء الخوارج وشعراء غيرهم: فعندما رمى الرشيد الوليد بن طريف بقائده يزيد بن مزيد الشيباني، كان شعراء القصور يترقبون سانحة تعطيهم المال والقرب من السلطان، وقد اقترن اسم مسلم بن الوليد (صريع الغواني) بهذه الواقعة فقال في قصيدة طويلة مدح بها الرشيد وقائده يزيد بن مزيد مطلعها:

أجررت حبل خليع في الصِّبا غَزِلِ
وشمرتْ همُّ العذّالِ في العذلِ

ووصف فيها حروب القائد العباسي مع الخوارج:

ويوسف البرم قد صَبَّحْتَ عَسْكَرَهُ
بعسكرٍ يلفظ الأقدار ذي زجلٍ[(٣٨٢)]

---

(٣٨٢) الزجل: الجلبة والضجيج.

والمارق ابن طريفٍ قد دلفتَ لَهُ
بعسكرٍ للمنايا مسبلٍ هَطِلِ
لما رآك مُجداً في منيَّتِهِ
وأنَّ دَفْعَكَ لايُسطاعُ بالحِيَلِ
شامَ النِّزالَ فأبرقتَ اللقاءَ لَهُ
مقدّم الخطوِ فيه غير مُتَّكِلِ

والفرق الذي أقصده بين هذا النوع من الشعراء وشعرهم وبين الخوارج وشعرهم، ليس بفنية الشعر وجماليته، بل بالمواقف والانتماءات..

ولنستمع إلى أبيات أخرى رثت فيها (الفارعة) أخاها الوليد السالف الذكر، أخذتها من ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٣٤٧.

ذكرتُ الوليدَ وأيَّامَهُ إذِ الأرضُ من شخصِهِ بلقعُ
فأقبلتُ أطلبُهُ في السَّما ءِ كما يبتغي أنْفَهُ الأجدعُ
لو انَّ السيوفَ التي حدُّها يُصيبُك، تعلمُ ماتصنعُ
نبتْ عنك إذ جُعلتْ هيبةً وخوفاً لِصَوْلِكَ لاتقطَعُ

وواضح أن رثاء هذه الأخت لأخيها ليس فيه دموع الخنساء على أخويها، بل فيه نغمة أخرى هي نغمة رثاء الخوارج.

وحتى الأمهات الخارجيات، لا يذرفن دموع الحزن على أبنائهن. فهذه هي أم عمران بن الحارث الرَّاسبي ترثي ابنها (عمراناً)، وقد قتل في معركة دولاب[(٣٨٣)]:

اللّٰهُ أيَّـدَ عـمـرانـاً وطـهَّـرَهُ
وكانَ عمرانُ يدعـو اللّٰهَ في الـسَّحـرِ
يدعـوهُ سـرّاً وإعلانـاً ليرزقَـهُ
شهادةً بِـيَـدَيْ ملحـادةٍ غُـدُرِ[(٣٨٤)]
ولَّـى صحابتُـهُ عن حرِّ ملحمـةٍ
وشـدَّ عمرانُ كالضّرغامـةِ الهصِرِ[(٣٨٥)]

ولا نعني بذلك أن رثاء الخوارج خلا من الدموع كل أنواع الدموع، إن لديهم بكاءً مرّاً وتفجعاً وجدانياً يعتصر القلوب، لكن حزنهم وبكاءهم مشفوعان بالعزاء الجميل، والرضى بقضاء اللّٰه

---

(٣٨٣) شعر الخوارج / ٤٠ /.

(٣٨٤) ملحادة: شديد الإلحاد، غدر: شديد الغدر.

(٣٨٥) المصر: الأسد الشديد.

والتطلع إلى الغد الذي يمسح دموع الأمس بيد الأمل، وأعظم عزاء لدى هؤلاء الباكين أن من فقدوا أرضوا اللّه والواجب، ومضوا إلى جنة الخلد، وقد قرت أعينهم بما أبلوا في سبيل اللّه، لنستمع إلى هذا البكاء الجميل، من الشاعر الخارجي الجعد بن ضمام الذهلي يرثي خوارج قتلوا في دقوقاء[386] :

شبابٌ أطاعُوا اللّهَ حتى أحبَّهم
وكلُّهُمُ شارٍ يَخافُ ويَطمعُ
فلما تبووا من دقوقا بمنزلٍ
لميعادِ إخوانٍ تداعَوا فأجمعوا
دعَوا خصمَهُمْ بالمحكماتِ فبيَّنوا
ضَلَالَتَهُمْ، واللّهُ ذو العرشِ يَسْمَعُ
بنفسيَ قتلى في دقوقاءَ غُودِرَتْ
وقد قُطِعَتْ منها رؤوسٌ وأذرعُ
لِتَبْكِ نساءُ المسلمينَ عليهمُ
وفي دونِ مالاقينَ مَبْكىً ومَجْزَعُ

---

(٣٨٦) دقوقاء: مدينة بين أربيل وبغداد. شعر الخوارج / ٦١ /.

ومن بكاء الخوارج قول داود بن عقبة العبدي في الرثاء[٣٨٧] :

إلى اللّهِ أشكو فقدَ فتيانِ غارةٍ
شهدْتُهُمُ يومَ النخيلة والنَّهْرِ

شهدتهُمُ أسْداً إذا الحربُ شمَّرتْ
مساميحُ بهُمُ بالمهنَّدة البترِ

أولئك إخواني مُنيتُ بهلكِهِمْ
فَلَهْفي عليهمْ أن يُرَوا آخرَ الدهرِ

هذه الدموع القوية هي دموع الخوارج، وهذا البكاء الإيجابي هو بكاؤهم، وكل أمثلة الرثاء تبرز حقيقة ماذكرنا من صفات رثائهم، قال حسان بن جعدة يرثي شوذباً وأصحابه[٣٨٨] :

ياعينُ أذري دموعاً منك تسجاما
وابكي صحابةَ بسطامٍ وبسطاما

فلن تَرَيْ أبداً ماعشتِ مثلَهُمُ
أتقى وأكملَ في الأحلام أحلاما

---

(٣٨٧) شعر الخوارج / ٦٤ /.

(٣٨٨) شعر الخوارج / ٦٩ / شوذب هو المسمّى أيضاً بسطاماً، كان زعيم الخوارج أيام عمر بن عبد العزيز.

حتى مَضَوا للذي كانوا له خرجُوا
فأورثونا منـاراتٍ وأعلاما
إني لَأعلمُ أنْ قد أُنْزِلُوا غُرَفاً
من الجنان ونالوا ثَم خدّاما

وجاء في رثاء عمرو بن الحصين العنبري لأبي حمزة وغيره من الشراة(٣٨٩) :

ياربّ أسلكني سبيلَهُمُ
ذا العرشِ، واشْدُدْ بالتّقى أزْري
في فتيةٍ صبروا نفوسَهَمُ
للمشرفيَّة والْقَنا السُّمْرِ
متأهِّبونَ لكلِّ صالحةٍ
ناهون من لاقَوا عَنِ النُّكْرِ
وهمُ مساعرُ في الوغى رُجُحٌ
وخيارُ من يمشي على العفرِ
حتّى وفَوا لله حيثُ لقُوا
بعهودِ لا كذبٍ ولا غدرِ

(٣٨٩) شعر الخوارج / ٦١ /.

فتخـالسوا مُهجَـاتِ أنفسِهِـمْ
وعداتِهِـمْ بقـواضبٍ بتـرِ
وأسنـةٍ أُثبتـنَ في لُـدُنٍ
خطيَّـةٍ بأكـفِّهِـمْ زهـرِ
تـحـتَ العجـاجِ وفوقَهُـمْ خرقٌ
يـخفـقْـنَ مِنْ سودٍ ومِنْ حُـمْـرِ

جـ ـ ولم نر في أشعارهم فخراً من نوع فخر العرب، فهم أبعد ما يكونون عن الافتخار بالأنساب وكثرة العدد والمال وشرف العشيرة ومنعتها، بل كل فخرهم: اعتزاز برسوخ العقيدة، وعمق الإسلام في قلوبهم، وحسن البلاء في الحروب، وانصرافهم للعبادة، والاستعداد للقاء الآخرة، يقول عمران بن حطان(٣٩٠):

فنحـن بنـو الإسـلام واللّٰـهُ واحـدٌ
وأولـى عبـادِ اللّٰـهِ باللّٰـهِ مَـنْ شَـكَـرْ

ومثل ذلك قول عيسى بن عاتك الخطّي(٣٩١):

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواهُ ‌ ‌ ‌ ‌ إذا فخروا ببكـرٍ أو تميـم

---

(٣٩٠) شعر الخوارج / ٢٥ /.
(٣٩١) شعر الخوارج / ١٣ /.

كلا الحيَّيْنِ ينصر مدَّعيه ليلحقَهُ بذي النسب الصميم

وقد يستعملون في فخرهم بالجهاد نوعاً من الحجج التي يدمغون بها خصومهم ، مثال ذلك ما قاله شاعرهم عيسى بن فاتك أو (عاتك) الخطي بعد مقتل عروة بن أدية ، الذي قتله عبيد الله ابن زياد (غدراً) ، فغضب لقتله أخوه بلال بن أدية ، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلاً من الخوارج ، (أو ستة وثلاثين رجلاً) ، فبعث إليهم عبيد الله بن زياد ألفي رجل على رأسهم أسلم بن زرعة ابن حصين التميمي ، فهزمهم الخوارج فقال عيسى بن عاتك[392] :

فَلَمَا أصبَحوا صلّوا وقاموا إلى الجردِ العتاقِ مسوِّمينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظلَّ ذوو الجعائل يُقْتَلُونا[393]
أألفاً مؤمنٍ ـ فيما زعمتم ـ ويهزمُهُمْ بآسَكَ أربعونا[394]
كذبتم ليس ذاكَ كما زعمتُمْ ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
هم الفئة القليلةُ غير شكٍّ على الفئةِ الكثيرة يُنصرونا

وقد تفرد الخوارج في الفخر بقلة العدد وقلة المال ، وكان

(٣٩٢) شعر الخوارج / ١٤ / والطبري ١٧٥/٦ .

(٣٩٣) ذوو الجعائل : جنود بني أمية المأجورون .

(٣٩٤) آسك : موقع بهمذان .

العرب قبلهم يفخرون بأنهم : الأكثرون حصىً وأن جيشهم كجنح الليل يزحف بالحصى.. إنهم يفخرون بقلة مالديهم من مال ورجال ، يقول عطية بن سمرة الليثي[٣٩٥] :

وحسبي من الدنيا دلاصٌ حصينةٌ
ومغفُرها يوماً وصدرُ قناة[٣٩٦]
وأجرد محبوك السراة مقلّصٌ
شديدٌ أعاليه ، وعتر شراة
فابلغ منه حاجتي وبصيرتي
وأشفيَ نفسي من ولاةِ طغاة

ومثله قول زيد بن جندب الأزرقي[٣٩٧] :

إني لَأهونُكُمْ في الأرض مُضْطَرَباً
مالي سوى فرسي والرمح من نَشَب

وشبيه بهذا قول عمرو القنا العنبري[٣٩٨]

---

(٣٩٥) شعر الخوارج / ٣٢ /.

(٣٩٦) دلاص: درع ملساء لينة ، المغفر: زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة.

(٣٩٧) شعر الخوارج /٣٥ والبيان والتبيين ٢٣/١ .

(٣٩٨) شعر الخوارج / ٣٨ /.

فحسبي من الدنيا دلاصٌ حصينةٌ
وأجردُ خوَّارُ العنانِ نجيبُ
أجاهد أعدائي إذا ماتتابعوا
وأدعى باسمي للهدى فأجيبُ
معي كلُّ أوَّاهٍ برى الصَّومُ جسمَهُ
ففي الجسم منه نهكةٌ وشحوبُ

وإذا رأى كل الناس أن الفقر عار وذل، فإن الخوارج لم يروه كذلك، يقول يزيد بن حبناء(٣٩٩)

ماشقوةُ المرء بالإقتار يقتره
ولاسعادتُهُ يوماً بإكثارِ
إن الشقيَّ الذي في النارِ منزلُهُ
والفوزُ فوزُ الذي ينجو من النارِ

ولاعجب أن يكون فخرُهم بالشجاعة والتُّقى بيتَ قصيدهم ومحورَ دورانهم، فقطري بن الفجاءة الشاعر الفارس يقول في مزج جميل بين الفخر والغزل(٤٠٠)

(٣٩٩) شعر الخوارج / ٣٨ /.
(٤٠٠) شعر الخوارج / ٤٤ / وتاريخ الشعر العربي / ١٥٠ /.

لَعَمْرُكَ إنّي في الحياةِ لزاهدٌ
وفي العيشِ مالمْ ألْقَ أمَّ حكيمِ

ولو شهِدَتْني يومَ دولابَ أبصرتْ
طعانَ فتىً في الحربِ غير ذميمِ

ولو شهدتنا يومَ ذاكَ وخيلُنا
تُبيحُ من الكفَّارِ كلَّ حريمِ

رأتْ فتيةً باعُوا الإلهَ نفوسَهُمْ
بجناتِ عدنٍ عندَهُ ونعيمِ

وقال عتبان بن أصيلة الشيباني يفخر ببعض رجالهم[401]:

فلا ضيرَ أنْ كانَتْ قريشٌ عدىً لنا
يصيبون منَّا مرَّة ونصيبُ

فإن يك منهم كان مروان وابنهُ
وعمرٌو ومنهمْ هاشمٌ وحبيبُ

فمنا سويدٌ والبطين وقعنبٌ
ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

غزالةُ ذاتُ النَّذرِ منا حميدةٌ
لها في سهامِ المسلمين نصيبُ

ومنا سنانُ الموت وابنُ عويمرٍ
ومرَّةُ فانظرْ أيَّ ذاك تعيب

فوارسُنا من يلقَهُمْ يلق حَتْفَهُ
ومن ينج منهم ينج وهو سليب

---

(٤٠١) شعر الخوارج / ٦٤ /.

ومن فخرهم قول البهلول بن بشر الشيباني[٤٠٢]

مَنْ كانَ يكرهُ أنْ يَلْقَى منيَّتَهُ
فالموتُ أشْهى إلى قلبي مِنَ الْعَسَلِ
فلا التَّقَدُّمُ في الهيجاءِ يُعجِلُني
ولا الحذارُ ينجّيني مِنَ الأجَلِ

وفي هذا مايدل على فهم عميق للحياة والموت، ونظرة إنسانية شاملة للأمور، ومثل ذلك قول قطري بن الفجاءة[٤٠٣] :

أقولُ لها وقد طارتْ شَعاعاً
من الأبطالِ: ويحكِ لن تُراعي
فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ
على الأجل الذي لكِ لن تُطاعي
فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً
فما نيلُ الخلودِ بُمستَطاعِ
وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ
إذا ماعُدَّ من سقطِ المتاعِ

(٤٠٢) شعر الخوارج / ٧٣ /.

(٤٠٣) شعر الخوارج /٤٢/ وشرح النهج ١ / ٤٠٠ وشعر الحرب ٥٩.

وقال أحد الخوارج[٤٠٤] :

ومن يخشَ أظفار المنايا فإننا
لبسنا لهنَّ السَّابغاتِ مِنَ الصَّبْرِ
وإن كريهَ الموت عذبٌ مذاقُهُ
إذا ما مزجناهُ بطيبٍ من الذِّكْرِ

وأختتم ببعض أراجيزهم في الفخر، وأكثره مما كان مقاتلوهم يترنمون به في مبارزاتهم. قال رجل أسود من الأزارقة[٤٠٥] :

نحنُ قمعناكُمْ بشَلِّ السَّرْحِ   وقد نكأنا القرحَ بعدَ القرح

وقال حوثرة الأسدي[٤٠٦] :

أكرِرْ على هذي الجموعِ حَوْثَرَهْ
فعنْ قليلٍ ما تنالُ المغفرهْ

وقال عبيدة بن هلال اليشكري وهو شاعر خطيب[٤٠٧] :

إني لَمُذْكٍ للشراة نارَها   ومانعٌ ممن أتاها دارَها

---

(٤٠٤) شعر الخوارج / ١١٧ /.

(٤٠٥) شعر الخوارج / ١٠٥ / والكامل ١٩٥ وشرح النهج ١/٥٣٠.

(٤٠٦) شعر الخوارج / ٨ / والكامل / ١٩٤ / وشرح النهج ١/٥٣٠.

(٤٠٧) شعر الخوارج / ٥٤ /.

وغاسلٌ بالطَّعْنِ عنها عارَهـا حتـى أقـرَّ بالقنـا قرارَهـا

وقال[408]

أنـا ابـنُ خير قومِـه هلالِ شيـخٌ على ديـن أبي بلال
وذاك ديني آخرَ الليالي

وقال أحدهم[409]:

قد علمتْ خيلُكَ يا بن الصَّحْصَحْ
بالزَّابييـنِ والعيـونُ تلمـحْ
أنَّـا إذا صيـحَ بنـا لا نبـرحْ
إنَّ الحديـدَ بالحديـدِ يُفلـحْ
لن نبرحَ الموصلَ حتى تُفتحْ

وارتجزت أم حكيم[410]:

أحمِلُ رأساً قد سئمتُ حملَهْ وقـد مللتُ دَهْنَهُ وغسْلَـهْ
ألَا فتـىً يحملُ عني ثقلَـهْ

د ــ وإذا كان قد ورد في أشعارهم شيء من الهجاء، فليس ذاك

---

(٤٠٨) شعر الخوارج / ٥٣ /

(٤٠٩) شعر الخوارج ١١٤.

(٤١٠) شعر الخوارج / ٤١ / وشرح النهج ٥١٨/١.

خوضاً في الأعراض أو تفنناً في السب والإقذاع والإفحاش في القول، كالذي كان لدى شعراء الهجاء عند العرب، كذلك لم يكن هجاؤهم سخريةً وضحكاً وتصويراً كاريكاتوريّاً، فهم لا يتخذون من الشعر غاية فنية يعبثون بالمعاني والصور والألفاظ لإثارة الضحك أو السخرية، أو لإبراز قدرة فنية معينة، بل لقد كان هجاؤهم تسفيهاً لآراء خصومهم وتكفيراً لروح التخاذل والارتداد عند بعضهم، كما كان نقداً للعيوب العامة من جبن وجشع ونفاق وتملق للحكام، وهجوماً على الدولة ونقداً لسلوكها الظالم الكافر.

كتب قطري بن الفجاءة إلى سمرة بن الجعد يلومه على مجالسة الحجاج[٤١١]:

فراجعْ أبا جعدٍ ولا تكُ مُغضياً
على ظلمةٍ أعشتْ جميع النَّواظر
وتُبْ توبةً تهدي إليك شهادةً
فإنك ذو ذَنْبٍ ولَسْتَ بكافر

فاستجاب الرجل وترك الحجاج وكتب له[٤١٢]:

---

(٤١١) ورد اسمه: سمرة، وسبرة، وسميرة ــ شعر الخوارج / ٤٧ /.
(٤١٢) شعر الخوارج / ٥٠ /.

فَمَنْ مبلغُ الحجاجَ أن سميرَهُ
قَلَى كلَّ دينٍ غير دينِ الخوارج
رأى الناسَ إلَّا من رأى مثلَ دينِهِ
ملاعينَ ترَّاكينَ قصدَ المخارج

وقد اتهم الخوارجُ خصومَهم بالكفر والإلحاد والغدر، قالت أم عمران بن الحارث الراسبي في رثاء ابنها لما قتل[413]:

أَللهُ أيَّد عمراناً وطهَّرَهُ
وكان عمرانُ يدعو اللّهَ في السَّحَرِ
يدعوه سرّاً وإعلاناً ليرزقَهُ
شهادةً بيدَيْ مِلحادَةٍ غُدُر

ومن ذلك قول قطري يوم دولاب[414]:

ولو شهدتنا يومَ ذاكَ وخيلُنا
تبيحُ من الكُفَّار كلَّ حريم[415]
رأت فتيةً باعُوا الإلهَ نفوسَهُمْ
بجنَّاتِ عدنٍ عندَهُ ونعيم

(٤١٣) شعر الخوارج / ٤٠ /.
(٤١٤) شعر الخوارج / ٤٤ /.
(٤١٥) يقصد بالكفار: مخالفيهم من المسلمين.

ومن تهكمهم على أعدائهم ووصفهم لهم بالجبن والكذب ، قول عيسى بن عاتك[416] :

يقولُ بصيرُهمْ لما رآهمْ — بأن القومَ ولَّوْا هاربينا
أألفا مُؤْمنٍ فيما زَعَمْتُمْ — ويهزِمُهُمْ بآسكَ أربعونا
كَذَبْتُم ليس ذَاكَ كما زَعَمْتُم — ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
همُ الفئةُ القليلةُ غير شكٍّ — على الفئةِ الكثيرةِ يُنْصَرونا

ومن الهجاء الذي لا يخلو من روح التندر والتهكم وصف أعداء الخوارج بالجبن والفرار ، قول الحرث بن خالد المخزومي في فرار عبد العزيز بن عبد الله القائد الأموي من وجه قطري بن الفجاءة ، القائد الخارجي[417] :

فر عبدُ العزيزِ لما رأى الأبـ — ـطالَ في السَّفْحِ نازلُوا قَطَرِيّا
عاهدَ اللّهَ إن نجا من منايا — لَيعودَنَّ بعدَها حَرَمِيَّا
يسكنُ الحلَّ والصفاحَ فغور — ياً مراراً ومرة نجديّاً
حيث لا يشهدُ القتالَ ولا يسـ — ـمع يوماً لِكَرِّ خيلٍ دويّا

---

(٤١٦) شعر الخوارج / ١٤ /.
(٤١٧) الكامل ١٧٤ وشرح النهج ١/٥٢١.

وقال معاذ بن جوين الطائيُّ في عتاب الخوارج[418] :

ألا أيها الشّارون قد حانَ لامرىءٍ
شرى نفسَهُ للّهِ أن يَتَرحَّلَا
أقمتم بدار الخاطئين جهالةً
وكلُّ امرىءٍ منكمْ يُصادُ لِيُقتَلَا
فشدُّوا على القومِ العداةِ فإنَّما
إقامتُكُمْ للذبح رأياً مُضلّلا
ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التي
إذا ذُكرتْ كانتْ أبرَّ وأعدلا

وشبيه بهذا اللوم على القعودُ عن مجاهدة الأعداء، ما كتب به قطري بن الفجاءة إلى أبي خالد القناني (وكان من قعد الخوارج)[419]

أيا خالدٍ يا انفرْ فلستَ بخالدِ وما جعل الرحمنُ عذراً لقاعد
أتزعمُ أن الخارجيَّ على الهدى وأنتَ مقيمٌ بين لصٍّ وجاحِدِ

(٤١٨) شعر الخوارج / ٨ / وابن الأثير ٣/٤٢٨ .
(٤١٩) شعر الخوارج / ٤١ / وأدب السياسة ٢٢٥ .

وقال عيسى بن عاتك في ذم عبيد الله بن زياد[٤٢٠] :

أخـافُ عـقـابَ الله إن مـتُّ راضيـاً
بـحـكـم عبيـد الله ذي الـجور والغدر

وأحـذرُ أنْ ألقـى إلهي ولم أرُعْ
ذوي البغي والإلحادِ في جحفـلٍ مَـجْرِ

ومن نقدهم للدولة وجورها وظلم ولاتها قول مرداس بن أدية[٤٢١] :

وقـد أظهـر الجورَ الـولاةُ وأجمعـوا
على ظلـمِ أهلِ الـحقِّ بالغدرِ والكفرِ

فقـد ضيّقـوا الدنيـا علينـا برحـبِهـا
وقـد تركونـا لا نقـرُّ من الـذُّعـر

وقول عمران بن حطان[٤٢٢] :

حتَّى مَتَى لا نَـرَى عَـدْلاً نعيشُ به
ولا نَـرَى لِـدُعـاةِ الحـقِّ أعْوانـا

ومن نقدهم للمجتمع وما فيه من عيوب كالتزلف والتملق لكسب

---

(٤٢٠) شعر الخوارج / ١٢ /.

(٤٢١) شعر الخوارج / ١١ /.

(٤٢٢) شعر الخوارح / ٢٦ /.

عرض زائل من متاع الدنيا، ما قاله عمران بن حطان للفرزدق وهو ينشد الشعر للتكسب[423]:

أيُّها المادحُ العبادَ لتُعْطَى   إن لِلّـهِ ما بأيـدي العبـادِ
فاسأَلِ اللّهَ ما طلبْتَ إليهمْ   وارجُ فضلَ المقسّم العوّاد
لا تقلْ في الجوادِ ماليسَ فيهِ   وتُسمّي البخيلَ باسمِ الجوادِ

وجدير بالتذكير أنّ الخوارج كانوا يشعرون بوطأة المسؤولية العامة، ولا يلقون بهذه المسؤولية على ولاة الأمور، فمصالح الأمة ومقدرات العباد أمانة ثقيلة، يريدون أن يتحملوا ما يستطيعون منها، وقد سبق وذكرنا أنهم تعاونوا مع عبد الله بن الزبير ظنا منهم أنه سيسير على طريق الحق والخير، فلما يئسوا منه خرجوا عليه وحاربوه، كذلك فقد ناظروا عمر بن عبد العزيز وتوجهت إليه أبصارهم التماساً لما يريدون من إصلاح عنده، فلما يئسوا انصرفوا بآمالهم عنه، وقد كتب له أحد شعرائهم رسالة شعرية يحاول فيها شدّ آخر خيط للرجاء لدى هذا الخليفة، ويحاول توجيهه وإرشاده، فإن لم يستجب، وتبع سابقيه من الخلفاء، فالخوارج على سيرتهم الأولى، والحكم لله والسيف بينهم وبينه.

---

(٤٢٣) شعر الخوارج / ٢٠ /.

كتب عمرو بن ذكينة الربعي إلى عمر بن عبد العزيز لما استخلف[٤٢٤]:

قلْ للمـــولى على الإسلام مؤتنفــــاً
وقــد يــرى أنــه رثٌّ القـــوى واهِ
أزرى به معشـــرٌ غذّوه مأكلــــةً
بنخـوةِ العـــزِّ والإنـــزافِ والبـــاهِ
إنّا شـرينـا بـديـن اللّـهِ أنــفُـسَـــنـــا
نبغـي بذاك إليـهِ أعظـــمَ الـجــاهِ
نهى الولاةَ بـحـدِّ السيـفِ عَنْ سَرَفٍ
كفـــى بذاك لهم من زاجـــرٍ ناهِ
فإنْ قصدتَ سبيـلَ الحـقِّ ياعـمـرُ
آخـاك فـي اللّـهِأمـثـالـي وأشـبـاهـي
وإن لـحقـتَ بقومٍ كنـتَ واحدَهُـمْ
فـي جـورِ سيـرتِـهِـمْ فالـحكـمُ لِلّـهِ

وقد يفتقد متتبع شعر الخوارج نقدهم للغنى ومظاهره، واللهو والمجون والمفاسد الاجتماعية المترتبة على ذلك، ولم يكن ذلك

(٤٢٤) شعر الخوارج / ٦٩ /.

إلا لأن هذه الظواهر غير موجودة في المجتمع الخارجي، وهو مجتمع انتفى فيه الغنى والخمر والترف..

أما المجتمع الإسلامي الآخر الذي كان خاضعاً للدولة الحاكمة سائراً في ركاب الحكام، فقد انتشرت فيه هذه الظواهر الشاذة، وبلغت في بعض الأحيان حداً لم يستطع حتى الشعراء المتكسبون السكوت عليه. وقد رأينا أمثلة من نقد الخوارج لجند المهلب الذين حاربوا لصالح ابن الزبير، وكان أولئك الجند يشتمون عبد الملك بن مروان، ويتبرأون منه، فإذا علموا بمقتل ابن الزبير، انتقلت تبعيتهم وولاؤهم لمن كانوا يشتمون، أي لعبد الملك، وقد سمع عمران بن حطان، وهو من قعد الخوارج، في مرحلة تخفّيه ـــ بعض الجند يقولون: ومالنا لا نقاتل الخوارج؟ أليست أعطياتُنا دارّة؟ فقال يتهكم بهذه الحال[٤٢٥]:

فلو بُعثَتْ بعضُ اليهودِ عليهمُ
يؤمُّهمُ أو بعضُ من قد تَنَصَّرا
لقالوا: رضينا إن أقمتَ عطاءنا
وأجريتَ ذاك الفرض من بُرِّ كسكرا[٤٢٦]

(٤٢٥) شعر الخوارج / ٢٠ /.

(٤٢٦) الفرض: ما يجري للجندي المقاتل، كسكر: اسم أرض بالعراق.

لقد أتيح لهذا الخارجي أن يسمع ويرى من عيوب المجتمع الإسلامي ما لم يتح لغيره من شعراء الخوارج، وذلك لاتصاله بالناس أكثر من غيره، إذ اعتنق المذهب الخارجي متأخراً بتأثير المرأة التي أحبها[٤٢٧] وبذلك يكون قد قضى من حياته شطراً غير يسير بين عامة الناس، وقد كان من قعدة الخوارج الذين لا يرون الخروج المسلح، فتخفّى من السلطة حيناً طويلاً..

لم يشكُ المجتمع الخارجي تفاوتاً اجتماعيّاً من أي نوع، بل عرف التعاطف والتراحم، وإذا دعا شعراؤه إلى الثورة على الظلم، فذلك خارج النطاق الخارجي، قال شاعرهم عمرو بن الحسن الإباضي الكوفي[٤٢٨]:

في فتيـةٍ شرطـوا نُفُوسَهُـمُ ... للمشْرفيَّـةِ والْقَنَـا السُّمْـرِ
متراحميـنَ ذوو يسارِهـمُ ... يَتَعَـطَّفون على ذوي الفقـرِ
وذوو خصاصتِهـم كأنَّهُـمُ ... من صدقِ عفَّتِهـمْ ذوو وَفْـرِ
مُتَجمِّلِيـنَ بطيـبِ خيمهـمُ ... لا يَهْلَعُونَ لِنَبْوةِ الدَّهرِ[٤٢٩]
فكـذاكَ مُثريهمْ ومُقترهـمْ ... أكْـرِمْ بـمقتِرهِـمْ وبالْـمُثري

(٤٢٧) شعر الخوارج ـ مقدمة ص ١٠.

(٤٢٨) شعر الخوارج / ٨٣ /.

(٤٢٩) الخيم: الطبيعة والسجية.

هـ ــ أما في الوصف، فالخوارج مقلّون مقصّرون، لا يعنيهم التقاط صور من الطبيعة، أو مشاهد من يوميات الحياة، يبدعون فيها ويبرزون جوانبها الفنية، ويظهرون من البراعة والتجويد في رسم الصور وتلوينها، ما يثير إعجابَ القارىء، هذه ــ لاشك ــ أمور لا تعنيهم في قليل أو كثير ما دامت لا تتصل بعقيدتهم والترويج لها. فهم لم يصفوا مشاهد البداوة من خيل وليل وصيد ورحيل، على الرغم من أنهم عاشوها، كما أنهم لم يصفوا مشاهد الحضارة، من عمران وحدائق وقصور، إذ لم يتح لهم رؤية شيء منها، ذلك لأن حياتهم كانت ذات طبيعة رحلة وتنقل، يطاردهم الحكام في شعاب الجبال وأطراف البلاد، كما أن زمن العمران العربي والتحضر والاستقرار لم يكن قد جاء في أيام بزوغهم الأول ــ وهو زمان تألقهم السياسي والعسكري والأدبي ــ.

وإذا كان قد ورد في ثنايا أشعارهم شيء من وصف الخيل أو السلاح، فليس الوصف هو الهدف، وإنما يكون ذلك في معرض وصفهم لمعركة أو مبارزة، وهو لمحة لا تتجاوز البيت الواحد، أو الشطر من البيت، كقول أبي الوازع الراسبي(٤٣٠):

(٤٣٠) شعر الخوارج / ٣٤ /.

سأشري ولا أبغي سوى اللّٰه صاحباً

وأبيضَ كالمخراقِ عضب المضارب.

أو قول عطية بن سمرة الليثي[431]

وحسبي من الدنيا دلاصٌ حصينةٌ

ومغفُرها يوماً وصدرُ قناة

وأجردُ محبوكُ السَّراةِ مقلصٌ

شديدٌ أعاليه، وَعَشْرٌ شُراة

وواضح أن الوصف ليس هو الهدف الذي رمى إليه الشاعران من ذكر السيف والدرع والحصان في الأبيات السابقة.

وجلّ وصفهم ينصب على المبارزات المثيرة التي حفل بها تاريخهم الحربي، وإقدام فرسانهم واستشهادهم في ساحات الوغى، وتصوير تعبدهم وتهجدهم، وهذه بالتحديد موضوعات وصفهم ـ على قلته ـ قال سبرة أو (سمرة بن الجعد) في وصف أصحابه[432]:

---

(٤٣١) شعر الخوارج / ٣٢ /.

(٤٣٢) أدب السياسة / ٢٣٤ /، وشعر الخوارج / ٥٠ /.

إلى عصبةٍ أمَّا النَّهار فإنَّهُمْ
هـمُ الأُسْدُ أسْدُ الغيل عند التَّهايج
وأمَّا إذا ما الليلُ جنَّ فإنهم
قيامٌ كأنواحِ النِّساءِ النواشج

وقال عبيدة بن هلال يصف أحد رجاله(٤٣٣):

يهوي فترفعُهُ الرِّماحُ كأنه شِلْوٌ تنشَّب في مخالب ضار
فثوى صريعاً والرماحُ تنوشُهُ إنَ الشُّراةَ قصيرةُ الأعمار

وقال أحد الخوارجِ يصف أصحابه(٤٣٤):

وهمُ الأسودُ لدى العرينِ بسالةً
ومِنَ الخشوعِ كأنَّهُمْ أحبارُ
يمضون قد كسروا الجفونَ إلى الوغى
متبسِّمين وفيهمُ استبشارُ
يرِدون حوماتِ الحِمامِ وإنها
تاللّهِ عندَ نفوسِهِمْ لَصِغارُ

---

(٤٣٣) شعر الخوارج: ٥٢ وشرح النهج: ١/٥٤٠.
(٤٣٤) شعر الخوارج / ١١٦ /.

ومن وصف زهدهم وتقاهم وأخلاقهم قول عمرو بن الحصين العنبري(٤٣٥):

متأهّبونَ لكلِّ صالحةٍ
ناهُونَ من لاقَوا عن النُّكْرِ

صُمتٌ إذا حَضَروا مجالِسَهُمْ
من غير ماعيٍّ بهم يُزري

ألّا تجيئهمُ فإنهمُ
رجفُ القلوبِ بحضرةِ الذّكرِ

متأوِّهونَ كأنَّ جمرَ غضاً
للموتِ بين ضلوعِهِمْ يسري

تلقاهمُ إلّا كأنهمُ
لخشوعهمْ صدروا عن الحشرِ(٤٣٦)

فهمُ كأنَّ بهم جوى مرضٍ
أو مسَّهُمْ طرفٌ مِنَ السِّحْرِ

لاليلهمْ ليلٌ فيلبسهمْ
فيه غواشي النَّومِ بالسُّكْرِ

---

(٤٣٥) شعر الخوارج / ٨٥ / وشرح النهج : ١/٦١٦ .

(٤٣٦) إلّا: من ألّ يئلُ : أي أنَّ وحنَّ ورفع صوته بالدعاء .

وقد وقفت على نص شعريٍّ واحد، ربما كان الهدف منه الوصف الخالص، لشاعر الخوارج الأكبر: عمران بن حطان، وهو شاعر مكثر بالنسبة لشعراء الخوارج، متعدد الموضوعات الشعرية، لم يشارك في الحروب، وإن كان يتعاطف مع المحاربين، قال يصف رجلاً وفرساً، ويرى أن أم الرجل قد أنجبت بولادته(٤٣٧):

قد أنْجَبَتْهُ وأشْبَتْهُ وأعجبَها
لو كان يُعجبُها الإنجاب والحبلُ(٤٣٨)
ثقفٌ حويذٌ مبينُ الكفِّ ناصعُهُ
لا طائشُ الكفّ وقّافٌ ولا كفلُ(٤٣٩)
لم تُلْهِهِ إربةٌ عن رَمْي أسْهُمِهِ
وسيفُهُ لا مصاباةٌ ولا عطلُ(٤٤٠)
عرَّى الرِّكابَ التي قد كانَ يُعملها
واختار أجردَ صهّالاً له خصلُ

(٤٣٧) شعر الخوارج / ٢٧ /.

(٤٣٨) أشبته: حاءت به كشبا السيف أي حده.

(٤٣٩) ثقف: حذق فهم، حويذ: شمر، كفل: لا يثبت على طهر الدابة.

(٤٤٠) الإربة: الحاجة، صابى سيفه: أغمده..

كأنـه فلكـةٌ في كـفِّ فارسه[٤٤١]

إذا جرى وهو حامي العقب منسحلُ

يمشي بشكَّتِـهِ في القـوم مشتـرفٌ

كأنـه قارحٌ بالـدوّ مُبْتَقِـلُ[٤٤٢]

يثنـي الـحبـال بجوزٍ تـمَّ مـخزمـهُ

منه فلا سخـفٌ فيـهِ ولا رهَـلُ[٤٤٣]

وحـارك مثـل شرخ الكـور مرتفـع

وليس في صلبه صعـفٌ ولا عَصـلُ[٤٤٤]

طوعُ القيـاد وَأيٌ تقريبـه خَـذِمٌ

أقـبٌّ كالسّـيدِ لا رطلٌ ولا سغلُ[٤٤٥]

حتـى كأن بعرشيـه ومـحزمـهُ

أشطانَ بئرٍ متـوحٍ غَربُـهـا سَجـلُ

---

(٤٤١) الفلكة: أعلى المغزل ــ مسحل: مسرع في سيرة.

(٤٤٢) الشكة: السلاح ــ الدو: الفلاة ــ مبتقل: يرعى البقل.

(٤٤٣) الجوز: الظهر.

(٤٤٤) الحارك: أعلى الكاهل ــ عصل: اعوجاج.

(٤٤٥) وأى: شديد ــ التقريب: نوع من السير ــ حذم: سهل في عدوه ــ أقب: ضامر ــ السيد: الذئب (حيوان سريع العدو) ــ رطل: لين رخو ــ سغل: متخدد اللحم مهزول.

وفيما عدا هذا لم أعثر في شعر الخوارج على وصف قُصد به مجرد الوصف، إلا ما كان من وصف الطرماح الذي ملأ ديوانه الكبير، لقد تفنن بتصوير مشاهد البادية وحيوانها وكل ما فيها، وكان همه في كل ذلك إظهار المقدرة الفنية واللغوية ومجاراة معاصريه وسابقيه من الشعراء المبرزين في هذا المضمار، كذي الرمة والأعشى والنابغة وامرىء القيس وعبيد بن الأبرص وغيرهم من شعراء الوصف البدوي الخالص، وهذا ما لم يفعله الخوارج ولم يرضوا عن فاعليه، وهو من الأسباب التي دعتني لإخراج الطرماح من عالم الخوارج شعراً وعقيدة..

و ــ وكذا المدح: فيد الخوارج فيه قصيرة، ولا شأن لهم بتجويده وتنميق قصائده، لتقديمها بين يدي خليفة أو أمير، للتقرب أو التكسب فهم جميعاً أعداء الخلفاء والأمراء، وليس من طبعهم ولا من أخلاقهم أو سيرتهم أن يقف أحدهم، شاعراً كان أم غير شاعر، أمام ذي جاه أو سلطان أو مال يمدحه فينال جوائزه، ويقبض ثمن شعره، ويكذب على نفسه، وليس للخوارج شعراء متفرغون، اتخذوا من الشعر حرفة، سخروها لمنافعهم الخاصة.

أما الوجه الثاني للمدح ــ مدح المحبة والإعجاب ــ فإذا

كان قد جاء في شعرهم شيء منه، فقد جاء إشادةً بأبطالهم، وتمجيداً لشجاعتهم، واعتزازاً بتقاهم وورعهم، وهو بصفة عامة يتناول الجماعة لا فرداً واحداً، يقول شاعرهم عمرو بن الحصين العنبري(٤٤٦):

وهمُ مساعرُ في الوغى رُجُحٌ ... وخيارُ مَنْ يَمشي على العفر
حتى وفَوا للّهِ حيثُ لقوا ... بعهودِ لا كذبٍ ولا غدر
فَتَخالَسُوا مُهَجاتِ أنْفُسِهِمْ ... وعداتِهِمْ بقواضبٍ بُتْرِ
وتوقَّدتْ نيرانُ حرْبِهمُ ... ما بينَ أعلى البيت والحجر
وتَفَرَّجتْ عنهمْ كأنَّهُمُ ... لم يُغْمِضُوا جَفْناً على وتْر

والنذر القليل من المدح الذي تخلل أشعارهم، كانت تختلط فيه صور المدح والفخر والوصف والرثاء، يقول عيسى بن عاتك(٤٤٧):

مَضَوا قتلاً وتمزيقاً وصَلباً ... تحومُ عليهمُ طيرٌ وقوعُ
إذا ما الليلُ أظلَمَ كابدوهُ ... فَيَسْفِرُ عَنْهمُ وهُمُ ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُمُ فقاموا ... وأهلُ الأمنِ في الدنيا هجوعُ

---

(٤٤٦) شعر الخوارج: ٨٧ وشرح النهج ١/٦١٥.

(٤٤٧) شعر الخوارج: ١٢.

ومن هذا القبيل قول عمرو بن الحصين[٤٤٨]

متأوهين كأنَّ في أجوافهم ... ناراً تسعِّرُها أكفُّ حواطبِ
تلقاهمُ فتراهمُ من راكعٍ ... أو ساجدٍ متضرعٍ أو ناحبِ
ومبرئين من المعايب أحرزوا ... خصلَ المكارم أتقياءَ أطايبِ
متسربلي حلق الحديد كأنهمْ ... أسدٌ على لحق البطون سلاهبِ

ز ــ ليس الشعر عندهم غاية بحدّ ذاته: بل هو وسيلة للتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم، فليس فيهم شعراء نذروا أنفسهم للشعر، أو وهبوا حياتهم له، ووقفوها عليه، بل هو خواطر تعبر عن لحظات انفعال، لذلك لم يكن شعراؤهم مجوّدين منقّحين منصرفين إلى تقويم نتاجهم الشعري وتثقيفه، فخلا من التلوين وبراعة التفنن اللفظي والمعنوي، ولم يكترث شعراؤهم بتصيد الصور الجميلة، والمعاني البارعة، ولم يجدّوا في طلبها، فغلبت على شعرهم البساطة والعفوية والمباشرة (فكراً وتعبيراً)، كما أنهم لم يجيئوا بالمطولات من القصائد، بل جاء شعرهم مقطوعات جادت بها القرائح عند الحاجة.

لذلك كله لا نستطيع أن نلتمس في شعر الخوارج من

(٤٤٨) شعر الخوارج: ٨٩ والأغاني ٢/١٠٢.

الظواهر الفنية ما نجده عند غيرهم من (الشعراء)، إذ كان شعرهم في أغلبه نفثات تلقائية قصيرة لا مجال فيها لكثير من (التفنن) أو الإبداع، على أنه ـ مع ذلك ـ يستعيض عن الموهبة ـ في كثير من الأحيان ـ بحرارة العاطفة ونفاذ الرأي، وإن اقترب أحياناً أخرى من النظم الذي يفتقد الموهبة الشعرية الحقة. وقد ذكر الدكتور عبد القادر القط[٤٤٩] أننا قد نصادف عند بعضهم مقطوعات ذات نفحة شعرية واضحة، وسمات فنية من التشبيه والمجاز والتجسيم تقترب بالصورة الشعرية مِمَّا نعهده عند الموهوبين من شعراء ذلك العصر، كتلك المقطوعة من شعر قطري بن الفجاءة[٤٥٠]:

يارُبَّ ظلِّ عقابٍ قد وَقيتُ بها
مُهري من الشَّمْسِ والأبطالُ تَجْتَلِدُ[٤٥١]
وربَّ يومِ حمىً أرعيتُ عقْوتَهُ
خيلي اقتصاراً، وأطرافُ القنا قِصَدُ[٤٥٢]

---

(٤٤٩) في الشعر الإسلامي والأموي: ٣٧٧.

(٤٥٠) شعر الخوارج: ٤٢.

(٤٥١) العَقاب: الراية.

(٤٥٢) العقوة: الساحة، قصد: مكسرة.

ويومَ لهوٍ لأهلِ الْخَفْضِ، ظلَّ به
لَهْوي اصْطِلاءَ الوغى أو ناره تقدُ
مشهّراً موقفي، والحربُ كاشفةٌ
عنها القناعَ، وبحرُ الموتِ يطَّردُ
وربَّ هاجرةٍ تغلي مراجلُها
مخرتُها بمطايا غارةٍ تخدُ[453]
تجتابُ أوديةَ الأفزاع آمنةً
كأنَّها أُسُدٌ تقتادُها أُسُدُ[454]
فإن أمتْ حَتْفَ نفسي لا أمتْ كمداً
على الطِّعانِ، وقصرُ العاجزِ الْكَمَدُ
ولم أقلْ: لم أساقِ الموتَ شاربَهُ
في كأسِهِ، والمنايا شُرَّعٌ وُرُدُ

ولنستمع إلى هذه البساطة المؤثرة، التي تتضمن الحكمة البالغة والوضوح وحسن التناول، قال عمران بن حطان[455]:

يأسفُ المرءُ على ما فاتَهُ من لباناتٍ إذا لم يَقْضِهَا

(٤٥٣) تخد: تسرع.

(٤٥٤) الأفزاع: المخاوف.

(٤٥٥) من ديوان المعاني ٣٥٧/٢ وشعر الخوارج: ١٩.

وتراهُ فَرِحاً مُسْتَبْشِراً　　بالَّتي أَمْضى كأنْ لَمْ يُمضِها
عَجَباً من فرحِ النَّفْسِ بها　　بَعْدَ ما قد خرجتْ من قبضِها
أنا عندي ذاق أحلام الكرى　　لقريب بعضها من بعضها

وشبيه بهذا النهج قوله مخاطباً الفرزدق وقد رآه ينشد الشعر بالمربد والناسُ من حوله[٤٥٦]:

أيُّها المادحُ العبادَ ليُعْطَى　　إنَّ لِلّه ما بأيدي العباد
فاسأَلِ اللّهَ ما طلبتَ إليهمْ　　وارجُ فضلَ المقسِّمِ العوّاد
لا تقلْ في الْجَوَادِ ما ليسَ فيهِ　　وتسمِّ البخيلَ باسمِ الْجَوَاد

ومن النصوص التي تتصف بالمباشرة والبساطة، ولكنها عامرة بالصدق والإيمان والفهم البليغ لواقع الحياة، قول قطري بن الفجاءة[٤٥٧]:

أقول لها وقد طارت شعاعاً
مِنَ الأبطالِ: ويْحَكِ لَنْ تراعي
فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ
على الأجل الذي لكِ لم تُطاعي

(٤٥٦) شعر الخوارج: ٢٠.
(٤٥٧) شعر الخوارج: ٤٢ وشرح النهج ١/٤٠٠ وشعر الحرب: ٤٩.

فصبراً في مجال الموتِ صبراً
فما نيلُ الخُلُودِ بمُسْتَطاعِ

ولاثوبُ البَقاءِ بثوبِ عزٍّ
فيُطوى عن أخي الْخَنَعِ اليراعِ[٤٥٨]

سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حيٍّ
فداعيه لِأَهْلِ الأرضِ داعِ

ومن لا يعتبطْ يسأمْ ويهرمْ
وتُسْلِمْهُ المنونُ إلى انقطاعِ[٤٥٩]

ومالِلْمرءِ خيرٌ في حياةٍ
إذا ماعُدَّ من سقطِ المتاعِ

إننا نسمع في هذه الأمثلة من شعرهم، بلاغة البساطة، وعمق الحكمة، وروعة السهولة والوضوح في التعبير،والبعد كل البعد عن التكلف والتقعر وطلب الغريب.

لقد كان هذا الشعر القليل وعاءً شفافاً صبّوا فيه آراءهم ومعتقداتهم دون ماتطلع إلى شهرة أدبية، أو تفوُّق شعري، أو

---

(٤٥٨) أخو الخنع: الذليل، اليراع: الجبان.

(٤٥٩) يعتبط: يموت من غير علة.

منافسة أحد على شيء ماديّ أو غير مادي، ومع ذلك فقد لمعت بين أبيات هذا الشعر، الفكرة الجميلة والجديدة عن غير قصد أو طلب من أصحابها، جاء بها الصدق والعفوية والواقعية، من ذلك فكرة (موت الموت) عند عمران بن حطان قال[٤٦٠]:

لا يعجــزُ الموتَ شيءٌ دونَ خالقِـــهِ
والموتُ فانٍ إذا ما نالَــهُ الأجـــلُ
وكل كربٍ أمــامَ الموتِ متَّضـــعٌ
للمـوتِ، والموتُ فيما بعـده جَلَـلُ

ومن العجب حقاً أن يهتديَ هذا البدوي الساذج إلى أن يميت الموت!

إن ما ورد في شعرهم من جمال فني، لم يكن نتيجة سعي أو جهد بذلوه للوقوع عليه، مما يؤكد أن الشعر لم يكن هدفاً عندهم..

ح ــ خلوّ شعرهم من العصبية القبلية:

ومن أسباب قلة شعر الخوارج ــ بالنسبة لغيرهم ــ خلوه

---

(٤٦٠) شعر الخوارج: ٢٨.

من العصبية القبلية، وهي باب من الشعر واسع، أغنى دواوين الشعراء، وإذا كانت العصبية القبلية (القحطانية) تملأ ديوان الطرماح الشاعر الكبير الذي يعرفه الناس بشاعر الخوارج، فسوف نرى في القسم الثاني من هذه الدراسة تصحيحاً لهذا الخطأ الشائع (عن خارجية الطرماح).

ليس في شعر الخوارج أثر للعصبية القبلية أو الجنسية، فقد صهرهم الإسلام ومذهبهم الخارجي بشكل أخص في قالب واحد، وأحل العقيدة محل العصبية:

فنحن بنو الإسلامِ واللّٰهُ واحدٌ
وَأَوْلى عبادِ اللّٰهِ باللّٰه من شكر[461]

وقد رأينا كيف سارع عددٌ كبير من الموالي والمستضعفين والعبيد، لاعتناق المذهب الخارجي، لما رأوا فيه من العدالة والمساواة، رأوا مجتمعاً خالياً من العبيد والأسياد، والفقراء والأغنياء، تنتفي فيه كل أشكال الطبقية، فلا أشراف ولا أغنياء، ولا عرب وعجم، وإن المتأمل لمبادئهم الديموقراطية، ونظرتهم إلى الخلافة بشكل خاص، يعرف مدى جماعيتهم، وخلو مجتمعهم من

(٤٦١) البيت لعمران بن حطان.

الخاصة والعامة، ولابد ــ والحالة هذه ــ أن يخلو شعرهم مما خلت منه حياتهم، ومعروف أن شعرهم كان صورة صادقة عن حياتهم.

لقد كان بين شعرائهم بعض الموالي الذين تمرسوا بالعقيدة الخارجية كالشاعر الفارسي عمرو بن الحصين (مولى تميم)، لكنه كان عربيّاً خارجياً في شعره، لا أثر للعنصر ولا للجنس ولا للقومية الفارسية في كل ما قال أو فعل، وإذا كان قد علق في فنه الشعري شيء غير خارجي، فذلك لا يتعلق بمبادىء الخوارج وقيمهم الروحية وأخلاقهم العامة، بل ربما تعلق بالنواحي الفنية، كالدقة والاستقصاء، وإطالة القصيدة وحسن تنسيقها، وقد وقفنا له على قصيدتين تنفردان بين شعر الخوارج بما ذكرنا من صفات (الإطالة والدقة والاستقصاء) وسأوردهما كما عثرت عليهما في آخر هذه الدراسة لما في ذلك من فائدة.

وعلى عكس ما ذكرنا من اندماج الموالي في الخوارج وصدق انتمائهم وذوبان شخصيتهم فيهم، فإننا نرى شعراء الأحزاب الأخرى، يُقدّمون انتماءهم إلى قبائلهم ودفاعهم عنها واعتزازهم بها، على أي انتماء سياسي.

فالنزعة القرشية طاغية على شعر ابن قيس الرقيات، شاعر

الزبيرية، والانتماء التغلبي أوضح عند الأخطل من ولائه لبني أمية، وذلك لحفاوته بقومه والانتصار لهم، يقدم ذلك على ولائه للعرش الأموي، كذلك فجرير والفرزدق شاعرا قبيلتهما قبل أن يكونا شاعري بني أمية، وحتى الكميت شاعر الشيعة المعروف، كان تعصبه للعدنانية، ومنافحته عنها بالشعر، مقدماً على شيعيته، ومحاجته لخصوم آل أبي طالب، كان مستعداً لبذل ما دون روحه من أجل الهاشميين، كان جوابه لزيد بن علي حينما ثار على هشام بن عبد الملك، وقد طلب منه زيد أن يثور معه ـــ كان جوابه(٤٦٢) :

تجودُ لكم نفسي بما دونَ وثبةٍ تظلُّ لها الغربانُ حوليَ تحجلُ

أما شاعر الخوارج الفارسي عمرو بن الحصين فيقول في رثائه لقتلى موقعة قديد(٤٦٣) :

يارَبّ اسْلِكْني سبيلَهُــــمُ ذا العرشِ، واشدد بالتقى أزري

ومن درس التركيب الاجتماعي للخوارج ـــ قمةً وقاعدة ـــ وجد أنهم تَجَمُّعٌ غير متجانس القبائل:

---

(٤٦٢) أدب السياسة ٢٤٠.

(٤٦٣) شعر الخوارج: ٨٤.

عصائب من شتــــى يؤلــــف بينها
تُقى الله نـزّالون عند التزاحف[٤٦٤]

ووجد أن الخارجي قد يلتقي بابن قبيلته ـــ إذا كان خصماً عقائدياً له ـــ فيقاتله ويقتله دون أن تتدخل العصبية القبليـة بعواطفـه ومواقفه، وسبق أن ذكرنا أنه لما ثار ابن طريف (الشيباني) على الرشيد سنة ١٧٩ هـ رماه بابن قبيلته يزيد بن مزيد (الشيباني) فقتله[٤٦٥]

نخلص للقول: إن الخوارج مبرؤون من العصبية القبلية أو الجنسية في كل حالاتهم: في سياستهم وفي نظامهم الاجتماعي، ثم في شعرهم، وإذا كان لابد من ذكر كلمة (عصبية) فإنها العصبية الإسلامية الخارجية.

ط ـــ ضياع قسم كبير منه:

كان لابد من ضياع أو تضييع قسم كبير من أدب الخوارج

---

(٤٦٤) البيت للطرماح.

(٤٦٥) البيـان والتبــيين: ٣٤٢/٢ وشرح النهج ٥٩١/١ وضحـــى الإسلام: ٣٤٥/٣ ـــ ٣٤٦.

بعامة، وشعرهم بشكل خاص، ما دام هذا الأدب وذاك الشعر لا يخدمان الأنظمة القائمة آنذاك، ولا يتوقع أحد أن يُروى أو يُسجل شعر يسفّه آراء الخلفاء والأمراء ويكفّرهم، وهم أهل العقد والحلّ في كل الأمور، هم الذين يحجرون نوعاً من الفكر والأدب، ويروجون لنوع آخر، وإذا كان قد تسرب من شعر الخوارج أو أدبهم شيء عبر ذلك الحصار المضروب عليه، فإن ذلك فوت الحرص ــ كما يسمونه ــ وليس الحكام وحدهم أعداء الخوارج، بل المؤرخون والمؤلفون والكتاب الذين كتبوا عنهم، كانوا أعداءً لهم.

إن معظم ما وصلنا عنهم من أخبار أو أشعار كان عن أحوالهم في العصر الأموي، ولكن تسجيل ذلك وروايته لم يكن في العصر الأموي، بل كان في العصر العباسي، أما أخبارهم وأشعارهم في العصر العباسي فكانت قليلة وسبب ذلك فيما أرى:

١ ــ ضعف أمرهم في ذلك العصر، وضعف شعرهم تبعاً لذلك.

٢ ــ إن الذين كتبوا عنهم في العصر العباسي لم يكونوا يخافون

السلطان القائم ما دامت كتابتهم تتعلق بخصومهم الأمويين، ولكن ذلك لم يكن مسموحاً إذا كان يتعلق بهم.

وإذا أضفنا أنه لم يكن للخوارج مؤلفون منهم، أخذوا على عاتقهم وضع تاريخهم وكتبوا بصدق وأمانة وواقعية مجمل أمورهم ورووا أشعارهم بجملتها، علمنا مدى احتمال فقدان القسم الأكبر من تلك الأشعار، ما دامت روايتها منوطة بأعدائهم..

وعن قلة شعر الخوارج قال الدكتور إحسان عباس[٤٦٦]: «يتبين لنا من مراجعة شعر الخوارج أن الموضوعات الشعرية التقليدية فيه، قد أصيبت بالاستحالة، فاستحال المدح في سبيل الرزق ثناء على الشراة أنفسهم، واقتصر الرثاء على الإخوان والأصدقاء الذين ضحوا بأنفسهم خدمة لعقيدتهم، وأصبح الهجاء نقداً لروح التخاذل والارتداد، ولم يبق هنالك إلا أثارة يسيرة من غزل وهجاء فردي، وإلا فخر موجه تحت راية المبادىء السامية والرغبة في الاستشهاد».

---

(٤٦٦) مقدمة شعر الخوارج: ١٦.

وقال الدكتور عبد القادر القط في هذا الموضوع[٤٦٧]

« والحق أن هؤلاء الشعراء المقلين قد نبذوا سبيل كبار الشعراء في ذلك العصر ، ورفضوا ما كانوا يرون من ارتزاقهم بالشعر وسيرهم في ركاب الخلفاء والأمراء والولاة والقواد والسراة . وأدانوا ذلك السلوك من موقفهم الديني الذي منه انطلقت آراؤهم وألوان سلوكهم ،... فليس في حياة الخارجي مجال لذلك الغزل التقليدي الذي تفتتح به القصائد الطويلة ـــ وهو على أية حال يندر أن يكتب قصيدة طويلة ـــ ولامجال كذلك للوقوف على الأطلال ، أو وصف الرحلة البعيدة إلى الممدوح ، أو الحديث المفصل عن وقائع الجاهلية ، وأنساب القبائل والآباء والأجداد ، ومكانهم من الضعة والشرف ، مادام الشاعر يرفض التفاخر بالأنساب ، ويرى أن أكرم الناس عند الله أتقاهم » ..

وأخيراً ، فقد جمع الدكتور إحسان عباس ، كل شعر الخوارج ، وبذل جهداً مشكوراً ، في التنقيب والاستقصاء ، لاستخراجه من مظانّه ، فكان ما جمعه من شعر صحيح النسبة ،

---

(٤٦٧) في الشعر الإسلامي والأموي : ٣٧٨ .

وغير صحيحها، لا يزيد عن مئة وعشرين صفحة من القطع المتوسط، لأكثر من خمسةٍ وستين شاعراً، ومنها ثلاث مقطوعات للطرماح، هي ما ظنَّ المؤلف أنها تنتسب للشعر الخارجي، وفيها كذلك شروح للمفردات الصعبة، وتعليقات وغير ذلك.. الخ..

٢ ــ أثر العقيدة في شعرهم

انصبَّتْ أشعار الخوارج في جملتها بقالب الدعوة الخارجية، وما تشتمل عليه من التزام صارم بالإسلام، وإبراز الجانب السياسي، وقضية الديموقراطية السياسية والاجتماعية التي أرادوها لمدينتهم الفاضلة، وبرز في شعرهم تفضيل ما يعتنقون من مبادىء، وتأييد الجوانب الإيجابية فيها، ووصف الرجال الذين يدينون بها وتخطئة خصومهم، تشترك في ذلك جميع نصوصهم الشعرية حتى ليمكن أن نقول: إن لشعرهم موضوعاً واحداً هو: العقيدة الخارجية، فكل روافد هذا الشعر تصب في هذا النهر الكبير، ولو تناولنا بالدراسة أي نص من أشعارهم دون اختيار، أو قصد، ومن غير توقف، لنستشهد به على ما نقول، لوجدناه واقعاً في موضع الاستشهاد، فالطابع الخارجي واضح على كل ما قالوه من شعر.

قال معاذ بن جوين، وقد هم المغيرة بن شعبة بنفي الخوارج من الكوفة(٤٦٨)

أَلَا أيُّهـا الشارون قد حانَ لامرىء
شـرى نَفْسَهُ لِلّٰهِ أنْ يتـرحَّـلَا

أقمتـمْ بدارِ الخاطـئين جهالـةً
وكـلُّ امرىءٍ منكـم يُصادُ ليُقْتَـلَا

فشـدُّوا على القـومِ الْعُـداةِ فإنَّمـا
إقامتُكـم للذبـح رأيـاً مضلَّـلا

أَلَا فاقصـدُوا ياقـومُ للغايـة التـي
إذا ذُكـرتْ كانت أبـرَّ وأعـدلا

وقال أبو بلال مرداس بن أدية حين عزم على الخروج(٤٦٩):
إلهيَ هـبْ لي زُلفـةً ووسيلـةً
إلَيـكَ فإنِّي قَدْ سَئِمْـتُ من الدَّهْـر

(٤٦٨) شعر الخوارج: ٨ وأدب السياسة: ٢٢٤ والطبري ١٠٧/٦ وابن الأثير ٤٢٨/٣.

(٤٦٩) شعر الخوارج: ١١.

وقد أظهرَ الجورَ الولاةُ وأجمعوا
على ظلم أهل الحق بالْغدرِ والكفْر

وفيك إلهي إن أردتَ مغيّرٌ
لكلٍّ الذي يأتي إلينا بنو صَخْر

فقد ضيَّقُوا الدنيا علينا برحبها
وقد تركونا لانقرُّ من الذّعْر

فياربّ لاتُسلمْ ولاتك للرَّدى
وأيّدْهُمُ ياربّ بالنَّصْرِ والصَّبْر

ويسِّرْ لنا خيراً ولاتحرمنَّنا
لقاءَ ذوي الإلحادِ في عَددٍ دَثْر[470]

وقال عمران بن حطان عن الدنيا[471]:

أرَى أشْقِياءَ النَّاسِ لايَسْأمونَها
على أنَّهُمْ فيها عراةٌ و جُوَّعُ

(٤٧٠) الدثر: الكثير.

(٤٧١) شعر الخوارج: ١٧.

أراها وإنْ كانـت تُحـبُّ فإنَّهـا
سَحَابَةُ صيفٍ عَنْ قليـلٍ تَقَـشَّعُ

وقال عطية بن سمرة الليثي[٤٧٢]:

وحَسْبي مِنَ الدُّنيا دِلاصٌ حصينـةٌ
ومغفـرُهـا يومـاً وصدرُ قنـاةِ
وأجـردُ محبـوك السراة مقلّـصٌ
شديـدٌ أعاليـه وعَشْـرُ شُراةِ
فابلـغَ منـه حاجتـي وبصيرتي
وأشفـيَ نفسي من ولاةِ طغـاةِ

وإذا كانت هذه هي صورة الخارجي الشجاع، فقد رسموا صورة الخصم الجبان، قال عمران بن حطـان يشمت بفـرار الحجاج من غزالة الخارجية وكان قد لج في طلبه[٤٧٣]:

أسـدٌ علـيَّ وفي الحروبِ نعامـةٌ
ربـداءُ تجفـلُ من صفير الصّافـر

(٤٧٢) شعر الخوارج: ٣٢.

(٤٧٣) شعر الخوارج: ٢٥ والبيان والتبيين: ١٢٨.

هــلَّا بَــرَزْتَ إلى غزالــةَ في الوغــى
بَلْ كان قلــبُكَ في جَناحَــيْ طائــرِ

صَــدَعَتْ غزالـــة قَلبَـــهُ بفـــوارسٍ
تركتْ منابـــرَهُ كأمسِ الدَّابـــرِ

ألقِ الـسِّلاحَ وخُـذْ وشاحَـيْ مُعْصـرٍ
واعمـدْ لمنزلـة الجبـان الكافـرِ[474]

يالها من منزلة مهينة ذليلة (منزلة الجبان الكافر).

لقد سخروا من خصومهم وسفهوا آراءهم، وأيدوا عقيدتهم وحامليها، قال عيسى بن عاتك في فرار ألفين من جند الأمويين أمام أربعين من الخوارج[475]:

فلما أصبحـوا صلُّـوا وقامـوا ... إلى الجُردِ العتـاقِ مُسوَّمينـا
فلمَّا استجمعوا حَمَلُوا عليهـمْ ... فظـلَّ ذوو الجعائـل يُقتلونـا
يقولُ بصيرُهـم لمَّـا رآهُـمْ ... بأَنَّ القـومَ وَلَّـوْا هاربينـا

(٤٧٤) المعصر: الفتاة عند بلوغها عصر الشباب.
(٤٧٥) شعر الخوارج: ١٤ وشرح النهج ١/٥٩٦ ومن ديوان المعاني ٢/٦٢٤ والكامل للمبرد: ٨٥.

أألفا مؤمنٍ ــ فيما زعَمْتُمْ ــ ويَهزِمُهم بآسكَ أربعونا
كذبتُمْ لَيْسَ ذاكَ كما زعَمْتُمْ ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
همُ الفئةُ القليلةُ غير شكٍّ على الفئة الكثيرة يُنصرونا

وطلب الموت وحب الشهادة من ألصق الصور بالرجل الخارجي، يمثل ذلك البهلول في قوله[٤٧٦]:

مَنْ كانَ يكرهُ أن يلقى مَنيَّتَهُ
فالموتُ أشهى إلى قلبي من العسلِ
فَلَا التَّقدُّم في الهيجاءِ يُعجلُني
ولا الحذارُ يُنجِّيني من الأجَلِ

ولا تكتمل صورة الخارجي إلَّا بعرض مشهد العابد الزاهد المتجلي بأكمل الصفات[٤٧٧]

متأهّبون لكلّ صالحةٍ ناهونَ من لاقوْا عَنِ النُّكْرِ
صمتٌ إذا حضروا مجالِسَهُمْ من غيرِ ماعيٍّ بهم يزري
متأوِّهون كأنَّ جمرَ غضاً للموتِ بين ضلوعِهم يسري

---

(٤٧٦) شعر الخوارج: ٧٣.

(٤٧٧) عمرو بن الحصين ــ شعر الخوارج: ٨٤ ــ وشرح النهج ٦١٦/٠.

لا ليلهم ليلٌ فيلبسهم فيه غواشي النومِ بالسُّكْرِ
إلا كرى خلساً وآونةً حذر العقابِ فهمْ على ذُعْرِ

وكذا شعر الخوارج كله، تتردد فيه أصداء العقيدة الخارجية، ينبع منها ويصب فيها.

٣ ــ الطابع الإسلامي: (في التعبير والتفكير)

إنهم يصدرون في كل أفعالهم، عن عقيدة إسلامية خالصة، صافية من الشوائب، خالية من الفلسفات والتأويلات والتعقيدات، فكر واضح وعقيدة ظاهرة، تتفجر من ألسنتهم دونما عناء أو تكلف، وكما أنهم يصدرون عن مثل هذه العقيدة، فهم يعبرون عن ذلك بمثل الصفاء والصدق السابقيْ الذكر، وبلغة علقت فيها عبارات القرآن الكريم والحديث الشريف، وتمثلت فيها روح الإسلام وصفاؤه ونقاؤه، وسبب ذلك كله أن القرآن أكبر مصدر لثقافتهم، ــ إن لم نقل هو مصدرها الوحيد ــ فهم حفظة القرآن والمتصلون به، ليس لديهم كتب أخرى، ولا ثقافات متنوعة تلون شعرهم، فهم مدينون له بدينهم أولاً وبلغتهم وشعرهم ثانياً.

يقول عيسى بن عاتك[٤٧٨]:

(٤٧٨) شعر الخوارج: ١٣.

أبي الإسلامُ لاأبَ لي سواهُ إذا فخـــروا ببكـــر أو تميم

ويقول عن الخوارج[٤٧٩] :

همُ الفئة القليلة دون شـكٍّ على الفئـة الكـثيرة يُنصرونـا

وهذا مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئـةً كثيرة بإذن الله واللّـهُ مع الصابرين﴾[٤٨٠] وقد عرفنا من دراسة مذهبهم أنهم يدينـون بما جاء به الإسلام من مساواة، فلاتفـاضل بالأحساب والأنساب، وإنما التفـاضل بالتقـــوى والصلاح، فقد تعمَّق الإسلام في نفوسهم حتى سلَّ منها دعاوى الجاهلية كلها من عزة النسب والمال والجاه، وأحلَّ محلَّها مقاييس جديدة، هي مقاييس الإسلام، لقد أسقطوا من حساباتهم مقولة : الأئمة من قريش : لمنافاتها لروح الإسلام ومساواته وعدالته، يقول شاعرهم عمران بن حطان[٤٨١] :

ونحن بنو الإسلام واللّـهُ واحدٌ وأولى عبادِ اللّـهِ بالله من شكر

من معنى الآية الكريمة : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٤٨٢]

---

(٤٧٩) شعر الخوارج : ١٤.

(٤٨٠) سورة البقرة / ٢٤٩ /.

(٤٨١) شعر الخوارج : ٢٥.

(٤٨٢) الحجرات الآية / ١٣ /.

كذلك فإن وضوح شعرهم وبساطته هما أثران إسلاميان، إذ إنهما ناتجان عن وضوح عقيدتهم وبساطتها.

وبذلك يكون شعرهم نتاجاً إسلامياً بروحه وأساليبه وأغراضه وألفاظه.

تمثل الخوارج تعاليم الإسلام في شتى النواحي، وأخذوا أنفسهم بما طلب من تضحية في سبيل المبادىء السامية، واستهانة بالموت ورغبة بالآخرة، ولكنهم بالغوا فيما مارسوا من عبادات ومعتقدات، إذ تجاوزوا ما طلب الإسلام وما فرض، إلى ما لم يطلب وما لم يفرض، وألزموا أنفسهم بما لم يلزمهم به الدين، فكان الخارجي أكثر من مسلم عادي يمارس الشعائر المفروضة..

لم يطلب الإسلام من المسلم أن يقضيَ ليله تهجداً وتعبداً، ونهاره جهاداً وقتالاً في سبيل الله، لم يطالب أتباعه أن يكونوا شعث الشعور، غبر الوجوه أكلت الأرض جباههم وأيديهم من طول السجود، حتى كأنهم صدروا عن الحشر كما قال شاعرهم عمرو بن الحصين في وصفهم(٤٨٣):

تلقاهُـــمُ إلّا فتحسبهُـــمْ   لخشوعِهم صدروا عن الحشرِ

(٤٨٣) شعر الخوارج: ٨٤.

بل على العكس من ذلك تماماً، فقد حض الإسلام على الأخذ بنصيب أوفر من زينة الحياة الدنيا والتمتع بطيباتها، وهذا ما لم يفعله الخوارج، بل حرّموه على أنفسهم طوعاً واختياراً، فظهر ذلك في شعرهم تشدداً وغلواً وتضييقاً، لم يطالبهم الإسلام أن يكونوا كما قال عمرو بن الحصين[٤٨٤]:

متأوّهون كأنَّ جمْرَ غضاً ... للخوفِ بينَ ضلوعِهِمْ يَسري

تلقاهُمُ إلّا فتحسَبُهُمْ ... لخشوعهم صدروا عن الحشْرِ

لا ليلهم ليلٌ فتلبسهمْ ... فيه غواشي النومِ بالسُّكرِ

إلّا تجيئهمُ فإنهُمُ ... رجفُ القلوبِ بحضرةِ الذكرِ

أو كما قال الأصم الضبي، قيس بن عبد الله[٤٨٥]:

قومٌ إذا ذُكِّروا باللّهِ أو ذكروا ... خرّوا من الخوف للأذقانِ والركَبِ

إنهم يراقبون الله في كل حركاتهم ويخافونه خوفاً شديداً، قال الحسن بن عمرو الإباضي[٤٨٦]:

---

(٤٨٤) شعر الخوارج: ٨٥ وشرح النهج ٦١٦/١.

(٤٨٥) شعر الخوارج: ٥٦.

(٤٨٦) شعر الخوارج: ٩١.

إذا ما خلوتَ الدَّهْرَ يوماً فلا تَقُلْ:
خلوتُ، ولكنْ قُلْ: عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللّهَ يغفلُ ساعةً
ولا أن ما يَخفى عليهِ يَغيبُ

٤ ــ العروبة الخالصة

فقد كان شعر الخوارج نتاجاً عربياً صرفاً، لم تتمازج فيه الثقافات، إذ لم يكن عصر تمازج الثقافات والاختلاط الفكري والاجتماعي قد بدأ عند نشأة الخوارج الأولى (قبيل منتصف القرن الأول الهجري)، فلم يكن العرب قد اختلطوا بغيرهم من الأمم آنذاك، ولم يكن عهد الموالي والشعوبية، والنفوذ الفكري والسياسي للأعاجم قد شق طريقه إلى أرض الدولة العربية، لذا حافظ الخوارج على نقاء اللغة، وعروبة الأسلوب، وصفاء الديباجة، وعندما جاء عصر الاختلاط والتمازج الثقافي والتأثر الحضاري، كانوا قد كونوا شخصيتهم الأدبية، وتبلورت أساليبهم، ومن جهة أخرى لم يُتح للخوارج ــ بحكم وضعهم المعارض ــ أن يستقروا في المدن والعواصم الثقافية، حتى يعيشوا الحركة الفكرية ويتأثروا بها، بل كانوا مطارَدين ملاحَقين في الأقاصي من أطراف المملكة

الإسلامية، فلا سبيل للتأثر الذي عم الأدب العربي في الحواضر، وما دامت أنماط حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية والمعاشية لم تتغير، فلابد أن يبقى شعرهم محافظاً على طابعه العربي الخالص تبعاً لذلك.

صحيح إن قسماً من الموالي قد اعتنقوا المذهب الخارجي، واستهوتهم مبادئه الديموقراطية وعدالته، وأصبح بعضهم من شعراء الخوارج كغيرهم من العرب، لكن الحركة الخارجية العربية استوعبتهم فنياً كما استوعبتهم فكرياً وعقائدياً، وصهرتهم في قالبها الخارجي، واحتوتهم فكانوا خوارج تماماً. وربما كان أكبر شعراء الخوارج مولىً فارسياً وهو: عمرو بن الحصين، كان مولىً لبني تميم، اعتنق المذهب الخارجي وأبلى فيه قولاً وعملاً، كان ابن الحصين هذا شاعراً مميَّزاً: امتاز بطول النَّفَس واكتمال عناصر القصيدة، والدقة والاستقصاء، والإحاطة بجوانب الموضوع وجزئياته، كما لم يفعله شاعر عربي من الخوارج، وأسلوبه مع ذلك جزل فيه صفاء لغوي رائع، وقد اختلف شعره عن شعر عامة الخوارج، بالإطالة والعناية ببناء القصيدة وبراعة القصص مما قد يكون له علاقة بأصله الفارسي، أما من حيث عروبة شعره فهو عربي خارجي لا غبار عليه: له قصيدتان طويلتان قياساً بشعر

الخوارج : قال الأولى يوم قديد سنة ١٣٠ هـ وقال الثانية في رثاء أبي حمزة الخارجي وعبد الله بن يحيى الكندي ــ طالب الحق ــ وكلتا القصيدتين من صميم المذهب الخارجي .

ولا أعتقد أن المحافظة على هيكل القصيدة العربية في الجاهلية ، والتقيد بطريقتها والأخذ بخشونة الألفاظ والصور ، لا أعتقد أن ذلك من أساسيات العروبة في الشعر ، فالخوارج مزجوا العروبة بالإسلام ، فَرَقَّ شعرهم ولَانَ وخرج على العمود مع المحافظة على الصفاء العربي والأصالة العربية .

٥ ــ جماعية شعرهم ، وتشابه الشعر والشعراء

الخوارج ــ كما هو معروف ــ ديموقراطيون جمهوريون في نظريتهم السياسية وممارساتهم الحياتية ، جماعيون في حربهم وسلمهم وجميع أمورهم الأخرى ، لذلك فإن أدبهم جاء جماعياً ينطق باسمهم جميعاً ويعبر عن آرائهم ومشاعرهم كجماعة ، فلا نلمح فردية الشاعر العربي المعتز بذاته ، ولا نرى (الأنا) العربية تتردد في أشعارهم ، وشاعرهم لا يتحدث بضمير المفرد ، غائباً كان أم متكلماً أم مخاطباً ، بل نسمع : هم .. نحن .. أنتم .. الخ ..

هُمُ الفئةِ القليلةُ غير شكٍّ   على الفئةِ الكثيرة يُنصرونا

و

ونحن بنو الإسلامِ واللهُ واحدٌ ... وأولى عبادِ اللهِ باللهِ من شكرْ

و

في فتيةٍ شرطوا نفوسَهُمُ ... للمشرفية والقنا السُّمرِ
متراحمين ذوو يسارهمُ ... يتعطّفونَ على ذوي الفقرِ
وذوو خصاصتهم كأنَّهمُ ... من صِدْقِ عفَّتهمْ ذوو وَفْرِ
مُتجمِّلينَ بطيبِ خيمهمُ ... لا يَهْلعونَ لِنَبوةِ الدَّهرِ

و

تاللهِ ألقى الدَّهرَ مثلَهمُ ... حتى أكونَ رهينةَ القَبْرِ
أوفى بذمَّتِهمْ إذا عَقَدوا ... وأعَفَّ عندَ العُسْرِ واليُسْرِ
مُتَأهّبُونَ لكلِّ صالحةٍ ... ناهُونَ مَنْ لاقوا عنِ النكرِ
إلا تجيئهُمُ فإنَهُمُ ... رجفُ القلوبِ بحضرةِ الذكرِ
متأوِّهونَ كأنَّ جمرَ غضاً ... للموتِ بينَ ضلوعهمْ يَسْري
تلقاهمُ إلّا كأنهُمُ ... لِخشوعهم صدروا عن الحشرِ
فهمُ كأنَّ بهمْ جوى مرضٍ ... أو مسَّهُمْ طرفٌ من السحرِ

و

ومن يخشى أظفار المنايا فإننا ... لبسنا لهنّ السابغات من الصبرِ

وإن كريهَ الموت عذبٌ مذاقه إذا ما مزجناهُ بطيبة الذكر(٤٨٧)

إلى آخر هذه النغمات المتشابهة الناطقة بضمائر الجمع.

ومن الغريب أن يأتيَ الغزل جماعياً في أشعارهم، وهو كما نعلم عاطفة فرديّة لا تصح الشراكة فيها يقول قطري بن الفجاءة(٤٨٨):

فلو شهدَتْنا يومَ ذاك وخيلُنا تُبيحُ من الكفّار كلَّ حريم
رأتْ فتيةً باعوا الإلهَ نفوسَهمْ بجنَّاتِ عَدْنٍ عندَهُ ونعيم

وقول الآخر:

ليت الحرائرَ بالعراق شهِدْننا ورأيْنَنا بالسفْح ذي الأجبالِ
فنكحْنَ أهلَ الجدّ من فرساننا والضاريينَ جماجمَ الأبطال

ومما يأتي تحت عنوان الجماعية والتشابه قول القائل في الخوارج(٤٨٩):

للّــهِ درُّ الشُّراةِ إنّهُــمُ إذا الكرى مالَ بالطّلى أرِقُوا
يُرجّعــون الحنينَ آونــةً وإن علا ساعةً بهم شهِقوا

(٤٨٧) شعر الخوارج: ١١٧.
(٤٨٨) شعر الخوارج: ٤٥.
(٤٨٩) الأبيات للطرماح.

خوفاً تبيتُ القلوبُ واجفــةً		تكـادُ عنها الصُّدورُ تنْغلِــقُ

ولا عجب أن يكون شعْرهم متشابهاً في أسلوبه وموضوعه ومعانيه وصوره، ما دامت مصادر ثقافتهم واحدة (القرآن الكريم والحديث الشريف وأدب العرب ولغتهم) ويصدرون في شعرهم عن فكر واحد وعقيدة واحدة وعاطفة واحدة، ويرمـون إلى غرض واحد.

لهذا فقد نسبت أشعار بعضهـم إلى بعض، واختلـف القدماء في نسبة القصيدة الواحدة، دون أن يكون لأي شاعر منهم شخصية شعرية مميزة ينفرد بها، أو يتاح لأيٍّ منهم أن يدخل في شعره لوناً من الثقافة لم يتح لغيره، فإذا كتبنا الأبيات التالية دون أن نسمي قائلها، فإنه يصح لنا أن ننسبها إلى أكثر من شاعر من غير إخلال بالصفات الفردية لأحد منهم:

أقولُ لها وقد طارتْ شَعاعـاً		من الأبطال ويْحكِ لن تُراعي
فإنكِ لو سألتِ بقـاءَ يومٍ		على الأجلِ الذي لك لم تُطاعي
فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً		فما نيلُ الخلـودِ بمُستطـاعِ
سبيلُ الموتِ غايـةُ كلّ حيٍّ		فداعيـه لأهـل الأرض داعِ
ومـا للمـرء خيــرٌ في حيـاةٍ		إذا ما عُدَّ من سقطِ المتـاعِ

لا أعتقد أنه يضير قطري بن الفجاءة إذا نسبنا هذه الأبيات إلى مرداس بن أدية مثلاً، أو إلى عبيدة بن هلال اليشكري، أو حتى لو قلنا: قال أحد الخوارج، ما دام ليس لديهم مذاهب فنية ينتمي إليها شاعر دون آخر، وما دامت أساليبهم في التعبير واحدة وعواطفهم واحدة، وموضوعهم الشعري واحد.

٦ ــ البداوة

تبدو كلمة (بداوة) مرادفة لكلمة (عروبة) التي سبق الحديث عنها، وبالإضافة إلى ما بين الكلمتين من قرب في المعنى، واشتراك في المدلول، فإن البداوة تحمل معاني أخرى اتصف بها شعر الخوارج، بل انفرد بها عن غيره، منها: سرعة الانفعال والتأثر التي انعكست على حياتهم، وظهرت في سلوكهم وشعرهم، ومنها قلة المشاهدات وبساطتها، ومنها الصفاء في الأفكار والتعابير، ومنها الإيجاز وقوة اللفظ، ومنها أصالة اللغة وسلامتها، وخلوها من أمراض الحضارة وعيوب الاختلاط التي ألمت بشعر غيرهم..

والمقصود ببداوة الخوارج وبداوة شعرهم، بداوة الإسلام، لا بداوة الجاهلية فقد ظهرت في أشعارهم الميزات السالفة الذكر للبداوة، وانتفت منها عيوب بداوة الجاهلية: من خشونة في التعبير

وصعوبة في الكلمات، وأخذ بالروح الجاهلية، واعتماد للموضوعات الجافية، كوصف الوحش والفلاة، ومشاهد الصيد والرحيل، والغزو والاعتداء على الحقوق والحرمات، مما لا ينسجم بحال من الأحوال مع أخلاق الخوارج وأدبهم.

وبعبارة واحدة فقد أخذ الخوارج من البداوة ما يلائم خلقهم وطريقتهم في نظم الشعر، ونبذوا كل ما عدا ذلك.

ولا يصعب على من يقرأ شعر الخوارج أن يقف على صحة ما ذهبنا إليه، من أن بداوة الخوارج هي بداوة إسلامية، لها مضمونها الخارجي. هذه أبيات كتبها قطري بن الفجاءة إلى سميرة ابن الجعد حين أصبح جليساً للحجاج(٤٩٠):

لَشَتّان ما بين ابن جعدٍ وبيننا
إذا نحنُ رحنا في الحديد المظاهرِ(٤٩١)
نُجالدُ فرسانَ المهلبِ، كلُّنا
صبورٌ على وقعِ السيوفِ البواترِ

(٤٩٠) شعر الخوارج: ٤٧، ورد اسم الشاعر (سميرة) في شعر الخوارج، و (سبرة) في غيره.

(٤٩١) الحديد المظاهر: الدرع المضاعف.

ألم تر أنّ الموتَ لاشكَّ نازلٌ
ولابدَّ من بعثِ الألى في المقابرِ
حفاةً عراةً والترابُ لديهمُ
فمن بين ذي ربحٍ وآخرَ خاسرِ
فإنَّ الذي قد نلتَ يفنى وإنما
حياتُكَ في الدنيا كوقعةِ طائرِ
فراجعْ أبا جعدٍ ولاتك مغضياً
على ظلمةٍ أعشتْ جيمع النواظرِ
وتبْ توبةً تهدي إليك شهادةً
فإنك ذو ذنبٍ ولستَ بكافرِ
وسرْ نحونا تَلْقَ الجهادَ غنيمةً
تُفِدْكَ ابتياعاً رابحاً غير خاسرِ
هي الغايةُ القصوى الرغيبُ ثوابُها
إذا نالَ في الدنيا الغنى كلُّ تاجرِ

وشبيه بهذا الطابع ما أجاب به ابن الجعد لما قرأ كتاب قطري: ركب فرسه وأخذ سلاحه ولحق بقطري وخلّف رسالة فيها[٤٩٢]:

(٤٩٢) شعر الخوارج: ٤٧.

فمنْ مُبلغُ الحجاج أن سميرَهُ
قَلَى كلَّ دينٍ غير دينِ الخوارجِ
رأى النَّاسَ إلَّا مَنْ رأى مثلَ دينِهِ
مَلَاعينَ ترَّاكينَ قصدَ المخارجِ
فأقبلتُ نحوَ اللّهِ باللّهِ واثِقاً
وما كربتي غيرُ الإلهِ بِفارِجِ
إلى عصبةٍ أمِّا النهار فإنَّهُمْ
همُ الأسْدُ أُسْدُ الغيل عند التَّهايجِ
وَأمَّا إذا ماالليلُ جُنَّ فإنَّهُمْ
قيامٌ بأنواحِ النّساءِ النَّواشِجِ

ومن بداوة شعر الخوارج ما كتبه يزيد بن حبناء إلى زوجته، وقد طلبت منه هداياً وألطافاً(٤٩٣):

دعي اللوَمَ إن العيشَ ليسَ بدائم
ولا تعجلي باللوم ياأمَّ عاصم
فإنْ عَجِلَتْ منكِ الملامةُ فاسمعي
مقالةَ معنيٍّ بحقكِ عالم

(٤٩٣) شعر الخوارج: ٣٦.

ولا تَعْذُلينا في الهديَّة إنما
تكونُ الهدايا مِنْ فضولِ الغنائم
فليسَ بِمُهْدٍ مَنْ يكونُ نهارُهُ
جلاداً، ويمسي ليله غير نائم
يريدُ ثوابَ اللّٰهِ يوماً بطعنةٍ
غموسٍ كشدقِ العنبريّ ابنِ سالم[٤٩٤]
أبيتُ وسربالي دلاصٌ حصينةٌ
ومغفرُها والسيفُ فوقَ الحيازم[٤٩٥]
حلفتُ بربِّ الواقفين عشيَّةً
لدى عرفاتٍ حلفةً غير آثم
لقد كانَ في القوم الذين لقيتُهُمْ
بسابورَ شغلٌ عن بزوز اللطائم[٤٩٦]
توقَّدُ في أيديهمُ زاغبيةٌ
ومرهفةٌ تفري شؤون الجماجم[٤٩٧]

---

(٤٩٤) طعنة غموس: واسعة، والعنبري بن سالم: أحد رجالهم اشتهر بسعة شدقيه.

(٤٩٥) الحيازم: جمع حيزوم وهو الصدر.

(٤٩٦) اللطائم جمع لطيمة، وهي القافلة، والبزوز جمع بز: الثياب والبضائع.

(٤٩٧) الزاغبية: الرماح المنسوبة إلى زاغب، وهي رماح إذا هزت تدافعت كلها كأن أولها يجري في مقدمها.

ترى الـخيلَ تَرْدى بالـتَّجافيفِ بينهُـمْ
بفرسانها، مرّ النسورِ القشاعـم[٤٩٨]

وغير خافٍ ما في هذه الأبيات، والأبيات التي سبقتها من طابع بدوي، ذلك الطابع الذي يحمله سائر شعر الخوارج.

٧ ــ القوة

إن ما يميز الشخصية الخارجية ذلك السلوك المتطرف في التعامل، فهم يغالون بإلزام أنفسهم بما يرونه واجباً عليهم من سلوك وعمل، وهم مغالون في تحديهم لخصومهم في الحرب والسلم، فإذا أُحضر أحدهم لمقابلة أمير أو خليفة كان يبالغ في التحدي ويكيل الإهانات والاتهامات، فيتهمهم بالكفر والمروق من الدين، وأخبارهم مع خلفاء بني أمية وولاتهم كثيرة في هذا الموضوع: جاء في البيان والتبيين للجاحظ[٤٩٩] أن الحجاج قال لامرأة خارجية: والله لأعدَّنَّكم عدّاً ولأحصدَّنكم حصداً. فقالت: أنت تحصد والله يزرع، فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق. وفي

(٤٩٨) تردى: تثب، التجافيف: ما يجلل به الفرس مما يقيه الجراح.
(٤٩٩) البيان والتبيين ٢/٣٧٠.

المصدر نفسه(٥٠٠) جواب قطري بن الفجاءة على كتاب أرسله له الحجاج بن يوسف الثقفي يقول الجواب:

من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف: سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم اللّه، ويرهبون نقمه. فالحمد للّه على ما أظهر من دينه، وأظلع به أهل السِّفال، وهدى به من الضلالة، ونصر به عند استخفافك بحقه.

كتبتَ إليَّ تذكر أني أعرابيٌّ جلفٌ أُمِّيٌّ أستطعم الكسرة وأشتفي بالتَّمرة، ولعمري يابنَ أمِّ الحجاج إنك لَمُتَيَّهٌ في جِبِلَّتِكَ مُطْلَخِمٌّ(٥٠١) في طريقتك، واهٍ في وثيقتك، لا تعرف اللّه، ولا تجزع من خطيئتك، يئِسْتَ واسْتَيْأَسْتَ من ربّك: فالشيطانُ قرينُك لا تجاذبُهُ وثاقكَ، ولا تنازعهُ خناقَك، فالحمدُ للّهِ الذي لو شاء لَأبْرَزَ لي صفْحَتَكَ وأوضحَ لي صلْعَتَكَ، فوَالذي نفسُ قطريٍّ بيدِه لَعَرفْت أنَّ مقارعةِ الأبطال، لَيْسَتْ كتصدير المقال، مع أني أرجو أن يدحضَ اللّهُ حجَّتَكَ، وأنْ يَمْنَحني مُهْجَتَكَ.

وإذا كانت القوة دليل عمل اعتمدوه طوال حياتهم وفي كل

(٥٠٠) البيان والتبيين ٢/٣٦٧.

(٥٠١) شديد، متكبر، مظلم.

أعمالهم، فلا بدَّ أن يكون شعرهم شعر القوة، ظهر ذلك منذ أيامهم الأولى ومنذ قال قائلهم أول بيت من الشعر أو الرجز، كان ذلك في النهروان عندما واقفهم عليّ هناك في تلك الموقعة المشهورة، حمل رجل منهم على عسكره وأخذ يرتجز[٥٠٢]:

أقتلهمْ ولا أرى عليّا ولو بدا أوجرتُه الخطيّا

وخرج إليه علي فقتله، فلما خالطه السيف صاح: ياحبذا الروحة إلى الجنة. ومن أرجاز ذلك اليوم:[٥٠٣]

أضربهُم ولو رأى أبا حسن ضربتُه بالسيف حتى يطمئن

لقد تجلت القوة في كل موضوعات شعرهم، وحسبنا أن ندل على مواطن القوة في الموضوعات التي تعارف النقد وتاريخ الأدب على أن القوة غير مطلوبة فيها، بل إنها منافية لطبيعتها مرفوضة بها، كالرثاء والغزل، فمن مواقف القوة في الرثاء قول أيوب ابن خولي يرثي من قتل من أصحاب شوذب[٥٠٤]:

---

(٥٠٢) قائله شريح بن أوفى ـ شعر الخوارج: ١٠٣.

(٥٠٣) نفس الشاعر ونفس المصدر / ١٠٣ / والكامل: ١٢٨.

(٥٠٤) شعر الخوارج: ٧٠ وابن الأثير ٥ / ٣٨٩.

تركنا تميماً في الغبار مُلَحَّباً
تبكّي عليه عرسُه وقرائبُه[٥٠٥]
وأقبلَ مِنْ حرانَ يحملُ رايةً
يغالب أمرَ اللّهِ، واللّه غالبُهْ
فإن يك خليّ هدبةُ اليوم قد مضى
فإني بآلاءِ الفتى أنا نادبُهْ
فيا هدب للهيجا ويا هدب للندى
ويا هدب للخصم الألدّ يُحاربُهْ
ويا هدب كم مِنْ ملحمٍ قد أجبته
وقد أسْلَمَتْهُ للرماح جوالبُهْ[٥٠٦]
وكان أبو شيبانَ خيرَ مقاتلٍ
يرجّى، ويخشى بأسَهُ مَنْ يحاربُهْ
ففازَ ولاقى اللّهَ بالخيرِ كلّه
وخذَّمَهُ بالسيف في اللّهِ ضاربُهْ[٥٠٧]

---

(٥٠٥) تميم بن الحباب: أحد القواد الذين ندبهم يزيد بن عبد الملك لحرب شوذب، ملحباً: مقطعاً.
(٥٠٦) الملحم: الذي أُسر.
(٥٠٧) خذّمه: قطّعه.

تزوَّدَ من دنيــاهُ درعــاً ومغفــراً
وعضباً حُسَاماً لم تَخنْـهُ مضاربُـهْ
وأجــردَ مـحبـوكَ السراةِ كأنــه
إذا انقضَّ وافي الرِّيش حجنٌ مخالبهْ(٥٠٨)

ومن ذلك قول الجعد بن ضمام الذهلي يرثي صالح بن مسرح(٥٠٩):

أيا عين فابكي صالحاً إن صالحاً
شرى نفسه لله يبغي بها الخلدا
وقد كانَ ذا رأيٍ مبينٍ ورأفةٍ
صفوحاً عن العَوْراءِ يدفعُها عمدا
وقد كانَ في الحربِ العوانِ يَشُبُّها
ويُسْعِرُها بالخيلِ محبوكةً جُرْدا

ومن أمثلة القوة في الغزل، ــ إذا سلّمنا أنّ لدى الخوارج غزلاً ــ ما كتبه الشاعر الخارجي، يزيد بن حبناء لزوجته، وقد كتبت إليه تطلب منه هدايا(٥٠٩):

(٥٠٨) وافي الريش: كثيره، حجن مخالبه: معقوفة.
(٥٠٩) شعر الخوارج: ٣٦ وشرح النهج ١/٥٤٠.

دَعي اللَّومَ إنَّ العيشَ ليسَ بدائمِ
ولا تَعْجلي باللّومِ ياأمَّ عاصم
ولا تعذُلينا في الهديَّة إنَّما
تكونُ الهدايا من فضول الغنائم
فليس بمُهْدٍ من يكون نهارُهُ
جلاداً ويمسي ليلهُ غيرَ نائم
يريد ثوابَ اللّه يوماً بطعنةٍ
غموسٍ كشدقِ العنبريّ بنِ سالم
أبيتُ وسربالي دلاصٌ حصينةٌ
ومغفرها والسيفُ فوق الحيازم

ومن قول قطريّ بن الفجاءة في أم حكيم(٥١٠):

ولو شهدَتْني يومَ دولابَ أبصرتْ
طعانَ فتىً في الحربِ غيرِ ذميم
غداة طَفَتْ علماء بكرُ بن وائلٍ
وألّافُها من حِمْيَرٍ وسليم(٥١١)

(٥١٠) شعر الخوارج ٤٤ وشرح النهج ١/٦٠٥.
(٥١١) علماء: على الماء.

ومالَ الحجازيُّونَ نحوَ بلادِهمْ
وعجْنا صدورَ الخيلِ نحوَ تميم
فلم أر يوماً كانَ أكثرَ مَقْعَصاً
يمجُّ دماً من فائظٍ وكليم[٥١٢]
فلو شهِدَتْنا يومَ ذاكَ وخيلُنا
تُبيحُ من الكفَّار كلَّ حريم
رأت فِتيةً باعُوا الإلهَ نفوسَهُمْ
بجنَّاتِ عَدْنٍ عِنْدَهُ ونَعيم

وإذا كانت القوة تطبع شعر الرثاء والعزل بطابعها، فطبيعي أن تكون أكثر ظهوراً في الموضوعات الأخرى، كموضوع الحرب والدفاع عن العقيدة وأمثالها وهي جلّ شعر الخوارج .. إنهم يطلبون الموت في كل مناسبة، ويتباهون بالتسابق نحو الشهادة:[٥١٣]
من كانَ يكرهُ أن يَلْقى منيَّتَهُ
فالموتُ أشهى إلى قلبي مِنَ الْعَسَلِ
ومثله[٥١٤]:

(٥١٢) المقعص: الطعن بالرماح. فائظ: ميت.
(٥١٣) شعر الخوارج: ٧٣.
(٥١٤) شعر الخوارج: ١١٦.

إذا ما التقينا كنتُ أوّلَ فارسٍ يـجودُ بنفسٍ أُثْقَلَتْها عيُوبُها

ومنه(٥١٥)

وهـم الأسودُ لدى العريـن بَسَالـــةً
ومـن الـخشوعِ كأنَّهُـــمْ أحْبـــارُ
يـمضون قد كسروا الـجفونَ إلى الوغى
متبـــسِّمين وفيهـــمُ استـــبشارُ
فكأنَّمـــا أعداؤهـــم أحبابُهـــم
فرحـاً إذا خَطَـرَ الْقَنَـا الـخطَّـارُ
يرِدُونَ حَوْمَـاتِ الحِمَـامِ وإنَّهـــا
واللّهِ عِنْـدَ نفـوسهـم لَصِغـارُ
قدرٌ يُخلِّفنـــي ويـمضيهـــمْ به
يالهفَ كيــف يفوتُنـــي الـمقــدارُ

ومن قول عبيدة بن هلال اليشكري(٥١٦)

ومسـوّم للـموتِ يركبُ دِرْعَهُ بين القواضب والقنا الـخطّار
يدنـو وترفعُهُ الرمـاحُ كأنـهُ شِلْوٌ تَنَشَّبَ في مخالبِ ضار
فثَوَى صريعاً والرماحُ تنوشُهُ إنَّ الشُّراةَ قصيرةُ الأعمـــار

---

(٥١٥) شعر الخوارج: ١١٦.

(٥١٦) شعر الخوارج: ٥٢. وشرح النهج: ١/٥٨٠.

وقال أحد الخوارج يصف صيحةَ شبيب[٥١٧] :

إن صاحَ يوماً حَسِبتَ الصَّخرَ منحدراً
والريحَ عاصفةً والموجَ يلتطمُ

وقال قطري[٥١٨] :

ياربّ ظلّ عقابٍ قد وقيتُ بها
مُهري مِنَ الشَّمْسِ والأبطالُ تَجتَلِدُ
ورُبَّ يومٍ حمىً أرعيتُ عقوتَهُ
خيلي اقتصاراً، وأطرافُ القنا قصدُ
مشهّراً موقفي والحربُ كاشفةٌ
عنها القناعَ، وبحرُ الموتِ يطّردُ
ورُبَّ هاجرةٍ تَغلي مراجلُها
مَخَرْتُها بمطايا غارةٍ تخدُ
تجتابُ أوديةَ الأفزاعِ آمنةً
كأنَّها أُسُدٌ تقتادُها أُسُدُ
فإن أمتْ حتفَ نفسي لاأمتْ كمداً
على الطِّعانِ، وقصرُ العاجزِ الكمَدُ

(٥١٧) شعر الخوارج: ١٠٩ والبيان والتبيين: ١٢٨.

(٥١٨) شعر الخوارج: ٤٢.

ولم أقــلْ لم أساقِ الموتَ شارِبَــهُ

في كأسِــهِ، والْمَنايـا شُرَّعٌ وُرُدُ

ومنــه أقــوال الخوارج في معــارك سلّــى وسليرى وسولاف[٥١٩]:

بسلّى وسليرى مصارعُ فتيـةٍ

كرامٍ وعقرى من كميتٍ ومن وردِ

و:

بسلّى وسليرى جَماجِمُ فتيـةٍ

كرامٍ وصَرعـى لم توسّد خدودهـا

و:

فإنْ تكُ قَتْلى يوم سلّى تَتَابَعَتْ

فكم غادرتْ أسيافنـا من قماقـم

غداةَ نكـرُّ المشرفيـة فيهـمُ

بسولافَ يومَ المـأزقِ المتلاحـم

و:

وَكَمْ من قتيلٍ تَنْقُر الطَّيْرُ عَيْنَهُ

بسولافَ غرّتْهُ المنى والجعائل[٥٢٠]

---

(٥١٩) شعر الخوارج: ١٠٦ــ ١٠٧.

(٥٢٠) الجعائل: الأعطيات التي يأخذها الجندي أجراً..

و:

وكائنْ تَرَكْنا يَوْمَ سُولافَ مِنْهُمُ
أساري وقَتْلى في الجحيمِ مَصيرُها

ويظهر الحض على الثورة والخروج في شعرهم، كأحد أهم أركان هذا الشعر، وكذلك الدعوة الدائمة إلى الجهاد وإحقاق الحق وتأكيد مالديهم من قيم ومثل بحد السيف، يقول الشاعر الخارجي معاذ بن جوين الطائي(٥٢١):

ألا أيُّها الشارون قد حانَ لامرىءٍ
شرى نفسَهُ للّهِ أن يَترحَّلَا

أقمتمْ بدارِ الخاطئينَ جهالةً
وكلُّ امرىءٍ منكم يُصادُ ليُقتَلا

فشدُّوا على القومِ العداةِ فإنَّما
إقامتُكُمْ للذّبحِ رأياً مضلّلا

ألَا فاقصدوا ياقومُ للغايةِ التي
إذا ذُكِرتْ كانَتْ أبرَّ وأعْدَلا

ومثل ذلك ماكتبه قطري بن الفجاءة المازني إلى أبي خالد القناني ــ وكان من القعدة ــ(٥٢٢)

(٥٢١) شعر الخوارج: ٨.

(٥٢٢) شعر الخوارج: ٤١.

أبا خالدٍ ياانفرْ فَلستَ بخالدِ　　　وما جعلَ الرحمنُ عذراً لقاعدِ
أتزعمُ أنَّ الخارجيَّ على الهدى　　　وأنتَ مقيمٌ بين لصٍّ وجاحدِ

وإذا كانت القوة واضحةً في كل موضوعات شعرهم، فلا نريد القول: بأن إظهار القوة في الموضوعات الشعرية التي يستحسن فيها إظهار الضعف والدموع ـــ كالرثاء والغزل ـــ ميزة فنية تستحق الثناء، ولكننا نقرر واقعاً ونرصد حقيقة قد تجد ما يسوِّغها في عالم الخوارج القائم على القوة، ففي رثائهم صبر المؤمنين الأقوياء، وفيه التصميم على متابعة النضال، وفيه التأكيد على الثأر والانتقام. وفي الغزل التباهي أمام المحبوبة بالقوة والشجاعة ومنازلة الفرسان، وحب الشهادة، والتقرب من الحبيبة بالتقرب من الله، ولئن بدا ذلك غريباً بعض الشيء، فهو غير منافٍ لتقاليد الغزل والرثاء في كثير من الوجوه.

٨ ـــ الواقعية

من واقعهم البسيط المحدود، ومما تحت أيديهم وأبصارهم من مشاهد، استقوا صورهم الشعرية، وعناوين قصائدهم، فمصادر إلهامهم: الطبيعة القاسية، والعقيدة الصارمة، والثقافة القرآنية الخالصة، وهناك الحروب الدائمة، لا يستطيعون أن يجنحوا بخيالهم

خارج هذه الدوائر، فهي أفقهم المحيط بهم. وما دام الخوارج ليسوا شعراءٍ محترفين، فليس من همهم تصيُّد الصور وابتداع الأخيلة، وتجويد الأداة الشعرية وتطويعها، فهي مهمة لديهم بقدر ما تؤدي من غرض خارجي لا فني، لذا فقد حبسوا خيالهم في حدود واقعهم المادي والذهني، فجاءت صورهم تعبيراً عن هذا الواقع، فيها صدق الواقع وجماله، وفيها واقعية العواطف ونبلها، كما أن فيها أيضاً تجهم الواقع وقسوته، وشدة وطأته على الحياة والأحياء، لا يكاد الخارجي يفلت منها، إلا بإطلالته على عالم الآخرة ذلك العالم الأثير عنده، والذي هو البديل لكل ما يعانيه في دنياه من قسوة وظلم وقهر.

فإذا وصفوا مقاتلاً أو متعبداً ــ وهذا مجال خيالهم ــ جاؤوا بصدق الواقع المادي والعاطفي، فكانت تشبيهاتهم ومجازاتهم من صلب عالمهم المختار، معبرة عما يريدون، فمقاتلهم:

يهوي فترفعــهُ الرّمــاحُ كأنّــهُ
شِلْــوٌ تَنَشَّبَ في مَخَالــبِ ضارِ

وعبَّادُهمْ:

متأوّهـون كأنَّ جمـرَ غضاً للموتِ بين ضلوعهم يسري

تلقاهـــــم ألّا كأنَّهـــــــمُ لخشوعِهِمْ صَدروا عن الحشرِ

وعلى الرغم من أن صورة (الصادر عن الحشر) ليست في متناولهم المادي، فإنها تشغل أذهانهم، وتسيطر على خيالهم، حتى كأنها ماثلة أمام أعينهم ومن هنا جاء جمالها وقوة تأثيرها..

ومن الصدق الواقعي، بساطة خيال شاعرهم، إنه يتمنى أن يثيبه اللّه بطعنة واسعة عميقة، كشدق العنبري بن سالم (وهو خارجي من الأزارقة) كان يُسمّى (الأشدق) لسعة شدقه:

يــريــدُ ثــوابَ اللّه يــومــاً بــطــعــنــةٍ
غمــوسٍ كشدقِ العـــنبريّ بن سالم

فصورهم الشعرية وأخيلتهم، لا تتعدى واقعهم الملمـوس والقريب منهم. لقد صوروا الحرب كما هي، أو كما وردت في شعر غيرهم، وتصويرهم لها مختلف عن تصوير غيرهم، بأنهم شاهدوها ومارسوها ولم يقل قائل منهم كلمة تتعلق بها إلا وقد عاشها بكل أبعادها، بينما صور الكثيرون الحرب على السماع بها، وهذه ميزة للخوارج، تعطي شعرهم صدق الواقع وعاطفة الممارسة والمعاناة.

قال عمرو بن الحصين العنبري في وصف الحرب(٥٢٣):

(٥٢٣) شعر الخوارج: ٨٤ وشرح النهج ١/٦١٦.

والمصطلي بالحرب يُسعِرُها   بغبارها في فتيةٍ سُعْرِ
يجتاحُها بأفلَّ ذي شطبٍ   عَضْبِ المضاربِ قاطع الْبَتْرِ
لا شيء يَلْقاهُ أسرَّ لَهُ   من طَعْنَةٍ في ثغْرةِ النَّحرِ
نجلاءَ منهرة تجيشُ بما   كانتْ عواصي جَوْفه تجري
خوَّاض غمرة كلِّ متلفةٍ   في اللّه تحتَ العثيَرِ الكدرِ
ترَّاك ذي النَّخواتِ مختضباً   بنجيعهِ بالطَّعْنَةِ الشَّزْرِ

إنهم يُعنون بصدق التصوير، أكثر من عنايتهم بالتجويد والإتقان والتنقيح، ولا يبالون بإظهار القصيدة بأحسن حالة ممكنة، ما دامت هذه القصيدة ليست هدفاً بذاتها.

وكما أن شعرهم واقعي بصوره وأخيلته، كذلك فهو واقعي بموضوعاته وعواطفه: فلم يتجاوزوا من حيث الموضوع، عقيدتهم الخارجية وما يترتب عليها من تمسك بها ودفاع عنها وحض على الجهاد في سبيل تحقيقها، أي أن موضوع العقيدة الخارجية بوجهيها النظري والعملي كان الموضوع الشعري الوحيد عندهم. أما عواطفهم فليست من النوع الشاذ ولا المبالغ فيه، وإنما هي الحقائق التي يدينون بها فتظهر شعراً وقوراً يطفح بنبل الصدق ودفء الحقيقة. وهم واقعيون أيضاً في اختيار أساليبهم الشعرية،

وانتقاء ألفاظهم من قاموس الواقع اللغوي للعرب والمسلمين، لم يخرجوا عن هذا في قليل أو كثير.

وأريد أن أشير إلى أن عالم الآخرة، على ما فيه من المجهول والغيب، وعلى الرغم من انشغالهم الدائم به، وتشوقهم للوصول إليه، لم يثر في أشعارهم تصوراً غامضاً أو خياليّاً، ولا شكّل لديهم أفقاً مجهولاً حارت فيه خيالاتهم، بل هو عالم أليف معروف، إنه عالم الجنة والنار كما جاء في القرآن الكريم، إنه عالم البعث والنشور الذي تمثلوا صورته وكأنهم يعرفونها:

تلقاهـــمُ ألّا كأنـهـــمُ ... لخشوعهم صَدروا عن الحشرِ

هذا الحضور القوي لعالم الآخرة في أذهانهم، جعله واقعاً يُعاش وحقيقة ملموسة، لا تثير تساؤلاً ولا تستدعي استغراباً، إنهم يعرفونها بكل ثقة وتأكيد، يقول قطري بن الفجاءة[٥٢٤]:

ألم تَرَ أنَّ الـموتَــ لا شَكَّــ نازلٌ ... ولا بدَّ منْ بعثِ الأُلى في الـمقابـــرِ

حفـــاةً عراةً والتـــراب لديهـــمُ ... فمِنْ بين ذي ربحٍ وآخرَ خاسـرِ

---

(٥٢٤) شعر الخوارج: ٤٧.

وحتى الذين يرحلون إلى عالم الآخرة، فإنهم يعرفون إلى أين هم ذاهبون، وكذلك الشعراء الذين يرثونهم يصورون طريقهم ومصيرهم بكل واقعية قرآنية، قال الأصم الضبي في رثاء الخوارج الذين قتلوا عند الجوسق (مكان بظاهر الكوفة)(٥٢٥)

إني أديـــــنُ بما دانَ الشُّراةُ به
يومَ النُّخَيْلَةِ عندَ الجوسَقِ الخَرِبِ

النافريـــنَ على منهاجِ أوَّلِهـــمْ
مِنَ الخوارجِ، قبلَ الشكِّ والرِّيبِ

قـومـاً إذا ذُكّـروا باللّه أو ذكـروا
خروا من الخوفِ للأذقان والرُّكبِ

ساروا إلى اللّهِ حتى أُنزِلوا غُرفاً
مِنَ الأرائك، في بيتٍ من الذهبِ

وبمثل هذه الرؤية الواضحة لواقع الآخرة، رثى جسان بن جعدة شوذباً وأصحابه(٥٢٦):

حتّى مَضَوْا لِلّذي كانوا له خَرجُوا
فأورثونا منـاراتٍ وأعْلامـا

(٥٢٥) شعر الخوارج: ٥٦.

(٥٢٦) شعر الخوارج: ٧٠.

إنّـي لَأعْلَـــمُ أنْ قد أُنزِلُــوا غُرفــاً
من الـجنـانِ، ونالـوا ثَــمَّ خـدَّامـــا

٩ ـــ حرارة العاطفة

إن المتتبـع لسيرة الخوارج سيعـرف دونما عنـــاء مدى انسجامهـم مع أنفسهـم وصدق سلوكهـم، وسيرى التطابـق الكامل بين ما يطرحون من مبادىء وشعارات وبين طريقتهم في السعي لتحقيق تلك المبادىء والشعارات، فهـم يمتـازون بأنهم طرحوا شعار: وحدة الغايات والوسائل، فالأهداف النبيلة يجب الوصول إليها بأنبل الطرق وأكرمها، ومن ثم فإن التلازم بين شعرهم وعقيدتهم سمة مميزة لهم لا يخطئها من يعرفهم.

لقد كان شعر الخوارج جزءاً من أخلاقهم، لما ذكرنا من وحدة القول والعمل عندهم، ومن التلازم بين الشعر والعقيدة، فشعرهم بجملته موظف في خدمة العقيدة، لقد كان تعبيراً صادقاً عنهم في كل المجالات.

إن كل مكونات صدق العاطفـة متوفـرة لديهم، فهـم لا يتملقون أحداً لمكسب مادي إذ ليس للمدح عندهم وجود،

ذلك لما يتطلبه هذا الفن من الكذب للحصول على أغلى ثمن ممكن من الممدوح، ولم يكتفوا بالامتناع عنه، بل طالبوا غيرهم بتجنبه، وطالبوهم بالتعفف والاستغناء بالله عن الناس، قال عمران بن حطان يخاطب الفرزدق، وقد رآه يتكسب بالشعر في المربد[٥٢٧]:

أيها المادحُ العبادَ ليُعْطَى ... إنَّ لِلّه ما بأيدي العبادِ

فاسأل اللّهَ ماطلبتَ إليهمْ ... وارْجُ فضلَ الْمقسّم العوّادِ

لا تقلْ في الجوادِ ماليسَ فيه ... وتسمِّ البخيلَ باسمِ الجوَادِ

والخوارج يتجنبون في شعرهم المبالغات المخلة بالصدق والعفوية، والمنافية لحقائق الكون ونواميسه.

ثم إن البساطة والسهولة والعفوية، كانت مما يميز شعرهم، وهذه بدورها مؤشرات هامة على صدق العاطفة ونبلها.

إن حرارة الإيمان والاستهانة بالموت في سبيل العقيدة، كانت تطبع الشعر بحرارة العاطفة وصدقها، مما يدعو إلى إدخال شعر الخوارج بأجمعه في صميم الأدب الملتزم.

كذلك فإن وحدة الموضوع، ووحدة الهدف، وحتى

(٥٢٧) شعر الخوارج: ٢٠ وتاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب: ١٧٦.

وحدة الدافع، كلها جعلت عواطف الخوارج حارة صادقة صدق الواقع الخارجي، إنهم ينبعون من منبع واحد، ويصبون في مصب واحد، ومن مؤشرات صدق العاطفة عندهم، ذلك التكرار لبعض الأفكار والكلمات والعبارات والإلحاح عليها، مما يؤكد أنها تعيش في أعماقهم وتحاول الخروج بنفحات الشعر.

وألحّ على نبل الدافع عندهم، فهم لم يمدحوا أحداً، ولم يتقربوا من أحد، ولم ينظروا إلى ما في يد أحد مهما بلغ شأنه، ولأي سبب من الأسباب، لم ينافقوا أحداً، ولو كان ذلك يتعلق بموت أو حياة.

ثم إن قوة التأثير التي يمتاز بها شعرهم، وقربه من النفس وأخذه بمجامعها، هي مقاييس داخلية لصدقه.

الخوارج أعداء الممدوحين، فهم يستنكرون المدح أصلاً، ورؤوسهم جميعاً مطلوبة، وشعرهم كله تأييد لمبادئهم، ودحض لآراء خصومهم، إن أعداءهم كانوا يخشون على أنفسهم من تأثير أقوالهم وشدة حرارتها وبلاغتها، قال عبيد الله بن زياد[٥٢٨] «لَكَلَامُ

(٥٢٨) الكامل للمبرد: ٨٢ــ اليراع: نوع من القصب الفارسي سريع الاشتعال.

هؤلاء أسرع إلى القلوب، من النار إلى اليراع». وقال عبد الملك ابن مروان عن رجل من الخوراج زيّن له مذهبهم بلسان طلق، وألفاظ بينة، ومعانٍ قريبة: «لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأنّا أولى بالجهاد منهم» وأمر عبد الملك بحبسه، وقال: «لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي، ما حبستك، ثم قال: من شككني وَوَهَّمني حتى مالَتْ بي عصمة الله، فغيرُ بعيدٍ أن يَستهويَ من بعدي»[٥٢٩] كيف استطاع هؤلاء أن يبلغوا من شدة التأثير ما بلغوا، مما أدهش العدو والصديق؟. لاشك أنهم نالوا ذلك بما شحنوا به أقوالهم من إيمان عميق، وصبُّوا في أشعارهم من قيم ومثل، وقد ضربوا المثل بذلك بين شعراء الأحزاب الأخرى، ممن عاصروهم، فالكميت ــ شاعر الشيعة ــ اضطر لمدح الأمويين، وفعل مثله ابن قيس الرقيات، شاعر الزبيريين، إذ مدح عبد الملك بن مروان، أما الخوارج فما كان هذا وليس له أن يكون.

لقد ساومهم حكام بني أمية على أقلّ من المدح، على وقف الثورة المسلحة، والسكوت والعيش الآمن، فكان جوابهم الرفض

(٥٢٩) الكامل للمبرد: ٦٨.

القاطع، وكفَّروا القعـدة منهمـ الذيـن لا يرون حمل السلاح واجباًـ كانوا إذا هددهم أعداؤهم بالموتـ وهم في قصورهمـ سخروا من الموت وأصرُّوا على مواقفهم.

فمن صادق الأقوال والأفعال: موقف خطيبهم وشاعرهم عبيدة بن هلال اليشكري، يوم حاصره وقومه سفيان بن الأبرد الكلبي، وتمكَّن منهم، ونادى وخطب بهم قائلاً: من قتل صاحبه ثم جاءنا فهو آمن، فكان جواب عبيدة[٥٣٠]

لَعَمْـري لَقَـدْ قامَ الأصـمُّ بـخطبـةٍ
لِذي الشَّكِ منها في الصُّدور غليـلُ
لَعَمْري لئـنْ أعطيتُ سفيـانَ بيعتـي
وفـارقتُ دينـي، إنَّنـي لَجَهُـولُ
إلـى اللّٰه أشـكـو مـا تَـرى بـجيـادِنـا
تَساوَكُ هَزْلى مُخُّهـنَّ قليـلُ[٥٣١]
تعاورَهـا القـذّافُ مِنْ كلّ جانـبٍ
بقومـسَ حتـى صعبُهُـنَّ ذلـولُ[٥٣٢]

---

(٥٣٠) شعر الخوارج: ٥٢. والكامل وشرح النهج.

(٥٣١) تساوك: يحك بعض عظامها بعضاً.

(٥٣٢) تعاورها: تداولها. القذاف: رماة السهام.

فإنْ يكُ أفناها الـحصارُ فربّمـــا
تشـحَّـــطَ فيمـــا بينهـــنَّ قتيـــلُ
فقد كذْنَ مـما ان يقدْنَ مِنَ الوَجى
لهـنَّ بأبـوابِ القبـابِ صهيـلُ[٥٣٣]

وغني عن الشرح ما في هذا الموقف من صلابة، لقد هزلت الخيول ونفدت المؤونـة وضاقت الحال إلى الحد الـذي وصفـه الشاعـر، والقـوم ـــ مع ذلك ـــ صامـدون لا تلين لهم قنـاة، ولا يفكرون بالاستسلام، وهم يعرفون أن الموت ينتظرهم، وقد أتيحت لهم فرصة الحياة والنجاة، ولكنها فرصة ذليلة لم يقبلوها.

من هذا الموقف أريد أن أنبه إلى موقف عام للخوارج، ذكـره ولْهـاوزن المؤرخ الألماني الشهير، في كتابـه (الخوارج والشيعة)[٥٣٤]. خلاصة هذا الموقف: إن الخوارج منذ بداية صراعهم العسكري مع الأمويين، أدركوا ووعوا أن المعطيات القائمة من عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية، لا يمكن أن تؤدي بهم إلى النجاح في التغلب على خصمهم وتغليب الحق الذي ينادون

---

(٥٣٣) الوجى: الإعياء لمرض أو جرح.

(٥٣٤) الخوارج والشيعة: ٣٦ ـــ ٣٧.

به، ومع ذلك فلا يمكنهم أن يذعنوا لهذا الباطل الذي يُحملون عليه، أو يقبلوا أن يكونوا رعايا في دولة يعتقدون بكفر أئمتها والقائمين على أمرها، فاختاروا الحل الثالث عن علم ووعي وإدراك وسابق تصميم، ذلك الحل هو الموت في سبيل العقيدة، فهم إذاً يسيرون إلى الموت وهم يعلمون، وهم الأموات الأحياء، وإن للموت معهم لشأناً أي شأن. وشعر الخوارج نابع من هذا المنبع الكبير ويتغذى مما ذكرنا من روافد..

لنستمع إلى هذه النغمة المؤمنة القانعة بواقع الحياة، وقدر السماء، يذكر قطري نفسه[٥٣٥]:

أقولُ لها وقَدْ طارَتْ شَعاعـاً	من الأبطال: ويحكِ لن تُراعي
فإنكِ لو سألتِ بقـاءَ يومٍ	على الأجَلِ الذي لكِ لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيـل الخلـود بمُسْتطـاعِ
سبيلُ الموتِ غايـةُ كلّ حرٍّ	فداعيـه لأهـل الأرض داعِ
وما للمـرء خيـرٌ في حيـاةٍ	إذا ما عُدَّ منْ سقطِ المتـاعِ

لم يكتفِ الخوارج بالتحلي بالصدق والتمسك بالعقيدة، بل تعدوا ذلك لمطالبة أصدقائهم وأعدائهم بالأخذ بهذه الأخلاق، وقد

(٥٣٥) شعر الخوارج: ٤٢ وشرح النهج ١/٤٠٠.

شهر ذلك عنهم، وتناقله الناس عبر العصور، قال أبو نواس في الخمرة[٥٣٦]:

فكأني وما أحسِّنُ منها قَعَدِيٌّ يزيِّنُ (التحكيما)
كَلَّ عنْ حملِهِ السلاحَ إلى الحر بِ فأوصى المطيقَ ألَّا يُقيما

فهذه شهادة من أبي نواس بشدة تمسكهم (بالتحكيم) الذي هو أحد أركان مذهبهم، والدعوة إلى (الخروج) وهو أساس المذهب إلا عند القَعَدَة.

وفي مجال الاستشهاد على حرارة العواطف وصدقها عند الخوارج، لا أرى أننا بحاجة للتفتيش عن نص بعينه، بل يمكن تناول ما تقع عليه اليد من أدبهم ليكون الشاهد المنشود، قال الرهين المرادي[٥٣٧]

يا نفسُ قد طالَ في الدُّنيا مراوغتي
لا تأمَنَنَّ لصرفِ الدهرِ تنغيصا
إني لبائعُ ما يفنى لباقيةٍ
إنْ لم يُعقْني رجاءُ العيشِ تربيصا

---

(٥٣٦) البيان والتبيين: ٣٤٦.

(٥٣٧) الكامل للمبرد: ٩٤. وشعر الخوارج: ٣٢. وشرح النهج: ٦٠٣/١.

وأسأَلُ اللّهَ بيعَ النفسِ محتسباً
حتى ألاقيَ في الفردوس حرقوصا[٥٣٨]

وابنَ المنيحِ ومرداساً وإخوتَهُ
إذ فارقُوا زهرةَ الدُّنيا مخاميصا[٥٣٩]

تخالُ صفَّهمُ في كلِّ معتركٍ
للموت سوراً مِنَ البنيانِ مرصوصا

وقال مرداس بن أدية في الخروج بعد مقتل عبد اللّه بن وهب الراسبي[٥٤٠]:

أبعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى
ومن خاضَ في تلك الحروب المهالكا

أُحبُّ بقاءً أو أُرجّي سَلَامةً
وقد قتلوا زيدَ بن حصنٍ ومالكا

فيارب سلّمْ نيَّتي وبَصيرتي
وهبْ لي التُّقى حتى ألاقي أولائكا

---

(٥٣٨) حرقوص بن زهير السعدي.

(٥٣٩) المخاميص: الضامر والبطون.

(٥٤٠) شعر الخوارج: ١٠.

أي صدق يفوق هذا الصدق[٥٤١] :

ياعينُ بكّي لمرداسٍ ومَصْرَعِهِ
يارَبَّ مرداس الحقني بمرداس
تركتَني هائماً أبكي لمرزأةٍ
في منزلٍ موحشٍ من بعد إيناس
أُنكرتُ بعدَكَ مِمّن كنتُ أعرفُهُ
ماالناسُ بَعْدَكَ يامرداسُ بالنَّاس[٥٤٢]

وإذا أشرنا أخيراً، إلى أن أسلوب الإنشاء، ومافيه من نداء وأمرٍ ونهي وتساؤل، يغلب على شعرهم، فإننا بذلك نقدم دليلاً آخر على احتدام عواطفهم وتوقدها، فإكثارهم من هذه الفنون الخطابية، يقلل للصيغ الخبرية تدخلها في إفساح المجال لشطحات الخيال، والاستغراق في البعد عن الواقع وحقائقه القائمة..

١٠ ــ الجِدّة

شعر الخوارج نبتة إسلامية خالصة، لم يعلق به من

---

(٥٤١) شعر الخوارج: ١٥ والكامل: ٨٨.

(٥٤٢) يروي هذا البيت على الشكل التالي:

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ، ماالناسُ بعدك يامرداس بالناس

خصائص الشعر الجاهلي ما يجعله تابعاً له، أو امتداداً لبعض أنواعه، كذلك لم يتأثر بما عاصره من شعر أموي أو عباسي، وهو بذلك يشكل جزيرة منعزلة في بحر الشعر العربي، كيف احتل هذه المنزلة أو كيف تفرد بهذه الصفة؟ الحقيقة أن الخوارج أنفسهم كانوا يعيشون في عزلة تامة عما يحيط بهم العالم، فلهم عالمهم الخاص بهم، ولهم شعرهم المتفرد بما ذكرنا من صفات. فهو من حيث الموضوعات، خلو من الموروث تماماً، فليس فيه وقوف على الأطلال، ولا تغنٍّ بالعصبيات القبلية، ولا تفاخر بالأحساب والأيام، وليس فيه خمر ولا لهو ولا صيد ولا وصف للغزوات أو الأسمار، وليس فيه مدح أو هجاء على طريقة سابقيهم أو معاصريه.

آ ـ لقد خلا من كل ما أُثر من مضامين الشعر المعروفة، واتجه نحو ذلك الموضوع الواحد، ذلك الجديد، وهو نصرة العقيدة والالتزام بالقضية الخارجية.

ب ـ ربما كان الخوارج أول جماعة عربية تلتزم بأجمعها موضوعاً شعريّاً واحداً، لا تحيد عنه، ولا يحيد عنه أحد شعرائها، لقد رأينا في تاريخ الشعر العربي أفراداً يلتزمون موضوعاً واحداً، كالخنساء في الرثاء، وعمر بن أبي ربيعة في الغزل، وأمثالهما، ولكننا لم نر جماعةً

أو حزباً سياسيّاً بأكمله يفعل ذلك غير الخوارج ، فشعراء كل الأحزاب ، خاضوا في كل موضوعات الشعر المعروفة في أيامهم. لقد كان تجديد الخوارج (من حيث المضمون) يسير في اتجاهين متعاكسين: الأول: تجديد سلبي ـ إذا صح التعبير ـ تَمَثَّلَ بهجرهم لكل مضامين الجاهلية وقيمها ، وموضوعات شعرها التي سبق ذكرها ، والثاني: توجه إيجابي نحو الالتزام بالموضوع الواحد موضوع العقيدة الخارجية ، يدور في فلكها لا يتعداه إلى غيره...

جـ ـ تجديد آخر جاء به الخوارج وتفردوا به ، وهو أن شعراءهم هم زعماؤهم وقادتهم السياسيون والعسكريون والدينيون ، وليسوا نفراً من المتسولين على أبواب ملوك اليمن والعراق والشام يهيمون في كل واد ، ويقولون ما لا يفعلون ، وإن كل من أوردنا لهم نصوصاً نستشهد بها ، إنما هم زعماء وقادة للخوارج: قطري بن الفجاءة ، عمران بن حطان ، نافع بن الأزرق ، عبيدة بن هلال ، وغيرهم وغيرهم...

د ـ إن الحض على الثورة لتغيير النظام الاجتماعي القائم ، والتطاول على ولاة الأمر بالتسفيه والتكفير ، إنما هو موضوع جديد في أدب العرب..

هـ ــ إن نغمة الزهد التي سمعناها منهم كانت أول نغمة من نوعها عند العرب والمسلمين، لقد جاء التزهد في الإسلام متأخراً، وجاء التصوف متأخراً، وكان الزهاد والمتصوفون يمثلون الهروب من الحياة ومسؤولياتها، ويقومون بدور فردي يخدمون فيه ذواتهم للنجاة بأرواحهم هم من العذاب، أما زهد الخوارج فقد كان ــ إضافة إلى ظهوره المبكر ــ إيجابيّاً، كان سعياً وراء خير الجماعة وإصلاح المجتمع وخدمة الحياة الدنيا والآخرة، كان زهداً قويّاً، أو كان زهد القوة، فالمتعبد المتهجد، يمتشق السيف ليخوض غمرات الموت في سبيل الوصول إلى حقّ اعتقد بصحته، لقد عبّر أدباء الخوارج عن زهدهم هذا بالشعر والنثر، قال أبو حمزة الخارجي في خطبته المشهورة يصف أصحابه(٥٤٣) : «أنضاءُ عبادةٍ وأطلاحُ سهرٍ، ينظرُ اللّهُ إليهمْ في جوفِ اللّيل منحنية أصلابُهم على أجزاءِ القرآن، كلّما مرَّ أحدُهُمْ بآية من ذكرِ الجنَّة بكى شوقاً إليها، وإذا مرَّ بآيةٍ من ذكرِ النَّار، شهقَ شهقةً كأنَّ زفيرَ جهنمَ بين أذنيه، قد أكلتِ الأرضُ رِكبَهُمْ وأيديَهُمْ وأنوفَهم وجباهَهُمْ، واستقلُّوا ذلك في جَنْبِ اللّه، حتّى إذا رأوا السهّامَ قد فُوِّقَتْ،

---

(٥٤٣) البيان والتبيين ٢/١٢١ ــ ١٢٢ والعقد الفريد ٤/١٤٨.

والرماحَ قد أُشْرِعَتْ، والسيوفَ قد انتُضِيَتْ، وبَرَقت الكتيبةُ، وَرَعَدتْ بصواعق الموت، استخفّوا بوعيـدِ الكتيبةِ لوعدِ اللّه، ومضى الشّابُّ منهم قُدُماً، حتى اختلفتْ رجلاهُ على عنقِ فرسـهِ، وتخضَّبَتْ بالدِّماءِ مَحَاسِنُ وَجْهِـهِ».

و ــ لقد ظهر زهدهم في الشعر أكثر من ظهوره في النثر، وكان في أكثره يمثل ما وصفناه بالزهد الإيجابي (الزهد في سبيل الخير والمصلحة العامة) حيث تتجلى فعالية الزهاد وقدرتهم، وإقبالهم على الموت في سبيل الحياة، وتقديمهم القدوة الصالحة، قال عمران بن حطان في رثاء عروة بن أدية[(٥٤٤)]:

لقـد زادَ الحيـاةَ إلـيَّ بُغضاً ... وحُبـاً للخـروج أبـو بلال
أحاذرُ أنْ أموتَ على فراشي ... وأرجو الموتَ تحتَ ذرا العوالي
فمن يكُ همُّـهُ الدُّنيـا فإني ... لهـا، واللّه ربِّ البيـتِ قـال

إن زهدهم يدفعهم للموت في المعارك، بينما يموتُ الزاهدون في صوامعهم ومعابدهم..

ويقول عمران بن حطـان أيضاً في الزهـد الخالص من

(٥٤٤) شعر الخوارج: ١٦.

الدنيا[٥٤٥] :

أرى أشقياءَ النـــاسِ لا يسأمونَهـــا
على أَنَّهُـــمْ فيها عراةٌ وجـــوَّعُ

أراهـــا وإنْ كانَتْ تُحبُّ فإنَّهـــا
غمامـةُ صيـفٍ عن قليـلٍ تَقَشَّـــعُ

ويقول :

حتى متـى تُسقـى النفـوسُ بكأسِهـا
ريبَ المنـــونِ وأنتَ لاهٍ تَرْتَـــعُ

أَفَقَـــدْ رضيتَ بأَنْ تُعلَّـــلَ بالمنـــى
وإلى المنيَّـــةِ كلَّ يومٍ تُدفَـــعُ

أحـــلامُ نومٍ أو كظـــلٍّ زائـــلٍ
إن اللبـــيب بمثلِهـــا لا يُخـــدعُ

فتـــزوَّدنَّ ليـــومِ فقـــرِكَ دائبـــاً
واجمعْ لِنَـفسِـكَ لا لِغَيـرِكَ تـجمـعُ

« وعمران بن حطان يمثل حقيقة الزهد الخارجي ، لأن الصراع في نفسه أقوى منه في نفوس الشعراء الآخرين ، ولأن النزعة

---

(٥٤٥) شعر الخوارج : ١٧ .

الإنسانية في شعره ليست تياراً سطحياً، بل هي تيار عميق لا بد لرؤيته من التغلغل في أعماق نفسه»[٥٤٦].

ومن الزهد المقترن بالإقدام، وطلب الموت بكل شجاعة دونما أسف على الحياة الدنيا، قول الحويرث الراسبي[٥٤٧]:

أقولُ لِنَفسي في الخلاءِ أَلُومُها: هَبلْتِ دعيني قد ملَلْتُ مِنَ الْعُمْرِ
ومِنْ عيشةٍ لا خيرَ فيها دنيئةٍ مذمّمةٍ عِنْدَ الكرامِ ذوي الصّبْرِ
سأركبُ حوباءَ الأمور لَعَلّني ألاقي الذي لاقى المحرّقُ في القصر[٥٤٨]

وقال حسان بن جعدة في الزهد[٥٤٩]:

بَنَوا مقاصرَ في الدُّنْيا لتخلدَهُم فمنْ لهمْ بخلودٍ في المقاصير؟

(٥٤٦) مقدمة شعر الخوارج للدكتور إحسان عباس ص / ١٠ /.
(٥٤٧) شعر الخوارج: ٦٠.
(٥٤٨) حوباء: يرى الدكتور إحسان عباس أنها (حوبات) جمع حوبة وهي الهم والحاجة والجهد.
(٥٤٩) شعر الخوارج: ٧٠.

هيهاتِ لن يخلـدُوا فيها ولـــو حَرِصُوا
حتَّـى تروعَ أُنـاساً نَفْخَـــةُ الصُّور
قد كانَ قبلَهُـمُ قومٌ فمـــا خلـــدوا
وأصبحـوا بيـــنَ مقتـــولٍ ومقبـــور

إن ما أوردنا من شواهد شعرية في تضاعيف هذه الدراسة، وكثيراً مما لم نورد، يلح على فكرة (الموت)، فالخوارج يطلبون الموت بشكل مختلف عما عرفنا عند غيرهم، مختلف في الدافع، وفي الأسلوب، إنهم يكثرون من طلبه، ويرون فيه الحل لكل مشكلاتهم الدنيوية والدينية. إنهم يسارعون إلى الموت، لا هرباً من مسؤوليات الحياة وتبعاتها، فهم أقوياء قادرون على تحمل كل المشاق الدنيوية، لا ينهزمون أمامها، فهم يطلبون الموت لأنهم وجدوا فيه تحقيقاً لجملةٍ من الأهداف:

١ ـــ يحقق لهم الانتصار على ما يتهددهم من حياة الذل، والقبول بما لا يطيقون مما يحاول الحكام فرضه عليهم إذا ظفروا بهم.

٢ ـــ يحقق لهم إيجاد بديل رائع عن النصر المستحيل الذي

يسعون إليه ويقتنعون باستحالاته، فلا بد أن يتوج بالموت الذي هو أعلى درجات الانتصار.

٣ ـــ يحقق لهم اختصار الطريق إلى الله.

فطعم الموت مختلف عندهم تماماً. يرى الدكتور إحسان عباس[٥٥٠] ان الموت يحقق للخوارج اللحاق بالله، واللحاق بالإخوان، وأنه هو الدين الحقيقي عندهم، ويرى كذلك أن الشاعر الخارجي في صراع مع الزمن، وسبيله للانتصار عليه هو الموت، وهذا الرأي يصيب صلب الحقيقة بالنسبة لموقف الخوارج من الموت، إذ يؤكد أن (غاية الموت) هي التي تكيف الحياة عند الخوارج وتوجه الشعر والأدب بعامة.

وتظهر في تطلعهم النوعي إلى الموت نغمة أخرى هي نغمة تأنيب النفس ولومها، على التقصير بالواجبات والتفريط بحق الإخوان، وقد أشار إلى هذا التلوم النفسي الدكتور إحسان عباس في مقدمة شعر الخوارج[٥٥١]، ويظهر ذلك التلوم في كثير من أشعارهم حسرةً وندماً وتبرماً بطول العمر وتأخر الأجل:

---

(٥٥٠) مقدمة شعر الخوارح ص ٧.

(٥٥١) مقدمة شعر الخوارج: ٧.

أقول لنفسي في الخلاء ألومُها:
هبلتِ دعيني قد مللتُ من العمر

ومماقال أحد شعرائهم[٥٥٢]:
ولقد مَضَوا وأنا الحبيبُ إليهمُ وهمُ لديَّ أحبةٌ أبرارُ
قدرٌ يخلّفني ويمضيهمْ بهِ يالهف كيفَ يفوتُني المِقْدارُ

وقال آخر[٥٥٣]:
إخوانُ صدقٍ أُرجِّيهمْ وأخذُلُهُمْ
أشكو إلى اللّهِ خذلاني لأنصاري

وهذا زياد الأعسم يستبطىء الموت[٥٥٤]:
أقيمُ على الدُّنيا كأني لا أرى
زوالاً لها أو أحسب العيشَ باقيا

وكذلك قطري بن الفجاءة[٥٥٥]:

---

(٥٥٢) شعر الخوارج: ١١٦.
(٥٥٣) شعر الخوارج: ٧٨.
(٥٥٤) شعر الخوارج: ٦٦.
(٥٥٥) شعر الخوارج: ٤٣.

إلى كم تغاريني السيوفُ ولا أرى
مغاراتها تدعُو إليَّ حِمامِيا[٥٥٦]

أقارعُ عَنْ دارِ الخلودِ ولا أرى
بقاءً على حالٍ لِمن ليس باقيا

ولو قَرَّبَ الموتَ القراعُ لَقَدْ أنى
لموتيَ أن يدنو لطولِ قراعيا

ويعجب حطان الأعسر من تجاهل الموت له، على الرغم من تعرضه وتصديه له[٥٥٧]:

بليتُ وأبلاني الجهادُ وساقني
إلى الموتِ إخوانٌ لنا وأقاربُ

شريتُ فلم أُقْتَلْ، ونازلت ولم أُصبْ
كذاك صروفُ الدهرِ فينا عجائبُ

وبعد هذا الاستطراد غير البعيد عن الموضوع، نعود لنرصد بعض جوانب التجديد الأخرى في المضمون الشعري عند الخوارج.

---

(٥٥٦) تغاريني: تلاحقني وتلح في طلبي.

(٥٥٧) شعر الخوارج: ٥٦.

ز ــ في مجال ابتكار المعاني الشعرية واختراعها، فعلى الرغم من أنهم غير معنيين بمحاولات الابتكار والغوص على المعاني، فقد أصابوا بعض هذه المعاني الشعرية المشهورة والخالدة، وذهبوا بفضل السبق في ابتداعها، ثم تداولها الشعراء من بعدهم، فغيروا وبدلوا وتصرفوا ما شاءت لهم أهواؤهم، من غير أن يشير النقد العربي القديم أو الحديث، أو تاريخ الأدب إلى شيء من هذا، بل تجاهله كما تجاهل كل الجوانب الإيجابية عند الخوارج؛ وليس لنا في عجالة كهذه أن نخوض في موضوع طويل وشائك كهذا الموضوع، فهو يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها، ولكن من المطلوب تأكيد هذه الحقيقة ببعض الأمثلة، لقد ذكرنا معنى (فناء الموت) الذي ذكره عمران بن حطان في قوله(٥٥٨) :

لا يعجزُ الموتَ شيءٌ دونَ خالقِهِ
والموتُ فانٍ إذا ما نالَهُ الأجلُ

فالمتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس يقول(٥٥٩) :

تمرَّستُ بالآفاتِ حتَّى تركتُها
تقول : أمَاتَ الموتُ، أمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟

(٥٥٨) شعر الخوارج : ٢٨.

(٥٥٩) ديوان المتنبي ٢/٢٥٣.

وهناك المعنى الشعري الرائع (وصلُ السّلاح بالخُطا)، لقد أعجب القدماء كثيراً بهذا المعنى، جاء في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري[٥٦٠] «رأى بعض العرب سيفاً فقال: ما أجوده لولا قصر فيه، فقال صاحبه: نصله بخطوة، فقال الرجل: تلك الخطوة أشد من مشيتي إلى الصين».

وعمران بن حطان هو القائل في هذا المعنى[٥٦١]:

إذا قصرتْ أسيافُنـــا كانَ وَصْلُهـــا
خُطانـــا إلى أعدائِنـــا فنضاربُ

لقد كان عمران من غير شك من المبكرين في تناول هذا المعنى، ثم تبعه الكثيرون في تناوله، فمن القدماء أبو تمام إذ يقول[٥٦٢]:

خطـوٌ ترى الصارمَ الهنـديَّ منـتصِراً
به من المارنِ الـخطّـــيّ منتَصِفَـــا

ومن المحدثين بدوي الجبل في قوله[٥٦٣]:

---

(٥٦٠) من ديوان المعاني ١٥٨/١.

(٥٦١) شعر الخوارج: ٢٦.

(٥٦٢) ديوان أبي تمام ٣٦٨/٢. ومن ديوان المعاني ١٥٩/١.

(٥٦٣) ديوان بدوي الجبل: ١١٥.

إذا انْقَصَفَتْ أسنَّتُنا وَصَلْنا   بأيدينا الأسِنَّةَ والصّفاحَا

ح ــ ومن جديد الخوارج، ذلك الالتزام الصارم الذي أخذ شعراؤهم به أنفسهم، مما لم يكن لغيرهم من شعراء الإسلام، ولا شعراء الجاهلية من قبله، فعلى صعيد الأحزاب السياسية الإسلامية، لم يلتزم كل شعراء الحزب بكل مبادئه، وعلى صعيد القبيلة لم يأخذ كل شعرائها أنفسهم بالدفاع عن قيمها ومصالحها وما يتعلق بها، بل خاضوا بكل الفنون الشعرية الأخرى، وكانوا في سباق مع غيرهم من شعراء القبائل، حتى لقد خرج بعض شعراء القبيلة عن كل ما تعده أساس قوتها وسمعتها وشرفها، والصعاليك هم أولئك الشعراء المعنيون. وكذلك فقد تعدى شعراء الأحزاب الإسلامية الأخرى موضوع عقيدة الحزب ومبادئه، إلى كثير من الأغراض المباينة لما هو مطلوب منهم كشعراء ملتزمين بقضايا حزبهم ومنطلقاته النظرية، وصلت في كثير من الأحيان إلى مدح أعداء حزبهم.

وإذا عدنا إلى شعراء الإسلام الأوائل أنفسهم، كحسان وكعب والحطيئة وأمثالهم، وجدنا أن دواوينهم ليست كلها دفاعاً عن الإسلام، فهم لم ينذروا كل أشعارهم لوجه الدين الجديد، بل

كانت قلوبهم تخفق بكثير من ذكريات الجاهلية ومغرياتها، حتى لكأنهم يبدون وقد أُكرهوا على بعض ما قالوه دفاعاً عن الإسلام، وإن المخضرمين منهم كانوا في جاهليتهم أشعر منهم في إسلامهم.

ط ـــ فإذا تجاوزنا مضمون شعر الخوارج وما رأينا فيه من جديد، إلى الشكل الفني لهذا الشعر، وجدنا أن تجديدهم فيه كان ثورة على القصيدة القديمة: فهيكل قصيدتهم، وترتيب أبوابها، وبناء أفكارها، لم يعد يسير على العمود القديم، بل خرج شعراؤهم على بناء القصيدة الجاهلية فلم يقدّموا لأغراضهم بالوقوف على الأطلال أو النسيب، أو وصف الراحلة والطريق، بل هجروا كل ذلك، وباشروا غرضهم دون مقدمات من أي نوع.

ي ـــ لقد نبذ شعراء الخوارج أساليب الجاهليين الخشنة، وتعابيرهم الجافية التي لا تروق السمع، وجاؤوا بالرقيق السهل الواضح، فكان شعرهم مستحبّاً قريباً إلى النفوس في معانيه وألفاظه.

ك ـــ وشعر الخوارج مقطوعات قصيرة لا معلقات طويلة تتحقق في هذه المقطوعات القصيرة، الوحدة الفنية إلى حدّ بعيد،

فالصور متشابهة، والنغمة الحماسية واللهجة الخطابية، تسودان القصيدة كلها.

ل ــ والقصيدة الخارجية ذات موضوع واحد، وليس فيها تعدد للموضوعات، كما هي الحال في القصيدة الجاهلية.

م ــ وأختم ببعض الأقوال القيمة للأستاذ أحمد الشايب في تجديد شعراء الخوارج يقول(٥٦٤): «إنه شعر جديد في موضوعه، جديد في معانيه، جديد في غاياته، جديد في خلق رجاله وعواطفهم القوية المهذبة الرقيقة، هذة الجدة أبعدته عن تقليد القدامى أو المعاصرين في الديباجة الغزلية والتخييل وتعدد الفنون في القصيدة الواحدة، الموضوع واحد، والمعاني من واد واحد والصور متشابهة حماسية، لم يفرغوا للصنعة والافتتان، وليس لديهم قصائد طويلة إلا قصيدة لعمرو بن الحصين في يوم قديد، وأخرى في رثاء أبي حمزة الخارجي، وعبد الله يحيى طالب الحق، وكلتاهما في صميم المذهب الخارجي» وقال في معرض المقارنة بين شعرائهم والفحول من شعراء غيرهم(٥٦٥): «الخوارج مهذبون تقاة ورعون

---

(٥٦٤) تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب ص ١٧١.

(٥٦٥) تاريخ الشعر السياسي /١٨١ ــ ١٨٤.

جمهوريون مجددون، يحتقرون المال والحياة، ذوو مثل عالية أساسها الروح الإسلامي، يفنون في سبيله، ويثورون على النظام الخارج على الدين، أما الفحول فيثورون على النظام الإسلامي، ويتحللون من الشعائر الدينية، وينزعون إلى الحرية البدوية، رافعين عقائدهم بكل الشهوات والنزعات الاجتماعية، والأحقاد العصبية».

١١ ــ وحدة الموضوع

شعر الخوارج يدور في فلك واحد، ويأتي برمته تحت عنوان واحد، والكلام في هذا الموضوع كلام معاد، فقد مرَّ في تضاعيف هذه الدراسة ما يؤكد هذه الحقيقة، وكل حديث عنها لا يعدو أن يكون تكراراً لما قلناه في فقرات سابقة، وربما كان ذلك من طبيعة الموضوع، فإن تشابه شعر الخوارج يجعل الحديث عن مختلف جوانبه وخواصه حديثاً متشابهاً.

إن شعرهم ينصب في بوتقة واحدة هي بوتقة عقيدتهم، لا يخرج عنها ولا يبتعد عن مدارها في قليل أو كثير، ولا عجب في ذلك، فالغايات واحدة، والدوافع واحدة، والثقافة التي يصدر عنها واحدة، وحتى في الموضوعات التي لا يخطر على بال أحد أنها تمت للعقيدة بصلة، كالغزل والفخر والرثاء والهجاء، فإنها لا تختلف عن

غيرها، إنها من صلب العقيدة الخارجية تحمل روحها ومبادئها وثورتها، دفاع عن العقيدة، ودفع لخصومها، واعتزاز بها ومباهاة بالجهاد والموت في سبيلها، وتسفيه للأنظمة القائمة، وتقديم البرهان على لا شرعيتها.

لقد هجروا كل الموضوعات القديمة، ونبذوا الأغراض الدنيوية: من مدح وعصبيات ومجون، فليس لديهم مجالس لهو وقيان، بل نمط شعري إسلامي خارجي قلباً وقالباً، مضاف إليه بعض الحكم العامة، والمعاني الإنسانية الخالدة.

وفي خاتمة شعر الخوارج وما ذكرنا له من صفات، نرى أن ندون أطول قصيدتين عثرنا عليهما في ذلك الشعر، وقد سبق وأشرنا إلى أن شعرهم كان مقطوعات لا مطولات، هاتان القصيدتان للشاعر عمرو بن الحصين العنبري، الأولى رثاء للزعيم الخارجي أبي حمزة وغيره من الشراة، أخذناها من الأغاني[٥٦٦] وشرح النهج[٥٦٧] وشعر الخوارج[٥٦٨]. والثانية لنفس الشاعر

---

(٥٦٦) الأغاني ٢٠/١١١.

(٥٦٧) شرح النهج ١/٤٦١ وطبعة دار الفكر ١/٦١٧.

(٥٦٨) شعر الخوارج: ٨٤.

يذكر فيها معركة قديد وأمر مكة أخذناها من الأغاني[٥٦٩] وشعر الخوارج[٥٧٠].

ولابد من بعض الاختلافات بين رواية وأخرى في المراجع السابقة الذكر.

القصيدة الأولى لعمرو بن الحصين أوردها شارح نهج البلاغة، وقال عنها: «إنها من مختار شعر العرب» تمثل جملة من صفات شعرهم وصفات رجالهم:

هَبَّتْ قُبيلَ تبلُّجِ الْفَجْـرِ	هندٌ تقولُ وَدَمعُها يجري
إذ أبْصَرَتْ عيني مدامِعها	ينهلُّ واكفُها على النَّحْـرِ
أنّى اعْتَراكَ وكنتَ عهديَ لا	سَرِب الدموع، وكنتَ ذا صبر
أقذى بعينكَ ما يفارقُها	أم عائرٌ أم مالهَا تذري؟[٥٧١]
أمْ ذكرُ إخوانٍ فُجعتَ بهم	سَلكُوا سبيلَهُمُ على خبر؟
فأجبتُها: بَلْ ذكرُ مصرعِهِمْ	لا غيرُهُ عَبَراتُها تَمْري
يارَبِّ أسلِكْني سبيلَهُمُ	ذا العرشِ واشدُدْ بالتُّقى أزْري

---

(٥٦٩) الأغاني ٢٠/١٢٠.

(٥٧٠) شعر الخوارج: ٨٨.

(٥٧١) العائر: الذي في عينه عوار أي قذى، كل ما أوجع العين وآذاها.

في فِتْيـةٍ صَبروا نفوسَهـم للمشرفيَّـةِ والقَنَـا السُّمْـرِ
تاللهِ أَلْـقـى الـدهْـرَ مثْـلَهـمُ حتَّـى أكـونَ رهينـةَ القَبْـرِ
أَوْفَـى بذمَّتِهِـمْ إذا عَقَـدوا وأعفّ عندَ العُسْرِ واليُسْـرِ
متأهِّبـونَ لكـلِّ صالحـةٍ ناهُونَ من لاقَوا عن النُّكـرِ
صُمتٌ إذا حَضَروا مجالِسَهُمْ من غير ماعـيٍّ بهم يزري
إلّا تـجيئهُـمُ فإنَّهـمُ رجفُ القلوبِ بحضرةِ الذّكْرِ
متأوّهـونَ كأنَّ جمرَ غضاً للموتِ بين ضلوعِهمْ يسري
تلقاهـمُ إلّا كأنَّهُـمُ لخشوعهمْ صدَروا عنِ الحشرِ
فهـمُ كأن بهمْ جَوَى مرضٍ أو مسَّهُمْ طرفٌ من السِّحْـرِ
لا لَيْلُهُمْ ليـلٌ فيلبسهُـمْ فيـهِ غواشي النَّوْمِ بالسُّكْـرِ
إلّا كرىً خلساً وآونـةً حذرَ العقابِ فهمْ على ذُعْرِ
كمْ مِنْ أخٍ لَكَ قد فُجِعْتَ به قوَّامِ ليلتـهِ إلى الفَجْـرِ
متأوِّهـاً يَتْلُـو قوارعَ منْ آي الكتابِ مُفرحِ الصدرِ(٥٧٢)
نصبٌ تجيشُ بناتُ مُهجتِـهِ م الخوفِ جيشَ مشاشةِ القدرِ(٥٧٣)
ظمآن وقـدةَ كـلِّ هاجـرةٍ تزَّاك لذَّتَـهُ على قَدْرِ
تزَّاك ماتَهْوَى النفـوسُ إذا رغبُ النفوسِ دعا إلى المزري

---

(٥٧٢) مفرح الصدر: مثقل الصدر كالذي عليه هم من دين.

(٥٧٣) نصب: متعب أو مريض، مشاشة القدر: جوفها.

ومبـــرَّإٍ من كلِّ سيِّئـــةٍ عفّ الهوى ذا مرَّةٍ شزرِ
والمصطلي بالحربِ يُسعرهـا بغبارِهـا في فتيـــةٍ سُعْـــرِ
يجتاحُها بأفَلَّ ذي شطـبٍ عضبِ المضاربِ قاطع البتـرِ
لا شيءَ يلقـاهُ أسـرَّ لَــــهُ مِنْ طَعْنَـةٍ في ثغرةِ النَّحْـرِ
نجلاءَ منهرة تجيشُ بما كانَتْ عواصي جوفهِ تجري (٥٧٤)
كبخليلكَ المختـارِ أزكِ به من مغتدٍ في اللهاو مسري (٥٧٥)
خواضِ غمرة كلِّ متلفـةٍ في اللهِ تحت العثْيـر الكدرِ
ترَّاك ذي النَّخواتِ مُخْتَضِباً بنجيعِـهِ بالطَّعْنَـةِ الشَّزْرِ
وابن الحصين وهلْ له شَبَهٌ في العرفِ أنّى كانَ والنكرِ (٥٧٦)
بشهامـةٍ لم تحنِ أضْلُعَــــهُ لذوي أخوَّتِـــهِ على غَدْرِ
طلقِ اللسانِ بكلِّ محكمـةٍ رأَّبِ صدْعِ العظمِ ذي الكسرِ
لم يَنْفَكِك في جوفِـهِ حَزَنٌ تغلي حرارَتُـــه وتَسْـتَشْري
ترقى وآونـــةً يُخفِّضُـهـــا بتنفُّـسِ الصُّعَداءِ والزَّفْـــرِ
ومخالطـي بلْـجٌ وخالصتـــي سمُّ العدوّ وجابرُالكسرِ (٥٧٧)

---

(٥٧٤) منهرة: واسعة.

(٥٧٥) هو أبو حمزة بن عوف الأزدي من أهل البصرة.

(٥٧٦) هو علي بن حصين العنبري.

(٥٧٧) مخالطي: صديقي. خالصتي: من استخلصته من الأصدقاء. بلـج بن عقبة: أحد قواد أبي حمزة، قتل بوادي القرى.

نكلُ الخصومِ إذا هُمُ شغبوا ... وسدادُ ثلمةِ عَوْرةِ الثَّغرِ (٥٧٨)

والخائض الغَمراتِ يخطرُ في ... وسطِ الأعادي أيَّما خَطْـرِ

بِمُشْطَّبٍ أو غير ذي شطبٍ ... هامَ العِـدَى بذبابـهِ يفـري

وأخيكَ أبرهـةَ الهجانِ أخي الـ ... حربِ العوانِ وموقد الجمرِ (٥٧٩)

بمرشَّـةٍ فرغٍ تثـجُّ دمـاً ... ثجَّ الغويِّ سلافةَ الخمرِ (٥٨٠)

والضارب الاخـدودِ ليس لها ... أحدٌ يُنَهنهُها عنِ السَّحْرِ (٥٨١)

ووليُّ حكمهمُ فجعـتُ به ... عمرو فواكبدي على عَمْرِو

قوَّالُ محكمـةٍ وذو فهـمٍ ... عفُّ الهوى مُتَثَبِّتُ الأمْـرِ

ومسيب فاذكـرْ وصيَّتَـهُ ... لا تنسَ إمَّا كنتَ ذا ذِكْـرِ

فكلاهُمَا قَدْ كانَ مُحْتَسِباً ... للّـهِ ذا تَـقْـوى وذا بِـرِّ

في مخبتيـنَ ولم أسمِّهـمُ ... كانوا يدي وهمُ أولو نصري

وهمُ مساعرُ في الوغى رُجُحٌ ... وخيارُ من يمشي على العفـرِ

حتَّى وَفَـوْا للّـهِ حيثُ لُقـوا ... بعهـودِ لا كَذِبٍ ولا غَدْرِ

فَتَخَالَـسُوا مُهجَاتِ أنْفسِهِمْ ... وعداتِهِـم بقـواضبٍ بُتْـرِ

---

(٥٧٨) نكل الخصوم: ينكلون عنه ويحيدون عن طريقه.

(٥٧٩) أبرهة بن الصباح، قتل بالأبطح.

(٥٨٠) المرشة: الطعنة ترش دماً، فرغ: واسعة، تثج: تصب.

(٥٨١) الأخدود: الضربة التي تخدد، السحر: الرئة.

وأسنَّــةٍ أُثبتــنَ في لُدُنٍ خطيِّــةٍ بأكفّهــم زُهْــرِ
تَحْتَ العَجَاجِ وفوقهمْ خرقٌ يخفقنَ مِنْ سودٍ ومن حُمْرِ
فتوقَّــدتْ نيرانُ حربِهــمُ ما بينَ أعلى البيتِ والحجرِ
وتَفَرَّجَتْ عَنْهُــمْ كأنَّهُــمُ لم يُغمضُوا عيناً على وترِ
صَرْعَى فخاويــةٌ بيوتُهُــمُ وخوامعٌ بجسومِهِمْ تفري(٥٨٢)

القصيدة الثانية لعمرو بن الحصين العنبري يذكر فيها وقعة قديد وأمر مكة:

مابــالُ هَمِّكَ لَيْسَ عَنْكَ بعــازِبِ
يـمري سوابـقَ دمْعِكَ المُـتَساكِبِ
وتبيتُ تكــتلِئُ النجــومَ بمُقْلَــةٍ
عَبْرَى تسـرُّ بكـــلِّ نَجْــمٍ دائبِ
حذر المنيـةِ أَنْ تـجيءَ بداهــةً
لم أقضِ من تبـــعِ الشُّراةِ مآربي
فأقودَ فيهم للعـدى شـنجَ النّســا
عبلَ الشّوَى أشرانَ ضمر الحالبِ(٥٨٣)

---

(٥٨٢) الخوامع: الضباع.

(٥٨٣) شنج النسا: منقبض العرق، يعني أنه غير مترهل. عبل الشوى: ممتلىء الأطراف. أشران: شديد المراح. ضمر: ضامر.

متحـدِّراً كالسيّد أخـلص لونـهُ
ماءُ الحسيك مع الجلالِ اللّاتبِ(٥٨٤)

أرمـي به من جمع قومـي معشراً
بوراً أولي جَبَريَّـة ومَعـايبِ(٥٨٥)

في فتيـةٍ صبـرٍ ألفُّهُـمُ به
لفَّ القداحِ يدَ المفيضِ الضَّاربِ(٥٨٦)

فنـدورُ نحن وهـمْ وفيمـا بيننـا
كأسُ المنونِ تقولُ: هلْ مِنْ شاربِ؟

لَنظـلُّ نسقيهـمْ ونشربُ من قنـا
سمرٍ ومرهفـةِ الـنُّصولِ قواضبِ

بينـا كذلك نحـنُ جالَتْ طعنـةٌ
نجلاءُ بين رهـائبٍ وتـرائبِ(٥٨٧)

جوفـاءُ مُنْهـرةٌ مَرَى تامُورَهـا
ظبتا سنانٍ كالشِّهـاب الثَّاقب(٥٨٨)

---

(٥٨٤) الجلال: الجل الذي يغطي ظهر الفرس. السيد: الذئب. اللاتب: اللاصق.

(٥٨٥) بور: لا خير فيهم. أولي جبرية: أي جبارون ظالمون.

(٥٨٦) القداح: سهام الميسر، المفيض: الذي يرمي بها.

(٥٨٧) الرهائب: عظام مشرفة على البطن. الترائب: أعالي الصدر.

(٥٨٨) منهرة: واسعة. مرى: استدر. التامور: الدم.

أهـــوي لها شقّ الشّمـــالِ كأننـــي
حفضٌ لقىً تحتَ العجاجِ العاصبِ(٥٨٩)

ياربِّ أوْجبْهــــا ولا تتعَلَّقَــــنْ
نفسي المنون لدى أكفٍّ قرائبِ(٥٩٠)

كمْ مِنْ أولي مقةٍ صحبتهـــمُ شروا
فخذلتُهــمْ ولبئسَ فعـــلُ الصَّاحبِ

متـــأوِّهين كأنَّ في أجوافِهِـــــمْ
ناراً تُسعِّرُهـــا أكـــفٌّ حواطبِ

تلقاهـــمُ فتراهـــمُ من راكـــعٍ
أو ساجـــدٍ متضرِّعٍ أو ناحبِ

يَتْلُـــو قوارعَ تمتـــري عَبَراتِـــهِ
فيجودهـــا مريَ المريِّ الحالبِ(٥٩١)

سبــرٍ لجائفـــةِ الأمـــور أطبَّـــةٍ
للصَّدْعِ ذي النبأ الجليلِ مرائبِ(٥٩٢)

---

(٥٨٩) الحفض: قاع البيت. اللقى: الشيء المهمل. العاصب: المنعقد.

(٥٩٠) أوجبها: جعلها واجباً وحقاً.

(٥٩١) تمتري: تستدر. المري: الناقة الكثيرة اللبن.

(٥٩٢) سبر: يسبرون غور الأمور. الجائفة: ما يبلغ الجوف من طعنة وغيرها. مرائب: أي يرأبون الصدع.

وَمُبرَّئِيـــنَ مِنَ المَعـــايبِ أَحْـــرَزُوا
خِصَلَ المكـــارِمِ أتقيـــاءَ أطـــايبِ
عروا صوارِمَ للجـــلادِ وبـــاشروا
حدَّ الظّبـــاةِ بآنُـــفٍ وحواجـــبِ
ناطُوا أمورَهَـــمُ بأمْـــرِ أخٍ لَهُـــمْ
فَرمى بهِمْ قحمَ الطريقِ اللّاحبِ[٥٩٣]
متسربلي حلق الـحديـــدِ كأنَّهُـــمْ
أُسدٌ على لحقِ البطونِ سلاهبِ[٥٩٤]
قيدتْ مِن اعلى حضرموتَ فلم تزلْ
تنفي عِداهـــا جانبـــاً عَنْ جانِبِ
تـحمـي أعنَّتَهـا وتـحـوي نَهْبَهـــا.
لِلّـهِ أكـــرَمُ فـتـيـــةٍ وأشـــايـــبِ
حتَّى وَرَدْنَ حيـاضَ مكَّـــةَ قطَّبـــاً
يحكيـــنَ وارِدَةَ اليمامِ القـــاربِ[٥٩٥]

---

(٥٩٣) ركب قحمة الطريق: أي ماصعب منها على السالك. اللّاحب: الواضح.

(٥٩٤) لحق البطون: ضمرت حتى لحقت بطونها بظهورها، سلاهب: جمع سلهبة وهي الفرس الطويلة.

(٥٩٥) قطباً: مجتمعات. القارب: الذي يطلب الماء.

ماإنْ أتَيْـــنَ على أخِــي جَبرِيَّــةٍ
إلَّا تركنهـــــمُ كأسِ الـــذَّاهبِ

في كلّ معتـــركٍ لها مِنْ هامِهِـــمْ
فلـــقٌ وأيــدٍ عُلِّــقَتْ بِمَنَــاكِبِ

سائـلْ بيـــومِ قديـــدَ عن وقعــاتها
تُخْبِــرْكَ عَنْ وقعاتِهـــا بِعَجــائِبِ

لقد أثبتنا هاتين القصيدتين لتفردهما بالطول، بالنسبة لشعر الخوارج، فلم نقف لهم على قصيدة أخرى تتجاوز ستة عشر بيتاً، إلّا قصيدة «الفارعة» في رثاء أخيها الوليد بن طريف الذي خرج على الرشيد، فأرسل إليه القائد يزيد بن مزيد الشيباني فقتله سنة ١٧٩ هـ في الجزيرة السورية.

بلغت القصيدة ثمانية عشر بيتاً وهي[٥٩٦]

بتــلِّ نُهاكي رســمُ قبــرٍ كأنَّــهُ
على جبــلٍ فوقَ الجبــالِ مُنيـــفِ

---

(٥٩٦) البيان والتبيين: ٣٤٢. وشرح نهج البلاغة ١/٥٩١، وضحى الإسلام ٣/٣٤٦.

تَضَمَّنَ مجداً عُدْمُليّاً وسُؤدَداً

وهِمَّةَ مقدامٍ ورأيَ حصيفِ[٥٩٧]

فيا شجرَ الخابورِ مالَكَ مورقاً

كأنَّكَ لم تجزعْ على ابنِ طريفِ

فتىً لايُحبُّ الزَّادَ إلَّا منَ التُّقى

ولاالمالَ إلَّا من قنا وسيوفِ

ولاالذخرَ إلا كلَّ جرداءَ صلدمٍ

مُعاوِدةٍ لَلْكرِّ بين صُفوفِ

كأنَّكَ لم تشهدْ هُناكَ ولم تَقُمْ

مَقاماً على الأعداءِ غيرَ خفيفِ

ولم تستلمْ يوماً لِوردِ كريهةٍ

مِنَ السَّرد في خضراءَ ذات رفيفِ[٥٩٨]

ولم تَسْعَ يومَ الحربِ والحربُ لاقحٌ

وسُمْرُ القَنَا يَنْكُزْنَها بأُنُوفِ[٥٩٩]

---

(٥٩٧) عُدْمُلياً: قديماً، ضخماً.

(٥٩٨) السَّرد: اسم جامع للدروع.

(٥٩٩) ينكز: يطعن بالرمح أو بما هو حاد الرأس.

حَليفُ النَّدى ماعاش يرضى به النَّدى
فإنْ ماتَ لا يَرْضى النَّـدى بحليـــفِ
فَقَدْنَـاكَ فِقــدانَ الشَّبــاب ولَيْتَنــا
فَدَيْنـــاكَ من فِتْيانِنـــا بأُلـــوفِ
ومـا زالَ حتَّـى أزهـقَ الموتُ نَفْسَـــهُ
شَـجــاً لِعَــدُوٍّ أو لجاً لِضَعِيـــفِ
ألَا ياَلقومــي لِلنَّــوائبِ وَالــرَّدَى
ولِـلأرْضِ همَّــتْ بعـدَهُ برجــوفِ
ألَا ياَلقومــي للنَّــوائبِ والـــرَّدى
ودهـرٍ مُلـــحٍّ بالكِــرَامِ عنيـــفِ
وللبـدرِ من بين الكـواكب إذْ هوى
ولِلشَّمْــسِ لَمَّـا أزْمَــعَتْ بكُسُوفِ
ولِلَّـيثِ كلّ الليثِ إذ يَحْملونَـــهُ
إلى حُفْــرَةٍ مَلْحُــودةٍ وسقيـــفِ
ألا قـاتـلَ اللّٰـهُ الـجُثـا حيثُ أَضْـمَـرتْ
فتىً كانَ للمعروف غيرَ عَيُوفِ(٦٠٠)

---

(٦٠٠) الجثا والجثى: جمع جثوة وهي القبر.

فإن يكُ أرْداهُ يزيـــدُ بنُ مَزْيــــدِ

فربَّ زحــوفٍ لَفَّهـــا بزحــــوفِ

عَلَيــهِ سَـــلامُ اللّـهِ وَقْفــاً فإنَّنـي

أرى الموتَ وقّاعاً بكـــلِّ شريــفِ

ثم تأتي مطوَّلاتُ الطرّمّاح، وهي كثيرة، تجاوز بعضها مئة البيت، ولنا مع الطرماح شأن خاص فيما يتعلق بخارجيته وشعره، وذلك في كتاب مستقل يصدر بعد هذا الكتاب بعون اللّه.

المراجع

ـــ الإباضية في موكب التاريخ — علي معمر ـــ دار الثقافة ـــ بيروت ١٩٦١ .

ـــ أدباء العرب : — بطرس البستاني ـــ دار صادر ـــ بيروت ١٩٦٢ .

ـــ أدب الخوارج في العصر الأموي : — الدكتورة سهير القلماوي .

ـــ أدب السياسة في العصر الأموي : — الدكتور أحمد محمد الحوفي .

ـــ أساس البلاغة : — الزمخشري .

ـــ إسلام بلا مذاهب : — الدكتور مصطفى الشكعة .

ـــ الأسلوب : — أحمد الشايب .

ـــ أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام : — تحقيق عبد السلام هارون .

- أعيان الشيعة: محسن الأمين.
- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني.
- الإمام علي بن أبي طالب عبد الفتاح عبد المقصود ـ دار الفرقان ـ بيروت.
- الأمالي: أبو علي القالي.
- أنساب الأشراف البلاذري.
- أهم الفرق الإسلامية الدكتور البير نصري نادر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت.
- بغية الوعاة السيوطي.
- البيان والتبيين أبو عثمان الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٠.
- تاج العروس في شرح جواهر القاموس: الزبيدي.
- تاريخ الأدب العربي كارل بركلمان ـ ترجمة عبد الحليم النجار.
- تاريخ الأدب العربي الدكتور شوقي ضيف.
- تاريخ الأدب العربي الدكتور عمر فروخ.
- تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

- تاريخ الأمم والملوك — الطبري .
- تاريخ الجزائر العام — الجيلالي .
- تاريخ الحضارة العامة — مجموعة صدرت بإشراف كروزيه — ترجمة داغر — منشورات عويدات — بيروت .
- تاريخ الخلفاء — السيوطي — تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد .
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي — الدكتور حسن ابراهيم حسن — مطبعة النهضة المصرية .
- تاريخ الشعر السياسي — أحمد الشايب — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٢ .
- تاريخ الشعر العربي — الدكتور عمر فروخ .
- تاريخ الشعر العربي — الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي .
- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي : — الدكتور علي حسن الخربوطلي .
- تاريخ العرب والإسلام — د . سهيل زكار — دار الفكر .
- تاريخ الفكر العربي — الدكتور عمر فروخ .
- تاريخ الفلسفة الإسلامية في القارة الإفريقية : — الدكتور يحيى هويدي .

— تعريف القدماء بأبي العلاء: الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٦٥ .

— جمهرة النسب: ابن الكلبي — تحقيق محمود فردوس العظم .

— حديث الأربعاء: الدكتور طه حسين .

— الحركات الباطنية في الإسلام: مصطفى غالب — دار الكتاب العربي .

— حرب الجمل وحروب صفين: السيد محسن الأمين — دار الفكر للجميع .

— الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني: الجامعة .

— حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة: الدكتور يوسف خليف — وزارة الثقافة المصرية : ١٩٦٨ .

— الحياة العربية في الشعر الجاهلي: الدكتور أحمد محمد الحوفي .

— الحيوان: أبو عثمان الجاحظ .

— خزانة الأدب: البغدادي .

- الخوارج في العصر الأموي — الدكتور نايف محمود معروف — دار الطليعة بيروت .
- الخوارج والشيعة — يوليوس فلهوزن — ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .
- الخوارج في الإسلام — عمر أبو النصر — بيروت ١٩٤٩ .
- دراسة في مصادر الأدب — الدكتور طاهر مكي — دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
- الدولة العربية وسقوطها — يوليوس فلهوزن — ترجمة الدكتور : يوسف العش .
- ديوان أبي تمام — شرح الخطيب التبريزي .
- ديوان البحتري — المطبعة الأدبية — بيروت ١٩١١ .
- ديوان السيد الحميري — تحقيق شاكر هادي شكر — مكتبة الحياة — بيروت .
- ديوان صريع الغواني
- ديوان الطرماح — تحقيق الدكتور عزة حسن — وزارة الثقافة السورية — ١٩٦٨ .
- ديوان الفرزدق — دار صادر .

- ديوان المتنبي: شرح البرقوقي ـــ دار الكُتاب العربي .
- ديوان الخوارج: الدكتور محمود معروف ـــ دار المسيرة ـــ بيروت .
- شرح حماسة أبي تمام: التبريزي .
- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد .
- شعر الخوارج: الدكتور إحسان عباس دار الثقافة بيروت ـــ ١٩٢٣ .
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: يوسف خليف .
- شعر الحرب في أدب العرب: الدكتور زكي المحاسني .
- الشعر والشعراء: ابن قتيبة ـــ دار الثقافة ـــ بيروت ١٩٦٤ .
- الصناعتين: أبو هلال العسكري: مطبعة محمد علي صبيح .
- ضحى الإسلام: أحمد أمين ـــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .
- طبقات الشعراء: ابن المعتز .
- طبقات فحول الشعراء: ابن سلّام الجمحي ـــ تحقيق محمود محمد شاكر .

- عبقريات العقاد دار الكتاب العربي ــ بيروت .
- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي إحسان النص دار اليقظة العربية : ١٩٦٣ .
- العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي .
- علي وحقوق الإنسان جورج جرداق ــ دار الفكر العربي ــ بيروت .
- العمدة في صناعة الشعر ونقده ابن رشيق القيرواني .
- عمرو بن العاص . عباس العقاد ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت .
- عيون الأخبار ابن قتيبة .
- الفتنة الكبرى ــ عليّ وبنوه الدكتور طه حسين دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .
- فتوح البلدان : للبلاذري .
- فجر الإسلام أحمد أمين ــ مكتبة النهضة المصرية : ١٩٦١ .
- الفرق بين الفرق البغدادي .
- فن الخطابة وتطوره عند العرب : إيليا حاوي ــ دار الثقافة ــ بيروت .

ـ الفن ومذاهبه في الشعر	د . شوقي ضيف .
ـ الفن ومذاهبه في النثر	الدكتور شوقي ضيف .
ـ في الأدب الأندلسي	الدكتور جودة الركابي ـ دار المعارف بمصر .
ـ في الشعر الإسلامي والأموي	الدكتور عبد القادر القط دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٩ .
ـ القاموس المحيط	مجد الدين الفيروزابادي .
ـ القرآن الكريم	
ـ القرامطة .	عارف تامر ـ دار الكتاب ـ بيروت .
ـ الكامل .	المبرد .
ـ الكامل في التاريخ	ابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ .
ـ كتاب الجزائر	أحمد توفيق المدني ـ دار الكتاب ـ البليدة ـ الجزائر ـ ١٩٦٣ .
ـ كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة	محمد ابو الفضائل ـ مكتب نشر الثقافة الإسلامية ـ القاهرة .
لسان العرب	ابن منظور .

ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — المجلد /١٧/.

ـ مروج الذهب — المسعودي: تحقيق يوسف داغر دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٥.

ـ مظاهر الشعوبية في الأدب العربي — الدكتور محمد حجاب ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ـ ١٩٦٦.

ـ المغرب الإسلامي — لقبال موسى ـ مطبعة البعث قسنطينة ـ الجزائر ـ ١٩٦٩.

ـ مقالات اسلاميين — الأشعري ـ تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ـ مكتبة النهضة المصرية.

ـ المعتزلة — زهدي جار الله.

ـ معجم الأدباء — ياقوت الحموي الرومي.

ـ معجم الشعراء — المرزباني.

ـ معجم البلدان — ياقوت الحموي الرومي.

ـ معجم قبائل العرب — عمر رضا كحالة.

ـ مغني اللبيب — ابن هشام.

ـ ملخص تاريخ الخوارج منذ ظهورهم، إلى أن شتت المهلب شملهم — محمد شريف سليم ـ القاهرة ـ دار التقدم ـ ١٩٢٤.

- الملل والنحل: الشهرستاني ــ تحقيق: محمد سيد كيلاني مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ــ ١٩٦١ .
- من ديوان المعاني: أبو هلال العسكري ــ تحقيق وتقديم: أحمد سليمان معروف ــ وزارة الثقافة السورية ــ ١٩٨٤ .
- نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبده .
- نهاية الأرب في فنون الأدب: النويري .
- النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير .
- هاشميات الكميت: شرح محمد محمود الرافعي .
- الوساطة بين المتنبي وخصومه: القاضي الجرجاني ــ مطبعة محمد علي صبيح .
- وفيات الأعيان: القاضي ابن خلكان .
- وقعة صفين: نصر بن مزاحم المنقري ــ تحقيق هارون .
- وقعة النهروان والخوارج: الخطيب علي بن الحسين الهاشمي ــ طهران ــ مطبعة الحيدري .

- يتيمة الدهر. — أبو منصور الثعالبي
- اليمين واليسار في الإسلام — أحمد عباس صالح — المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت ١٩٧٢.

الفهرس

قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم/أحمد سليمان معروف . ـ ط. ١ . ـ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨ . ـ ٤٠٠ ص. ؛ ١٨ سم.

١ ـ ٩٠٤,١١٨ م ع ر ق ٢ ـ العنوان ٣ ـ معروف

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـ ١٩٨٨/٩/١٠٢٣

رقم الاصدار ٣٧٤

